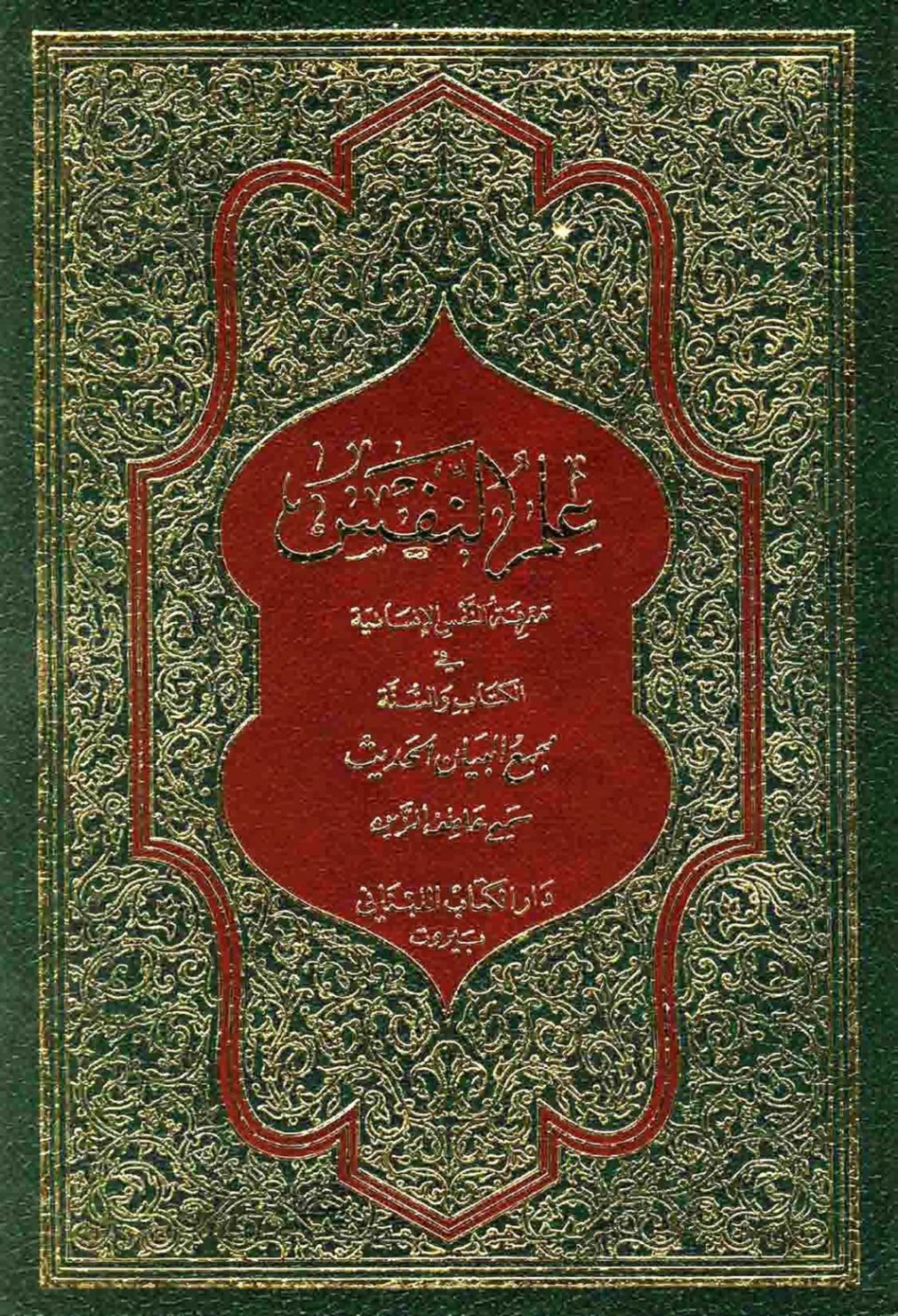

علم النفس
معرفة النفس الإنسانية
في
الكتاب والسنة
مجمع البيان الحديث
سميح عاطف الزين
دار الكتاب اللبناني
بيروت

علم النفس



مَعرِفَةُ النَّفْسِ الإنسانيّة
في
الكتابِ وَالسُّنَّة



مجمعُ البيانِ الحديث

سَميح عَاطِف الزّين

المجلّد الثاني

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

دار الكتاب المصري
القاهرة

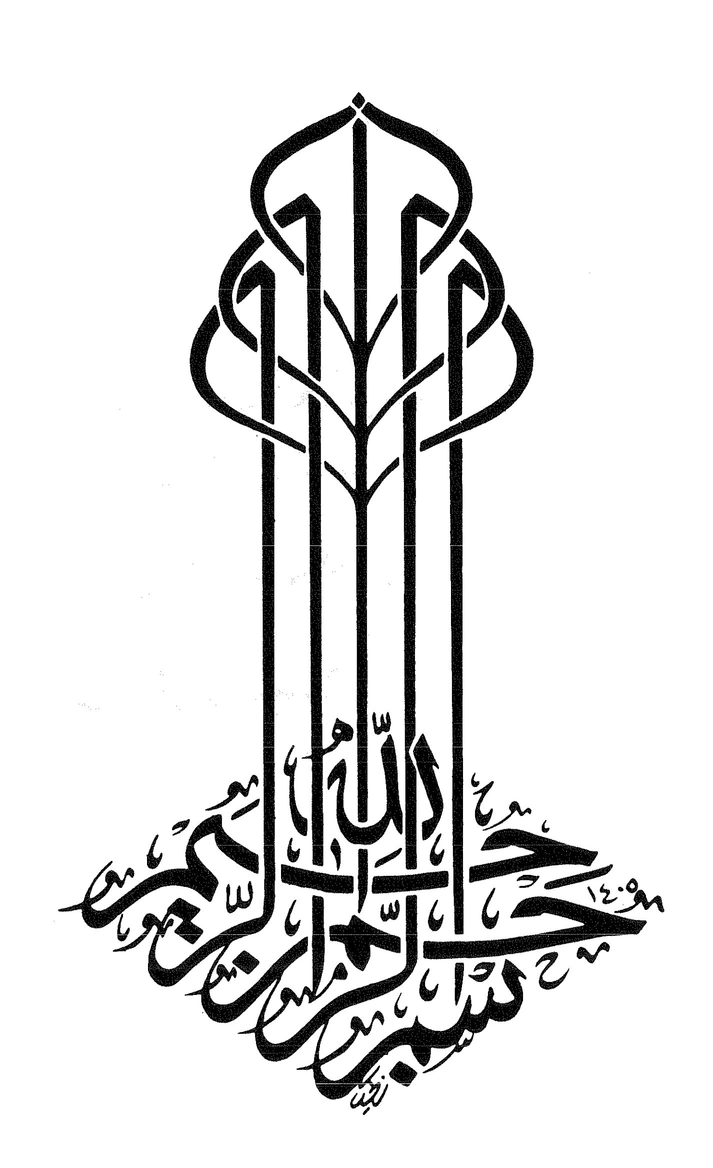
دار الكتاب اللبناني
بيروت

الفصل التاسع

- الإيمان بالغيب
وأثره على النفس الإنسانية

- الحق والباطل

- الهدى والضلال


بسم الله الرحمن الرحيم

- الإيمان بالغيب
وأثره على النفس الإنسانية

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1].

والإيمان هو التصديق، باتفاق معظم علماء المسلمين. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[2] معناه وما أنت بمصدق لنا. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[3] معناه: الذين صدقوا، ووثقوا بهذه الآيات، بحيث يصاحب التصديقَ الثقةُ. قال الشاعر:

ومِنْ قبل آمنّا ـ وقد كان قومُنا   يصلون للأوثانِ قبلُ ـ محمداً

(ومن قبل آمنّا محمداً) أي صدقناه من قبل.

والأمن لغةً هو ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة. وآمَنَ: صارَ ذا أمن على نفسه فلا خوف يعتريها، ولا خيانة تسوّل بها هذه النفس.

وفي الاصطلاح الشرعي: الإيمان هو التصديق بكل ما يلزم التصديق به من القضايا الغيبية مثل الملائكة، والبعث والنشور، والجنة والنار. . .

---

(١) البقرة: ٣.   (٢) يوسف: ١٧.   (٣) الزخرف: ٦٩.

أما الغيب فهو كل ما يغيب عن الإنسان ولم يشهده بما لا يقع تحت الحواس. أي هو كل مستور عن حواسنا ولا تقتضيه بداية التفكير.

ولكن الغيب شيء، والإيمان بالغيب شيء آخر، لأن الغيب إذا كان هو المستور، فالإيمان بهذا الغيب هو التصديق والوثوق بحقيقة هذا المستور، الذي وإن لم يقع تحت الحواس، إنما تدركه القلوب المبصرة والعقول النيّرة. قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[1]. وهذا يعني أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من أتباعه قد آمنوا بالغيب، فصدقوا تصديقاً جازماً بحقيقة وجود الله تعالى، وما أنزل من كتبه وأرسل من رسله.

هذا هو الإيمان العقلي أي الإيمان بما أيقن به العقل بعد الوقوف على كتب الله المنزلة، وتصديق رسله المبعوثين. ويستتبعه الإيمان النقلي بحقيقة وجود الملائكة، ويوم البعث والنشور، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وهي كلّها من غير المرئيات أو المحسوسات، إنما يجب الإيمان بها لأنها نقلها القرآن الكريم وأثبتها اليقين تبعاً للتصديق بحقيقة الرسول الكريم، وحقيقة وجود الله العليّ العظيم، والمدبّر الحكيم.

وأما المراد بقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[2] فهم الذين صدَّقوا حقيقة وجود الله تعالى، وآمنوا بأنه الرحمان، فهم يخشونه في غيبه، بعيدين عن المراءاة، غير مريدين بإيمانهم تقرّباً لأحدٍ، لأن بغيتهم الإخلاص لله وحده علّام الغيوب.

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) ق: ٣٣.

من هنا كان التأثير القوي لعلم الغيب على النفس الإنسانية، بحيث تخشى ربها في خلوتها واجتماعها، في عسرها ويسرها، في إقبالها وإدبارها، في حركتها وسكونها. . . فتعمل على تصحيح مسار حياتها بما يرضي خالقها، وتتجنَّب المراءاة والمصانعة، لتكسب من جراء ذلك الإخلاص لله تعالى والأمان منه سبحانه.

ومتى بلغت نفوس المؤمنين هذه الدرجة من الإيمان، فلا تعود حواجز الحس تحول دون الاتصال بين نفوس ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وبين القوة الكبرى التي أوجدت هذا الوجود. بل ولا تقوم حواجز الحواس بين تطلعاتهم وبين ما وراء المحسوس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات. .

فالإيمان بالغيب هو العقبة التي يقتحمها الإنسان، أو العتبة التي يلجها، متجاوزاً مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلَّا ما تدركه الحواس، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذاك الحيِّز الصغير المحدود الذي تدركه العقول، أو الأجهزة التي هي امتداد للأبصار. وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور العقل الإنساني لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجود النفس، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون، وما وراء الكون من قوة وتدبير. . كما أنها نقلة بعيدة الأثر في حياة الإنسان على الأرض، إذ ليس من يعيش في الحيِّز المحدود الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تـرامى أمام بـديهيته وبصيـرته، وتتلقى نفسُـه أصداءَه وإيحاءاته في شتى أبعاده، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يقع في نطاق الحياة المحدود، وأن وراء هـذه الحياة المحدودة، ووراء هذا الكون الفسيح في ظاهره وخافيه، حقيقةً أكبر من ذلك كله، وهي حقيقة مصدره. وهذه الحقيقة الكبرى هي وجود

الله العظيم الذي ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]، ولا تحيط به العقول، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[2] ويحيط بكل شيء علماً.

وهكذا يكون الإيمان بالغيب هو وحده مرتقى النفس الإنسانية، وتساميها نحو الحقيقة المطلقة وما ينبثق عنها من سائر الحقائق..

ولكن جماعات الماديين، سواء في الماضي أم في هذا الزمان ـ الذين يشكلون الغالبية فيه ـ لا يعتقدون بهذا «الإيمان بالغيب»، فهم يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى إلى عالم البهيمية، أو إلى عالم المادية الذي لا وجود فيه لغير المحسوس. ويسمون هذا في عرفهم «تقدمية»، وهو ـ في الحقيقة ـ النكسة التي وقى الله تعالى المؤمنين سوءها فجعل صفتهم المميزة إيمانهم بالغيب، فقال في وصفهم عزّ من قائل: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.

ولو خلا كل امرىء إلى نفسه، وتأمل في ما تضيق به هذه النفس من أفكار ومشاعر متضاربة، وما يعتمل فيها من الدوافع والانفعالات، لوقف على أعباء ثقيلة مرهقة لهذه النفس، ولوجد في نهاية المطاف أن نفسه تلجأ تلقائياً إلى الصبر، وتحاول أن تلوذ بكنف من يلهمها هذا الصبر حتى تجد مخرجاً للخلاص من شدة ما تعانيه من الضيق.

ولكن أين هي القوة الملهمة للصبر؟ أليست هي قوة غيبية؟ بلى! إنّ الصبر هو هذه القوة التي تلجأ إليها النفس مستجيرة بها، متوكلة على الله تعالى بواسطتها، لتنال الاطمئنان. وهكذا فإن الصبر هو الطريق الوحيد الذي تركن إليه النفس البشرية بصفائها، وخلوتها، بعيدة عن أي تأثير مادي أو حسّي لتتخلّص من ضيقها، ولتتنزّل عليها السكينة والراحة..

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

ومن قولٍ للإمام علي كرَّمَ اللَّهُ وجهَهُ: «وخذوا الصبر مع الإيمان، فإن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد. فكما أنه لا خير في جسدٍ لا رأس له فلا خير في إيمان لا صبر معه».

وفي حياتنا ـ نحن بني البشر ـ عندما تحزب علينا المصائب، وتثقلنا الأعباء، لا نجد أمامنا إلَّا طريق اللِّياذ بالقوة الغيبية ـ بقوة الله العلي العظيم ـ التي تلهمنا الصبر والاطمئنان. فالمريض عندما يشتد عليه الألم يناجي تلك القوة، ومثله كل غريقٍ مشرفٍ على الهلاك، أو أبٍ ينتظر وصول ولد من سفر طويل، أو أمٍّ تطلب الشفاء لطفلها بعدما عرضته على الأطباء الاختصاصيين وأعطوه الوصفات العلاجية اللازمة..

أما في حياة الإنسان المسلم فوصفة الدواء جاهزة دوماً، لأن في قرآنه الكريم الخبر اليقين، إذ ليس عليه إلَّا العمل بتوجيه ربّه له، وهو يوصيه بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾[2].

والإيمان بالغيب هو الذي يعين على الصبر ويجسّد الخشيةَ من الله تعالى التي تعصمُ النَّفْسَ من الوقوعِ في كثيرٍ من الذنوب، وتُمسك الإنسانَ عن اقترافِ الموبقات، وتصونُ الرجلَ عن الاستهانة بشرفه، والمرأةَ عن التفريطِ بعفافها.

يُحكى في هذا الصدد أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتفقد شؤون الرعيّة ليلاً، فسمع امرأة تنشد أبياتاً من الشعر بصوت فيه حنين ورقة وهي تقول:

---

(١) المعارج: ٥.

(٢) الطور: ٤٨.

لقد طال هذا الليل واسودّ جانبُهْ وليس إلى جنبي حبيبٌ أداعبُـهْ
فـوالله، لـولا الله، أني أراقبـه لَتهتـزُّ من هذا السـرير جـوانبُهْ

فسأل عنها فعلم أن زوجها قد غاب عنها مدة طويلة في الحرب يجاهد في سبيل الله، فأمر ألّا يؤخَّر الجنود في الحرب عن زوجاتهم أكثر من أربعة أشهر أو ستة أشهر.

هذه المرأة العفيفة لولا إيمانها بالغيب لفرّطت بعفافها، ولولا اعتقادها بأن الله يرقب كل صغيرة وكبيرة لانزلقت مع نزواتها. ولكنها كانت تخشى الله تعالى فصبرت على ما تعانيه، وحفظت عهد زوجها من الخيانة وصانت شرفها وكرامتها عن الابتذال.

أليس في هذا الصبر إذن أنسٌ للنفس بخالقها، وراحة واطمئنان إلى ملهمها؟

يقول الإمام عليّ كرم الله وجهه، في دعاءٍ يلجأ فيه إلى الله تعالى بعد أن أوحشته الحياة فاستجار بربه ليهديه سبيلَ الرشاد: «اللهم إنك آنَسُ الآنسين لأوليائِك، وأحْضَرُهُم بالكفايةِ للمتوكلين عليك. تُشاهِدُهُم في سَرَائِرِهِمْ، وتطَّلِعُ عليهم في ضمائِرِهِمْ، وتَعلَمُ مبلَغَ بصائِرِهِمْ. إنْ أَوْحَشَتْهُمُ الغُربَةُ آنَسَهُـمْ ذِكـرُكَ، وإنْ صُبَّتْ عليهِمُ المصائِبُ لَجَأُوا إلى الاِستِجارَةِ بِكَ، عِلماً بأنَّ أَزِمَّةَ الأمورِ بِيدِكَ، ومصادِرَها عن قَضائِك.

اللَّهُمَّ إنْ فهِهْتُ[1] عن مَسْأَلَتي، أو عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتي، فَدُلَّني على مَصالِحي، وَخُذْ بِقَلْبي إلى مَراشِدي . .».

---

(١) فههت: عييت فلم أستطع بيان حاجتي.

وفي أقوال الإمام هذه عظةٌ بالغة للمتقين ﴿الذين يخشون ربّهم بالغيب﴾، وهدايةٌ نيِّرةٌ لمن أحاطت بهم النكبات، كي يتوجّهوا إلى الله عند الوحشة فينير سُبُلهم، ويُلهمهم الصبرَ فتشتد عزائمهم، وعند ذلك يأنسون بالله تعالى في وحدتهم، ويستسهلون كل صعبٍ يعترض طريقهم.

علم الغيب
وتأثيره على الحضارة والمدنية

لقد حقق التقدم العلمي والتقني من المنجزات ما يصعب إحصاؤه، ممّا نشهد آثاره ونتائجه في مختلف مجالات الحياة. وهذا طبعاً بفعل المبدعين والمكتشفين والملهمين الذين أفاضَ الله تعالى عليهم نعمة العلم والعطاء تصديقاً لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١).

فالإنسان، وبما وهبَهُ خالقه الله تعالى من عقل وحواس، يستطيع أن يتبصَّر بكل ما يكتنف هذا الوجود أو يحيط به من أشياء وأحداث، وأن يعمل عن طريق الملاحظة والتجربة والاستنتاج ليدرك بعض حقائق هذا الوجود، وينظمها في علومٍ ومعارف مختلفة ومتنوعة.

ولو أخذنا الإنسان ككائن عاقل، مدرك ومميّز، لوجدنا أن لدى البعض توقاً دائماً لاكتشاف جديدٍ، أو لتطوير ما تم اكتشافه من قبل. ولذلك يشعر مثل هؤلاء الناس عادة بدوافع خفيّة تحثهم وترغبهم في البحث والعمل حتى ولو اعترضتهم الصعوبات، أو نالهم التعب والإجهاد. ولعلَّ هذا ما يجعل للحياة قيمة وأهمية، بدل أن تكون رتيبة مملّة، يقتلها الكسل، وتأنفها النفس الأبيَّة الطَّموح.

---

(١) العلق: ٥.

والسؤال: كيف يحصل العلم لدى الإنسان الذي يظهر بالمنجزات المحقّقة؟

ـ هناك طرق عديدة يحصل فيها هذا العلم.

أولها الإدراك الفكري أو الذهني، وبواسطته يمكن أن يكوِّن الإنسان مفهوماً جديداً لأي أمر أو شأن في الوجود. وقد يكون هذا المفهوم عبارة عن معانٍ مجردة مثل أنْ يكون تصوراً لمحسوسات قائمة وموجودة في الواقع أو في كل شيء خارجٍ عن ذاتيته.

وثانيها الإدراك الحسي الذي يتأتى من المراقبة والملاحظة والتجربة والاستنتاج، وهنا يكمن دور الحواس توصُّلاً إلى دور العقل.

وثالثها الوحي، بالإلهام والرؤيا.

ومن الطبيعي أن يكون تلقي جميع الأنبياء والمرسلين رسالاتهم عن طريق الوحي لتأدية المهمة التي بعثهم الله تعالى بها لهداية الناس والأخذ بيدهم إلى طريق الحق والخير.

وقد جاء ذكر الوحي، وتعيين أشكاله، في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

والوحي، في اللغة، ما جرى مجرى الإيحاء والتنبيه على الشيء. وقد يكون بشكل إلهام أو رؤيا صادقة في المنام. كما حصل لأم موسى عليها السلام. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

---

(١) الشورى: ٥١.

(٢) القصص: ٧.

وكما حدث كذلك لسيدنا إبراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾(١).

والوحي إذن بمفهومنا الإسلامي يأتي على ثلاثة أوجه:

١ - إما أن يكون تكليماً من وراء حجاب كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام. قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٢).

٢ - وإما أن يكون بإرسال مَلَكٍ يبلّغ الله سبحانه بواسطته نبيّاً من أنبيائه رسالة ربّه.

٣ - وإما أن يكون عن طريق الإلهام أو المنام.

والإلهام هو علم من الله تعالى يهبه لأنبيائه أو لعباده الصالحين لاستكشاف مكنونات غيبية لا يقدر غيرهم على إدراكها ومعرفتها. ومثال هذا الإلهام ما ورد في القرآن الكريم، عن قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام في سورة الكهف. فالعبد الصالح -وهو الخضر عليه السلام- التقاه موسى عليه السلام بأمر من ربه. وقد رافقه لفترة من الزمن فشاهد من الأمور التي أتاها العبد الصالح ما لم يستطع موسى عليه السلام عليه صبراً، بعدما تكوَّن دافع قوي لديه لمعرفة الأسباب التي تدفع صاحبه لأن يقتل أو يهدم... وحانت اللحظة وفسَّر العبد الصالح لموسى (عليهما السلام) ما كان يريد معرفته. أما الأحداث التي مرت معهما فتتلخص بأنَّ العبد الصالح قد علم أنَّ ملكاً ظالماً يتعقب السفن ويستولي عليها، وكانت سفينة لفقراء ومساكين مؤمنين فعابها حتى لا تقع بين يدي الملك الظالم. وعلم أن الغلام الذي قتله كان فاسقاً، وسوف يرهق والديه الصالحين، فأرادَ الله تعالى أن يبدلهما غلاماً خيراً منه. وقد أقام الجدار في قرية لم تطعمهما لأنه كان تحت هذا الجدار كنز لغلامين

---

(١) الصافات: ١٠٢. (٢) النساء: ١٦٤.

يتيمين، وكان أبوهما صالحاً، فأقامه حتى يحفظ لهما الكنز فيكبرا ويستخرجاه. وكل ذلك علم بالغيب عن طريق الإلهام الذي أودعه الله تعالى العبدَ الصالح، وما كان له أن يفعل ذلك أو أن يعلم الغيب إلا عن أمر الله تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾[1].

أما عن هذا الغيب الذي كان يعلمه الخضر عليه السلام فهو مما علمه الله تعالى من لدنه. يقول تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[2].

العلم اللّدني

ومثل هذا الإلهام الذي يختص بعلم الغيب أوتيه يوسف عليه السلام مما علَّمه ربه، وذلك بتأويل المنامات أو معرفة ما سيحدث قبل وقوعه. يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾[3].

لقد رأى أحد صاحبيه في السجن حلماً بأنه يعصر خمراً: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾[4]. ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾[5]. وكان تأويل يوسف عليه السلام أو تفسيره لرؤيا صاحبه الأول في منامه أنه سينجو من العقاب ويعود لخدمة الملك يسقيه خمراً. ولرؤيا الثاني في منامه أنه سيقتل ويصلب فتأتي الطير وتأكل من جسمه ورأسه. وقد صدق تأويله وحصل لهما ما أخبرهما به تماماً، كما يفهم من السياق القرآني في قصة يوسف عليه السلام.

---

(١) الكهف: ٨٢.
(٢) الكهف: ٦٥.
(٣) يوسف: ٣٧.
(٤) يوسف: ٣٦.
(٥) يوسف: ٣٦.

وكذلك فإن يوسف عليه السلام عندما عرَّف إخوته بنفسه أعطاهم قميصه وطلب إليهم أن يلقوه على وجه أبيه يعقوب عليه السلام، فيرتد إليه بصره ويأتيه في مصر وهو بصير. يقول تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾[1].

هذا علم من الغيب. وهو علمٌ من لدن الله تعالى يكشف به لأنبيائه بعض أسرار هذا الغيب. والرؤيا تتداخل مع الإلهام الإلهي في أنها علم من عند الله تعالى ولكنها تحصل في المنام عندما تدل على أمر سيحدث في الواقع. ولذلك يقال لها الرؤيا الصادقة، كما حصل مع إبراهيم عليه السلام إذ رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام. يقول الله تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وتستوقف في هذا النص القرآني عبارتان: الأولى: ﴿افعل ما تؤمر﴾. فالرؤيا التي رآها إبراهيم عليه السلام في المنام هي أمرٌ من الله تعالى. والثانية: ﴿قد صدَّقت الرؤيا﴾ فهي إذن رؤيا صادقة ولكنها جاءت عن طريق المنام...

والرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم حدثت له رؤى كثيرة من هذا القبيل، وهذه إحداها مما يخبرنا بها ربُّ العالمين. يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾[3]. وهذه الآية هي تصديق الله تعالى لرؤيا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الحديبية إذ رأى في المنام أنه دخلَ مكة ومن معه من المؤمنين وطاف بالبيت العتيق.

---

(١) يوسف: ٩٣. (٢) الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٥. (٣) الفتح: ٢٧.

وهذه الرؤيا كانت من علم الغيب، ولكنها تحققت في العام التالي من الحديبية ودخل رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين مكة محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، لا يخافون بأس المشركين وما درجوا عليه من عنادهم في محاربتهم للرسول ﷺ وللإسلام.

هذه الرؤى جميعها إنما تتناول أموراً من الغيب. والغيب لا يعلمه إلاَّ الله تعالى، ولكنه يعلِّم من لدنه أنبياءه وأولياءه وعباداً له صالحين علماً يستطيعون به استكشاف الغيب، وما قد يحصل به من أحداث قد لا تكون متوقعة أبداً. وهذا العلم هو ما يعرف بالعلم اللدني أي العلم الذي هو من لَدُنْهُ أَيْ من عند الله تعالى، ويكشف به عن غيبٍ من الغيوب سيحدث بحيث يمكن لصاحب هذا العلم اللدني أن يرى في حاضره، رؤيا واضحة، المستقبل المغيب عنه.

هذا بالنسبة للأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين. ولكن ماذا عن الناس العاديين، وهل يقدرون على معرفة الغيب عن طريق الإلهام والرؤيا؟

من الحقائق المعروفة أن اكتساب المعرفة يتم، كما قلنا، عن طريق الحواس والعقل، وهذا يحصل للإنسان العادي كما يحصل للعالم، مع الفارق في النهج الذي يتبعه كل منهما في تحصيل العلم واكتساب المعرفة.

ومن الثابت أيضاً في مفاهيمنا الإسلامية أنه يمكن للإنسان ـ غير النبي أو العبد الصالح الذي أتى على ذكره القرآن الكريم في سورة الكهف ـ أن يتمتع بالإلهام أو الرؤيا الصادقة. وقد أعطانا القرآن الكريم أمثلة حسية على ذلك، ومنها الإلهام لأم موسى عليه السلام أن تقذفه

في اليم وألّا تخاف عليه لأن الله تعالى رادّه إليها. والإلهام الذي قذفه ـ سبحانه ـ في قلب سليمان بن داود عليه السلام قبل أن يرث أباه في الملك والنبوة، في قضية الفصل بين المتخاصمين.

فالأدلة القرآنية على الإلهام لغير الأنبياء والرسل عديدة. ومثلها الأدلة من الحديث. عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من عمل بما علم ورّثَهُ الله علمَ ما لم يعلم». وعن أبي سعيد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى» ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1] أي المتفرسين.

وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى يقذف في نفس المؤمن نوراً يمكنه به رؤية بعض الأمور الخفية، أو فهم ما يستعصي على غيره فهمه بالطريقة الصحيحة التي يفهمها المؤمن وتتوافق مع الحقيقة.

ويصدق هذا في واقع الحياة إذْ كثيراً ما نسمع بأن فلاناً من الناس ملهم، وبأن فلاناً ألمعي أو عبقري، وما إلى ذلك من المرادفات التي تدل على الفكر المستنير وقوة الشعور.

وفي دراسات «علم النفس» ما يؤكد حقيقة الفكر المستنير أو المبدع. ويستعملون عادة لفظ «الإلهام»، كما كان يستعمل الفلاسفة من قبل لفظ «الإشراق». ولكنهم يردون ذلك إلى عوامل داخلية في الإنسان، وعوامل خارجية مؤثرة عليه. فإذا ما اعترضت الإنسان مشكلة ما مثلاً، وتكون هذه المشكلة هامة بالنسبة إليه إلا أنه لا يهتدي إلى حلِّها، فإنه يصرف تفكيره عنها إلى فترة من الزمن، ويسمون هذه الفترة

---

(١) الحجر: ٧٥.

«فترة الحضانة» أي أن الفكر يحتضن المشكلة، ولكن يبقى هنالك نوع من الشعور الباطني فيها، حتى إذا تسنَّت للعقل عوامل جديدة أعاد المشكلة إلى الشعور وجعل الإنسان قادراً على حلها. ولذلك فإن المقولة الشائعة في الغرب هي أنه إذا استعصت على الإنسان مشكلة من المشاكل فليتركها إلى الزمن وهو كفيل بحلها.

ويعزو «علم النفس» هذا النوع من العلم الملهم إلى عوامل فيزيولوجية تحدث في الدماغ وعوامل نفسية يتفاعل فيها الوعي و«اللا وعي»، حتى يأتي الإلهام فيما بعد وتحصل المعرفة المرجوة.

أما في المفهوم الإسلامي فالأمر مختلف تماماً. وهو ينطلق من مشيئة الله تعالى المطلقة: المشيئة التي لا يعزُبُ عنها مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

هذا هو معنى العلم المطلق لله سبحانه وتعالى. علم الله تعالى الذي يشتمل على كل ذرة في الأرض أو في السماء، بل وعلى أصغر من الذرة، فكله داخل في علمه تعالى. وهذا يعني أن كل طاقات الإنسان واستعداداته، وكل تكوينه، إنما هو من صنع العزيز الحكيم. فإذا قدر للإنسان أن يهتدي إلى المعرفة، أو أن يسعى في سبل العلم، فإن التوجيه يكون من الله سبحانه وتعالى، لأنه من مكرمات الإنسان في خلقه أن يكون من العالمين العارفين.. وما الإلهام إلَّا توجيه من الله تعالى، أو هو فضل زائد يهبه سبحانه لعباد يختارهم، وفي اختيارهم حكمة إلهية لا ندري مغازيها ولكننا نعرف أنها تهدي لخير الإنسان. فلا يقولَنَّ أحد إن هذا العالم أو الأديب، أو الباحث أو

---

(١) يونس: ٦١.

المكتشف مؤمن أو كافر، أو هذا الإنسان جاهلٌ أو أميّ، ملهم أو عادي. . . فالله تعالى يزود من يشاء من عباده بطاقاتٍ وإمكاناتٍ قد تظهر بالوحي أو الإلهام أو الرؤيا. ولكن الغالب أن النفس الصافية، والروح الشفافة، والقلب النقي التقي، هو أقربُ إلى الإلهام، وأقدر على التلقي، وأقوى على العطاء. فلا عجب إذن أنْ يلهم الله تعالى ملك مصر في المنام رؤيا البقرات السبع السمان التي يأكلهن سبع بقرات عجاف، والسنابل السبع الخضر والسنابل السبع اليابسات، لحكمة يشاؤها سبحانه، ثم تتحقق هذه الرؤيا بالسنوات السبع التي تفيض بالبركات على مصر، وبالسنوات السبع العجاف التي أعقبتها، تأكيداً لرؤيا ملك مصر في ذلك الزمن الغابر. .

الرؤى غير الأحلام

والرؤيا كما تكون للأنبياء تكون أيضاً لغيرهم من بني البشر. قد تحصل في المنام وتكون ذات هدف، أو كشفاً لغيب يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبر به عبداً له قبل أن يتحقق في المستقبل. وهذا ما يجعل الرؤى تختلف عن الأحلام. فالحلم «نشاط ذهني يحدث أثناء النوم. ويرى فيه الإنسان وهو نائم صوراً وأحداثاً مختلفة، ويقوم فيها بأفعال ونشاطات كثيرة» قد يتذكر بعضها عند النهوض وقد ينسى بعضها الآخر.

ويذهب المفسرون في تأويل الأحلام مذاهب شتى. والقرآن الكريم يفرق ما بين الرؤى والأحلام، فيجعل للرؤى واقعاً محسوساً، بينما يبقي الأحلام في دائرة الخيالات والصور التي يراها الإنسان في منامه. والأحلام التي يسميها القرآن الكريم «أضغاث الأحلام»، أي الأحلام المختلطة المضطربة الغامضة، هي التي قد تنشأ عن مؤثرات

داخلية في النفس أو عن أحاسيس خارجية تؤثر في حواس الإنسان، أو بسبب انشغال الفكر بأمور معينة أثناء اليقظة، أو هي تعبير عن ذكريات سابقة مؤثرة. وهي في مجملها تختلف عن الرؤى الصادقة التي يريها الله تعالى لمن يشاء. وفي هذا الصدد يقول ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة». ولهذا فرَّق رسول الله ﷺ بين الرؤيا والحلم. عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا من الله. والحُلُمُ من الشيطان. فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات وليتعوَّذ من شرِّ رؤياه فإنها لا تضره». وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من عند الله فليحمد الله وليتحدث بها. وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره».

وقد ميّز العلماء المسلمون بين الرؤى والأحلام. ففسر ابن سينا الرؤيا الصادقة بأنها تحدث نتيجة اتصال النفس بالملكوت أو بالملأ الأعلى أثناء النوم وتلقي الوحي أو الإلهام. أما الحلم (أضغاث الأحلام) فينشأ عن تأثير الإحساسات البدنية.

وهكذا يتبين لنا أن الوحي والإلهام والرؤيا الصادقة هي علم يعلمه الله تعالى إما لأنبيائه أو لبعض من عباده ويسمى العلم اللدني. والإنسان العادي يكون الإلهام لديه نوعاً من العلم المبدع الناشىء عن الفكر المستنير، وأصحاب هذا العلم هم الذين يبدعون في الاكتشافات وإنشاء الأفكار الجديدة.

وإذا كان الوحي أو الرؤيا الصادقة تدخل في مفهوم العلم الذي يحصل للإنسان ويعلم بواسطته عن أمور غيبية، فإن الاكتشافات

والأفكار الجديدة الناشئة عن القوى العقلية عند الإنسان لا يمكن اعتبارها جزءاً من علم الغيب. فعلم الغيب هو علم كل ما لا يقع تحت الحواس وغاب عن علم الإنسان، وهو علم تتفرد به العزة الإلهية وحدها. وما من مخلوق في السماوات والأرض أوتي هـذا العلم بمفهومه المطلق، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[1]. وفي قول عيسى عليه السلام وهو يخاطب ربَّه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[3].

أما بعض الأسرار التي يكشفها الله تعالى من علم غيبه، للأنبياء أو لبعض عباده الصالحين، فتكون لحكمة إلهية، ولكنها تبقى أموراً غيبية محدودة. وهذا كله بخلاف ما تنشئه القوى الفكرية أو الذهنية من العلوم والمعارف مما يستطيع الإنسان إدراكه بفعل نضوجه الفكري وما أودع فيه الله سبحانه وتعالى من طاقات وقدرات ألزمه فيها أن ينمّي الحياة ويطورها، بما يتوافق مع أمر استخلافه في الأرض. وتبقى دائماً مشيئة الله تعالى هي المهيمنة وهي التي تسير الإنسان وتقوده إلى الإدراك والإنشاء. فهذا الإنسان ومنذ فجر الخليقة، قد عاش والجراثيم تنتشر في أجواء حياته، تصيب جسمه بالأمراض، كما تصيب الأحياء الأخرى من حوله، ومع ذلك فإنه لم يقدر على معرفة هذه الجراثيم إلاَّ منذ عهد قريب، وبعدما تقدم في اكتشافه للآلات أو الميكروسكوبات التي تكبر صورة الجرثومة ملايين المرات. إذْ بواسطة هذه الآلات استطاع الإنسان معرفة حقيقة هذه الكائنات الصغيرة، وأشكالها، وكيفية

---

(١) الجن: ٢٦.
(٢) المائدة: ١١٦.
(٣) التوبة: ٧٨.

تكاثرها، وكيف تصيب بدن الإنسان أو أحد أعضائه. . ونتيجة لهذا الاكتشاف استطاع الإنسان أن يوجد العلاجات المناسبة للأمراض التي كانت تفتك بأبناء جنسه، بينما كان التداوي في الماضي، وقبل الاكتشافات العلمية، يتم بطرق خرافية، أو قريبة من الخرافات مثل التداوي بالتنويم المغناطيسي على أيدي أشخاص عاديين، أو اللجوء إلى العرافين لطرد الأرواح الشريرة التي تدخل نفس الإنسان أو جسمه عن طريق الضرب حتى تخرج تلك الأرواح وتذهب بعيداً عن الإنسان، وما إلى ذلك من الشعوذات التي كانت تسيطر على فئات متعددة من الناس.

وقس على ذلك سائر الاكتشافات العلمية مثل الآلة البخارية، أو الطائرة، أو السفينة، أو الهاتف، أو المذياع، وأخيراً هذه المكتشفات الحديثة التي تُسمّى بالعقول الالكترونية والأقمار الصناعية، وكلها أدت خدمات جلى للإنسان في ميادين الطب والفلك والمواصلات والاتصالات والاطلاع والمعرفة وما إلى ذلك. . فلو أخذنا البث المرئي (بواسطة الأجهزة التلفزيونية) كمثال على التقدم العلمي لرأينا أنه حتى الأمس القريب كانت وسائل الإعلام المرئية مجهولة من الإنسان، ولكننا بعد اكتشافها وتطويرها بتنا نشهد إرسال الصور عبر القارات بل وعبر أجواء الفضاء. إذ بفضل الأقمار الصناعية، وأجهزة التلفزيون أمكننا أن نرى بأم العين سطح القمر والإنسان يحط عليه ويطأه بقدميه. وإننا لفي كل يوم نشاهد معارك حربية أو مباريات رياضية تجري في بلاد قريبة أو بعيدة عنا بمسافات شاسعة. وقس على ذلك سائر الأحداث مما يجري في مختلف أرجاء العالم.

مثل هذه المنجزات الرائعة كانت في طي الغيب، ومستترةً عن العقل البشري، حتى إذا شاء الله تعالى ـ علام الغيوب ـ أن يهتدي

إليها الإنسان، باتت لديه من الوقائع الملموسة التي جاءت نتيجة إعمال قوة العقل والإدراك لديه.

ولكن ما تقتضي الإشارة إليه هو أن هذه المنجزات ما كانت لتتحقق لو لم تتوافر المعطيات اللازمة لإيجادها. فهذه المعطيات من أوجدها؟ أليس الله تعالى؟ فكما خلق الطاقة العقلية في الإنسان، مكَّن له في الأرض بوجود كل ما يحتاجه لاكتشاف خصائصها، ومعرفة قوانينها، حتى يصل إلى الإنجازات الرائعة في ميادين العلم والمعرفة.. وهذا ما يؤكد المفهوم الإسلامي للعلم اللدني الذي هو هبة من عند الله تعالى. ولو أمعنا النظر في القرآن الكريم، كتاب الله المبين، لوجدنا أن كل شيء من خلق الله تعالى، وقد شاءت العناية الإلهية أن يحصى كل شيء في هذا الخلق، تعبيراً عن قدرة الله تعالى ﴿إنه على كل شيء قدير﴾. يقول تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[1]. والكتاب هو اللوح المحفوظ، وفيه إحصاء تام ودقيق لكل مخلوقات السماوات والأرض.

ولو أخذنا الأرض، كمثال جزئي عن الخلق، لوجدنا أن الحياة عليها تشمل الإنسان والطير والحيوان. وفي الرجوع إلى القرآن الكريم نتبين أن كل ما خلق الله تعالى من هذه الأجناس، مما يدب على رجليه، أو يزحف على بطنه، أو يطير بجناحيه... إن هي إلا أجناس لا تُعدّ، وأنواع لا تحصى، وهي كما توصل إليه علم الحيوان تختلف بأعدادها الغفيرة وبأنواعها وسبل عيشها كاختلاف الناس بألسنتهم وطرائق عيشهم وعاداتهم وتقاليدهم. وقد مثِّلت الحيوانات والطيور بالأمم البشرية تدليلاً على حاجتها إلى مدبِّر يدبّرها في أغذيتها، وسعيها ونومها، وهدايتها إلى مرابعها لتستطيع العيش في مختلف

---

(١) الأنعام: ٣٨.

الأحوال المهيأة لها.. وهذا من نعم الله تعالى وعظيم قدرته في خلقه، وتقديره، وتدبيره، وإحصائه.. وهذا التدبير كان في اللوح المحفوظ بياناً كاملاً وبتقدير ثابت. ففي هذا اللوح مقدر لكل كائن حي حياته، ورزقه وأجله، وكل شأن خاص به. وعندما يخبرنا العليُّ القدير أنه ﴿ما فرَّطنا في الكتاب من شيء﴾ فإنما يكون لدينا الدليل القاطع على أن أعمالنا، نحن البشر، ونوايانا، ومشاعرنا، وأقوالنا هي أيضاً مدرجة في الإحصاء الدقيق، الذي على أساسه يتم حسابنا يوم القيامة. ونحن وجميع خلائق الأرض سوف نحشر جميعاً، في النهاية إلى ربنا ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾.. وقد نعرف نحن البشر لماذا يكون حشرنا، إلا أننا لا نعلم شيئاً عن حشر الأحياء الأخرى من الحيوان والطير. فهذا الحشر من أسرار الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، إنما علينا التسليم به امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

إذن فكل شيء في السماء والأرض كائن بمشيئة الله تعالى المطلقة، وهذا الإنسان ـ صاحب العقل ـ مدعو لاكتشاف خصائص الأشياء وقوانينها ومنافعها ومضارِّها، التي تبقى غيباً عنه حتى يتم اكتشافها، وعندها تدخل في نطاق المكتشفات الخاضعة لسلطة الإنسان ومشيئته وتضحي أمراً معروفاً لديه وعليه البحث عن غيرها!...

وهكذا تنشأ المدنيات والحضارات بفعل النضوج الفكري، والتقدم العلمي. ومن نافل القول أن آلاف السنين ـ في الوجود البشري ـ قد عبرت، وأن قوافل الملايين من الناس قد ذهبت، ومثلها حضارات ومدنيات كثيرة قد زالت واندثرت، ولم يبق من بعضها إلا معالم قليلة شاهدة. ولكن بقيت الأجيال من بني البشر تأتي متلاحقة جيلاً بعد جيل، وفي كل عصر وجيل تتمّ اكتشافات وتنشأ علوم

(١) الأنعام: ٣٨.

ومعارف جديدة، تنم عن طبيعة الإنسان في علمه ومعرفته، أي بما ميّزه الله تعالى من خصائص اختلف فيها عن سائر المخلوقات الحية الأخرى. فالحياة جعلها الإنسان مطواعةً له يكيّف أشياءها بما يقدر على هذا التكييف، بخلاف حياة الحيوان التي ظلت على حالها منذ وجودها. ولذلك لا نجد كما يقول داروين إن أصل الإنسان نوع متطور من القردة أمكنها أن تغير في نمط عيشها كأن تبني قرية تسكن فيها أو تكتشف مادة تتداوى بها إلا في أذهان الخياليين والممثلين. كما لا نجد أن جماعة من الأرانب قد عقدت معاهدة مع أسود الغابة أو ذئابها بعدم الاعتداء عليها وافتراسها إلاّ في خيال صاحب كتاب كليلة ودمنة!...

ولكن من الثابت أن الاهتداء الغريزي قد جعل النمل يعيش في مجتمع منظم بأدق تنظيم، وكذلك جماعة النحل.. كما أنه بواسطة هذا الاهتداء الغريزي تهجر جماعات من الطيور أو السمك أو بعض أنواع الحيوان أماكن تواجدها إلى أماكن أخرى في فصل معين أو خلال موسم معين من السنة لأغراض معينة، مثل اتقاء الحرارة أو الصقيع، أو بداعي التناسل أو الحصول على الغذاء، وغير ذلك مما يدخل في إطار البقاء والاستمرار.. ولكن ذلك يتم بفعل الاهتداء الغريزي الذي أوجده الله تعالى في هذه المخلوقات منذ أوجدها، دون أن يطرأ على غرائزها تطورات تجعلها على طبيعة غير طبائعها الأصلية.

كل هذا يثبت أن الإنسان نموذج فريد في خلقه، وبمقدار ما أكرمه الله تعالى في هذا الخلق، بقدر ما كان مقدراً على الإنسان أن يعمّر هذه الأرض، وأن ينشىء ويرتقي في مضمار النشوء والارتقاء ما شاء الله تعالى له فيه.

وتبقى إحدى الحقائق المطلقة التي يجب على الإنسان إدراكها ألا وهي الاعتراف بفضائل الله تعالى عليه، وشكر خالقه وبارئه على

هذه الفضائل والنعم العظيمة التي تكرَّم بها عليه. ولـذلك، ولأن الإنسان مدعو للشكر والحمد المتواصلين، كان عليه دائماً أن يتفكر ويتأمل ويسعى ويعمل حتى يتبيّن له الحق، امتثالاً لقولـه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(1).

هذا ما يهدينا إليه القرآن الكريم.. أن ندرك بأن الإنسان خلقٌ مميزٌ، وأنه مقدر عليه إعمار الأرض، وعن هذا العمران تنشأ المدنيات والحضارات، أي بفضل ما علَّم الله تعالى الإنسان. ففي الكون حقائق ثابتة ومطلقة، وهي محكومة بسنن إلهية لا يمكن للإنسان تجاوزها أو تخطيها، ولكن عليه أن يهتدي إلى نواميس الكون والحياة، وأن يعرف تلك السنن على حقيقتها، وإلاَّ ضلَّ العقل، وأظلمت النفس، فتاهت عن الحقائق والسنن، فكان لهذه السنن أن تقهر الإنسان، وأن تخرب مدنياته وتقضي على حضاراته بما يضيع عليه مجهودات كثيرة بذلها لو آتت ثمارها لكان حقق أكثر، وتوصل إلى أبعد..

فالمفاهيم الإسلامية تجعل كل شيء مرهوناً بما يشاء الله تعالى ويريد، وهو سبحانه يمدُّ الإنسان، فوق ما أودَعَه من خصائص، بعلم لدنيّ هو سبيله إلى الارتقاء المتواصل، وهذا ما يجعل مفاهيم الإسلام تختلف عن مفاهيم الأيديولوجيات التي ابتدعها الناس، سـواء في الشرق أم في الغرب، والتي تجعل للمدنية أو الحضارة معنىً مختلفاً عن مضامينها الحقيقية. فما هي الحضارة؟ وما هي المدنية؟.

الحضارةُ والمدنيّةُ

الحضارةُ: هي مجموعةُ المفاهيم النابعةِ من وجهةِ النظر إلى الحياةِ.

---

(1) فصلت: ٥٤.

والمدنية: هي الأشكالُ المادّيةُ للأشياءِ المحسوسةِ التي تُستَعمَلُ في شؤونِ الحياةِ. وغالباً ما تكون ناشئة عن العلم والصناعةِ كأدواتِ المُختَبراتِ والآلاتِ الزراعيةِ والصناعية ونحوها، والأثاثِ ولوازم البيت، وغيرها. وهي أشكالٌ مدنيةٌ عالميةٌ لا يُراعى في أخذها أيّ اعتبار، لأنها ليستْ ناشئةً عنِ الحضارةِ ولا تتعلّقُ بها.

أمّا المدنيةُ الغربيةُ الناجمةُ عن الحضارةِ الغربيةِ فلا يجوزُ أخذُها لأنها تتناقضُ كل التناقض مع الحضارةِ الإسلامية لجهة الأساسِ الذي تقومُ عليهِ، ولا تتفقُ معها. فالحضارةُ الغربيةُ تعتبر الصورة الفنيَّة للمرأةِ العاريةِ، بكلِّ ما فيها من مفاتن، شكْلاً مدنياً يتفقُ مع مفاهيمها في الحياةِ عن المرأةِ، أوْ شكلاً فنياً، ولذلك يعتبر الغربي هذه الصورة قطعةً فنيةً يعتزّ بها كشكلٍ مدنيٍّ.

ولكنّ هذا الشكلَ العاري من صورة المرأة يتناقضُ معَ حضارةِ الإسلام، ويخالِفُ مفاهيمهُ عن المرأةِ باعتبارها عرضاً يجبُ صيانتُهُ. ولذلكَ يمنعُ هذا التصوير لأنّهُ يُسَبّبُ إثارَةَ الغرائز لدى الإنسان، ويؤدّي إلى فوضى هدامة في الأخلاقِ. وكذلكَ إذا أرادَ المسلمُ أن يبنيَ بيتاً فإنّهُ يقيم حوله سوراً من الخارج، ويراعي، في تقطيعه من الداخل، عدمَ انكشافِ المرأةِ في حالِ تبذّلها فيهِ. وهذا مظهر حضاري في مقياس الخلق القويم.. بخلافِ الغربيّ الذي لا يُراعي ذلكَ، بلْ يسيرُ وفقَ مفهومه الحضاري المستند إلى ملذات دنيوية آنيَّة.

وكلّ ما نتجَ منَ الأشكالِ المدنيةِ عنِ الحضارةِ الغربيةِ كالملابسِ والتماثيلِ ونحوها، يتحرّكُ في إطارِ المفهوم الحضاري المذكور. وهي حضارةٌ تقومُ على أساسِ فصْلِ الدينِ عنِ الحياةِ، وإنكارِ ما للدينِ من أثر في الحياةِ، أو بعبارةٍ أخرى، تجريد الدولة من

مقومات الدين وهدْيِهِ. فبات الهدف للحياة في هذهِ الحضارةِ، هو المنفعة الآنية. ولذلكَ كانَتِ السعادةُ عندهُمْ إعطاءَ الإنسانِ أكبرَ قسطٍ من المُتْعَةِ الجسدية، وتوفير أسبابها له. ومن هنا كانت حضارتهم نفعيةً بحتةً لا تقيمُ لغيرها أيّ وزنٍ ولا تعترفُ إلا بنفسها فقطْ. وأما الناحيةُ الرّوحيةُ فهيَ فرديةٌ لا شأنَ للجماعةِ بها، وتكادُ تكون محصورةً بالكنيسة. وبناءً على ذلك كانتِ الأعمالُ الإنسانيةُ تابعةً لمنظماتٍ منفصلةٍ عنِ الدولةِ كمؤسّسةِ الصليبِ الأحمرِ، والإرسالياتِ التبشيريةِ، ولهذا لا تعرِفُ الحضارةُ الغربيةُ القيمَ الأخلاقيةَ أو الروحيةَ أو الإنسانيةَ، بل تكتفي بالقيَمِ الماديةِ والنفعيةِ فقطْ

أمّا الحضارةُ الإسلاميةُ فتقومُ على أساسٍ روحيّ هو العقيدةُ الإسلاميةُ. وتصويرُ الحياةِ في الحضارةِ الإسلاميةِ يتمثّلُ في فلسفةِ الإسلامِ التي انبَثَقت عنِ العقيدةِ الإسلاميةِ، وهي مزْجُ المادّةِ بالرّوحِ، أيْ جعلُ الأعمالِ مُسَيَّرةً بأوامرِ اللَّهِ ونواهيهِ. فالعملُ الإنسانيّ مظهر مادي، وإدراكُ الإنسانِ صلَتَهُ باللَّهِ حينَ قيامهِ بالعملِ، منْ حيثُ كونُه حلالاً أو حراماً، هو أمر روحي، وبذلكَ تمتزجُ المادّةُ بالرّوحِ. وبناءً على ذلكَ كانتْ أوامرُ اللَّهِ ونواهيهِ، هِيَ المحرّكَ لأعمالِ المسلمِ، وهيَ أعمالٌ خاضعةٌ لطَلَبِ اللَّهِ نهْياً كانَ أو أمراً، ولا علاقَةَ لذلكَ بالنفعيةِ. أمّا القَصْدُ من القيامِ بالعملِ نفسهِ فلا يتعدّى القيمةَ التي يُراعى تحقيقها حينَ القيام بالعملِ. والقيمةُ مختلفةٌ باختلافِ العملِ، فقد تكونُ مادّيةً كالتجارةِ بقصدِ الرّبحِ، وقد تكونُ رُوحيةً كالحجّ والصيامِ والصّلاةِ، وقدْ تكونُ أخلاقيةً كالأمانةِ والصّدقِ والوَفاءِ، وقدْ تكونُ إنسانيةً كإغاثةِ الملْهوفِ.

وأمّا السعادة فإن الإسلام جعل لها معنى حقيقياً في نظر

المسلمينَ. فبعد أن كانت السعادة عندَ الناسِ إشباعَ الجوع وإعطاءَ الجسدِ متعَةً، صارتِ السعادةُ هي نوالَ رضوانِ اللَّهِ، لأنّ السعادةَ هي الطمأنينةُ الدائمةُ للإنسان، وهي لا تتأثر بالملذات ولا بالشهوات، وإنما تتأثر بنوال رضوان ربِّ العالمين.

وهكذا فإن الإسلام أثّر في وجهة نظر الشعوب التي اعتنقته من حيث الاعتقاد، ومن حيث الأعمال التي يقومون بها في هذه الحياة، وغيَّر مراتب الأشياء فرفع من مرتبة أشياء وخفض من مرتبة أخرى. فبعد أن كانت الحياة هي أعلى مرتبة عند الإنسان، والمبدأ هو أقل مرتبة منها، قَلَبَ الإسلامُ هذه المراتب، فجعل المبدأ في المرتبة الأولى، لأنه أغلى قيمة من الحياة. وبذلك وضعت الأشياء في المراتب اللائقة بها، فصارت الحياةُ سامية، وصار المسلمُ يشعُرُ بالطمأنينة الدائمة. وبذلك تغيرت المثل العليا عند الناس، فبعد أن كانت للأمم والشعوب مثل عليا متعددة، متغيرة، صار لهم مثل أعلى واحد ثابت. وتبعاً لتغيرِ المثل العليا عند الشعوبِ والأممِ تغيرَتْ معاني الأشياءِ عندهم عما كانتْ عليه، وتغير مفهومُ الفضائلِ. فالشجاعةُ الشخصيةُ، والشهامةُ الفردية، والمناصرة العصبية، والتفاخر بالأموال والأحساب، والكرم إلى حدِّ الإسرافِ، والإخلاصُ للقوم، والقسوةُ في الانتقام، والأخذُ بالثأر، وما شاكل، كلّ هذا كان من أصولِ الفضائلِ عند العرب. فلما جاء الإسلامُ لم يتركْها كما هي عليه، بل جعلها صفاتٍ يتصف الإنسانُ بها إجابةً لأمرِهِ تعالى، لا لذات هذهِ الفضائل، ولا لما فيها من منافعَ، ولا لما تجره من مفاخرَ، ولا لأنها عاداتٌ وتقاليدُ متداولة، أو تراثٌ ينبغي أن يحافظَ عليه. ثم جعل الخضوع لله ولأوامرِهِ ونواهيهِ أصلاً لكلِّ الفضائلِ، فأوجب إخضاعَ منافعِ الفردِ والقبيلةِ والشعبِ والأمةِ لأوامرِ الإسلام.

وهكذا نقل الإسلامُ عقليةَ الشعوبِ التي اعتنقته إلى أعلى، كما نقـل نفسيتَهُمْ، فأصبحـوا بعد دخـولِهِم في الإسلام غيـرَهُمْ قبـلَ ذلـك. ثم صاروا يعرفون أن للحياة معنىً خاصاً هو السموُّ والكمال، فأضحى لهم مثلٌ أعلى واحدٌ ثابتٌ هو الحصول على رضوان الله سبحانه وتعالى. وأيقنوا أنَّ نيلَ هذا المثلِ الأعلى هو السعادةُ الحقيقيةُ. ولم تعد السعادة، بنظرهم، إشباعَ جوعِ الإنسانِ، لأن ذلك لازمٌ للمحافظةِ على الذات ولا علاقةَ له بالسّعادةِ، وهذا هوَ الأساسُ الذي تقومُ عليهِ الحضارةُ الإسلاميةُ.

ونظرةٌ سريعةٌ للحضارةِ الغربيةِ تُرينا أنهـا عاجـزةٌ عنْ ضمان السعادةِ والطّمأنينةِ للإنسانية، بلْ إنها على العكسِ منْ ذلكَ سبّبَتِ الشّقاءَ الذي يعاني منه عالمُ اليومِ، ويسيرُ فوق أشواكهِ، ويكتوي بلفح ناره.

والحضارةُ التي تقفُ في وجهِ الفِطَرةِ الإنسانيةِ، فَتَفْصِلُ الدين عن الدولة، ولا تُقيمُ للناحيةِ الرّوحيةِ وزْناً في الحياةِ العامّةِ، وتحصرُ الحياةَ بالمنافعِ الماديةِ، لا تُنْتِجُ إلا شقاءً وقَلَقاً دائمينِ. فما دامت المنفعةُ هيَ الأساس، فالتنازعُ عليها أمر واقع، والنضالُ في سبيلها مستمر، والاعتمادُ على القوّةِ في إقامةِ الصِّلاتِ بينَ البشرِ طبيعيّ. ولذلكَ يبقى الاستعمارُ قائماً في هذهِ الحضارةِ وأهلها، مـا دامتِ المنفعةُ وحدها هي الهدف المنشود في هذه الحياة.

نظرةٌ أخرى إلى الحضارةِ الإسلاميةِ التي سيطرتْ على العالم منذُ القرْنِ السادسِ الميلاديّ حتى أواخرِ القرنِ الثامن عشر، تُرينا أنها لمْ تكُنْ مستعمِرَةً ولا الاستعمارُ منْ طبعِهـا، فإنّهـا لمْ تُفَرِّقْ بينَ المسلمينَ وغيرِهِمْ، وقدْ ضَمِنَتِ العدالةَ لجميعِ الشعوبِ التي دانتْ

لها طوالَ مُدّةِ حُكْمِها، لأن مقومات هذه الحضارة تستند إلى الأساسِ الروحيّ الذي يحقّقُ جميعَ القيمِ من مادّيةٍ وروحيةٍ وأخلاقيةٍ وإنسانيةٍ.

فعلى العالم أن يتمثّلَ بهذهِ الأيديولوجية الإسلامية السّامية، وأن يعتنقَ مفاهيمها لأنها قادرةٌ على حلّ الأزماتِ القائمةِ كلّها، وهيَ تكفلُ الرّفاهيةَ للناسِ جميعاً. وحتى يصل الناس إلى تطبيقها عليهم أن يعرفوا هل طبقت هذه المفاهيم الإسلامية سابقاً؟ وإذا كانت قد طبقت من قبل فما هي العوائق التي تحول دون تطبيقها الآن؟

في رأينـا أن هـذه العـوائق تكمن، ولا ريب، في ضعف المسلمين، لأنهم بعد الضعف والوهن اللذين حاقا بهم، صاروا عاجزين عن تطبيق أحكام إسلامهم تطبيقاً صحيحاً.

ولكي يمكن الوقوف على تلك العوائق التي تحول دون تطبيق الأيديولوجية الإسلامية، واستكمالاً للمعرفة... فإن القارىء الكريم يجد شرحاً وافياً عن ذلك في كتابنا «عوامل ضعف المسلمين».

وخلاصة البحث: إن كل ما يحقق الإنسان من إنجازات في ميادين العلم والاكتشاف، وما ينشىء من مدنيات وحضارات، إنما هو بفعل الإلهام الذي يقذفه الله تعالى في أفئدة الملهمين من بني الإنسان الذين يهتدون إلى الحقائق الكونية المطلقة بفعل العلم اللدنيّ.

الحق والباطل

إنّ على من اعتنق الإسلام بإيمان، وصدّق بتعاليمه تصديقاً يقينيّاً، أن يعمل بوحي أوامر هذا الدين ونواهيه لأنها كلها حق، ولأنها حقائق ثابتة لا يدخلها باطل.

ومن هنا كان على المسلم المؤمن ـ قبل البحث في مفاهيم الحق والباطل طبقاً لأحكام القرآن المبين ـ أن يعرف ما هي الحقائق.

إن معرفة الحقائق تستدعي التفريق بين أمرين: الفكر والحقيقة. فجميع الأفكار الموجودة في الدّنيا لا تشكل بذاتها حقائق، بل هي مجرد أفكار، ولا تصبح حقائق إلاّ إذا توفرت لها شروطها. وأهم هذه الشروط أن ينطبق الفكر على الواقع في كل أمر. فالفكر إذن هو الحكم على الواقع، فإن طابق هذا الحكم الواقع كان حقيقة، وإن خالف هذا الحكم الواقعَ كان وهماً أو باطلاً. إذن، فالأحكام المطابقة للواقع هي الحقائق.

وهذه قاعدة مهمة يجب أن تظل ماثلةً أمامنا عندما نريد التمييز بين الفكر والحقيقة.

ولكن كيف نعرف أن التفكير الذي يتوجه نحو واقعٍ معين قد اكتشف حقيقة هذا الواقع؟

الأمر في غاية البساطة: إننا عندما نفكر في شيء من الأشياء التي تحيط بنا، أو في أمرٍ من الأمور التي تعرض لنا، أو في مسألةٍ من المسائل التي تواجهنا، فإنّ فكرنا يجب أن يطابق الواقع في ذلك كله ليشكل حقيقة. وإذا جاء فكرنا مناقضاً لهذا الواقع فإنه يكون وهماً أو باطلاً.

إذن فالحقائق هي الأفكار التي تصور واقعاً محسوساً ملموساً بكل صدق وأمانة. أي هي الأحكام الصائبة التي نصدرها على الواقع الذي نحسّه أو نلمسه. فإذا جاءت أحكامنا مطابقة تحولت أفكارنا إلى حقائق.

إن هذه القاعدة، في إدراك الحقائق، تتناول الواقع المحسوس الملموس. لكن كيف يكون تطبيقها على الأمور الغيبيّة؟ وكيف نصل من خلالها إلى حقيقة وجود الله سبحانه وتعالى؟.

الجواب سهل: إن وجود الله، جلّ وعلا، ثابتٌ بآثاره الدّالّة عليه. وقد بثّها الله تعالى من حولنا في كل مكان، وعدّدها لنا في كتابه الكريم، ودعانا للتوجّه نحوها والتفكر فيها للوصول إلى حقيقة الوجود الإلٰهيّ من خلالها.

وتظل القاعدة هي هي ترتكز على الفكر ومطابقته للواقع. والواقع هنا هو آثاره تعالى التي تدل على حقيقة وجوده. وهذه الآثار ـ وهي المخلوقات جميعاً ـ ليست فكرة مجردة وإنما هي واقع محسوس، هي حقيقة ماثلة أمام حواسنا التي تدركها، وهو الإدراك الذي يدعونا إليه القرآن الكريم بصورة دائمة، ويحثنا عليه بشتى الطرق الحسية والفكرية

مثل قوله تعالى ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾[1]. وآثاره هي هذه المخلوقات التي خلقها سبحانه لمصلحتنا ورحمةً بنا. وهي التي تحملنا على الحكم بوجوده الذي هو حقيقة. قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾[2].

ولا توجد حقيقة من الحقائق الملموسة، توصل إليها العقل أو قد يتوصل إليها، سواءٌ كانت قائمةً بذاتها أو ظاهرةً بآثارها إلّا وقد أجريت عليها الملاحظة ثم الاستنتاج، الذي هو حكم العقل أي الفكر.

لكن هناك أشياء نجهل كنهها رغم أننا ندرك وجودها ونؤمن بحقيقتها، لأن الله تعالى جعلها من الأمور الغيبية التي استأثر بها لنفسه، وحجب علمها عن خلقه.

فذات الله، عزّ وعلا، لا تقع تحت الحسّ ومع ذلك فنحن نؤمن بها ونحكم بكونها حقيقة موجودة رغم أننا نجهل ماهيتها، لأنه سبحانه لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفكار، ولا يتوهمه المتوهمون، ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء. لقد جعل قدرة عقولنا على الإحاطة به محدودة، وحجب عن إدراكنا كنه ذاته القدسية، إذ هي من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلّا هو ـ سبحانه ـ. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فكروا في آلاء الله (أي في نعمه) ولا تفكروا في الله فتهلكوا».

كيف يتم طمس الحقائق أو الصرف عنها؟:

التفكير في الحقيقة وتمحيصها أمر لا بدّ منه للناس جميعاً من

---

(١) الروم: ٥٠.

(٢) الذاريات: ٢٠ ـ ٢٣.

أفرادٍ وشعوب وأمم. وهو بشكل خاص واجب محتّم على القادة الذين يتولّون أمور الناس ويتحملون التبعات العامة. إذ إن تفكير القادة في الأمور، إذا لم يطابق الواقع، كثيراً ما يؤدي إلى الخطأ المهلك، أو للضلال الموقع في الخسران المبين.

ولا بد هنا من لفت النظر إلى أمرين والتنبّه لهما:

الأول: هو المغالطات التي تحصل من جرّاء تشابه الحقائق، فيتخذ أعداء الأمة هذا التشابه أداةً لطمس هذه الحقائق، أو وسيلة لإلغاء بعضها، أو سبباً للتشكيك في الحقيقة ذاتها. وبذلك يدخلون الوهم في العقول بدل الوعي، وينشرون الشك بين الناس في جوهر قضيتهم، ويجعلونهم ينظرون إليها نظرةً خاطئة فيها كثير من الوهم والضلال.

والأمثال على ذلك كثيرة:

فكون اليهود أعداء المسلمين: حقيقة.

وكون اليهود أعداء لأهل فلسطين بالذات: حقيقة أيضاً.

وأعداء الأمة ركّزوا في أذهان الناس الحقيقة الثانية وطمسوا الحقيقة الأولى. وما ذلك إلَّا لعلمهم الأكيد بأنَّ مفعول الحقيقة الثانية محدود، وفي إمكانهم التغلّب على أهل فلسطين وحدهم بسهولة. أما الحقيقة الأولى، إذا وضحت، فلا طاقة لليهود بمواجهتها عدّةً أو عدداً.

وهم يعلمون، من استقراء التاريخ، أن فلسطين استهدفت في السابق لغزوات متتالية بغية احتلالها. وكانت الحقيقة الأولى هي السائدة آنذاك في وعي الناس. وكان المسلمون هم أصحاب القضيّة لا أهل فلسطين وحدهم. وقد وقف المسلمون في وجه الغزاة موجةً بعد

موجة، وقاتلوهم ببأس وإيمان حتى أخرجوهم من فلسطين مدحورين مذمومين، بعد احتلالٍ لأرضها المقدسة مدة دامت مائتي عام.

والثاني: هو المغالطات التي تصرف الناس عن الحقائق بإيجاد أفكار أو أعمال مضلّلة تباعد بين الناس وبين هذه الحقائق.

والأمثال على ذلك كثيرة.

فكون الأمة لا تنهض إلَّا بالفكر: حقيقة.

ولصرف المسلمين عن هذه الحقيقة، ولإبعادهم عن الأخذ بأسباب الفكر لتحقيق نهضتهم والقيام من كبوتهم، شجع أعداء الأمة بعض أفرادها على نشر الفوضى وإثارة الإضطرابات وتحريك التظاهرات. وهي أعمال مادّية تصرف الناس عن الفكر وتبعدهم عن كلّ نهضةٍ أو رقيّ. وهم يقصدون من وراء ذلك أن يفتّتوا القوى، ويوهنوا العزائم، ويوقعوا الأمة في التناحر والتخلف.

وبذلك، يأمن أعداء الأمة ما قد تجرّه عليهم من ويلاتٍ مواجهةُ أمّةٍ قويّة تأخذ بأسباب الفكر، وتبني نهضتها وتقدّمها على أسسه النيّرة.

إذن، لا بدّ لنا من البحث عن الحقائق، والتمسك بها بقوة، وكشف المغالطات حتى لا يبعدنا الوهم عن وعي حقيقة قضايانا، ويفقدنا عناصر قوّتنا، ويبقينا على ضعفنا وتفككنا وتأخرنا وتناحرنا، وأخيراً يمكّن أعداءنا من التحكم فينا.

بعد معرفة هذه الحقائق، نتساءل: ما هو الحق وما هو الباطل، ما هو الصواب وما هو الخطأ؟

يقول علي الجرجاني في تعريف الحق والباطل: «إنَّ الحق في اصطلاح أهل المعاني هو الحكم المطابق للواقع، ويطلق على الأقوال

والعقائد والأديـان والمذاهب بـاعتبار اشتمـالها على ذلـك. ويقابله الباطل. وأما الصدق فقد شاع في الأقوال خاصة. ويقابله الكذب. وقد يفرّق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع، وفي الصدق من جانب الحكم، فمعنى صدق الحكم مطابقتـه للواقع. ومعنى حقيقته مطابقة الواقع إياه».

الصواب والخطأ

والصواب يكون ضد الخطأ. وهو الحق، والصدق والسداد. يقال أتى بالصواب أي أصاب. وحكم له بالصواب، أي صوَّب رأيه.

وقد يدل الصواب على اللائق، والأولى، والمرضي والثابت.

وأما الفرق بين الصواب، والصدق والحق فهو:

أن الصواب هو الأمر الثابت الذي لا يجوز إنكاره.

وأن الصدق والحق يدلان على المطابقة بين التصورات العقلية والأشياء الخارجية. فإذا كان التصور الذهني مطابقاً لما في الخارج كان صدقاً، وإذا كان ما في الخارج مطابقاً لما في الذهن كان حقاً.

والصواب والخطأ يستعملان في الفروع والمجتهدات.

والحق والباطل يستعملان في الأصول والمعتقدات.

بعد هذه التوضيحات، نبحث في الحق، ومن ثم في الباطل استناداً للقرآن الكريم.

أولاً: الحق

قلنا إن أصل الحق أن يكون مطابقاً وموافقاً للواقع. فيقال الحق على وجوه أربعة:

الوجه الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة.

فالله تعالى هو الحق كما في قوله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[2].

الوجه الثاني: يقال للشيء الموجَد بحسب مقتضى الحكمة الإلهية، فكان فعل الله تعالى كله حق، وقوله ـ سبحانه ـ كله حق، لأن وجود كل شيء منه تعالى، فالخلق كله لا يمكن أن يكون على هذا النظام، وهذا التناسق، وهذه الدقة التي لا تختلف معها حركة، إلاَّ بالحق. يقول تعالى: ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[4]. . . إن كل شيء قوامه الحق. والحق أداته. والحق غايته. والحق ثابت راجح راسخ. وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة وقائمة ودائمة، وهي مبثوثة في كل شيء، وفي كل مكان وزمان، وهي دلائل وآيات يفصّلها الله تعالى لقوم يعلمون.

الوجه الثالث: يقال في الاعتقاد، للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في ذاته. ومنه اعتقادنا بأن الآخرة حق كما هي عليه الحال، وبأن الثواب والعقاب حق. وبأن الجنة والنار حق. يقول الله تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾[5]. إن الذين آمنوا هم على اتفاق تام بأنه الحق، ولكن كان اختلافهم على توضيح هذا الحق، وإدراكه في الصميم. أي أن سبل وعيهم قد اختلفت، وأفكارهم قد تنوعت، ولكن نواياهم كانت متجهة إلى الله

---

(1) الأنعام: ٦٢.
(2) يونس: ٣٢.
(3) يونس: ٥.
(4) البقرة: ١٤٩.
(5) البقرة: ٢١٣.

تعالى لا تبتغي إلا الحق الصراح ولا شيء غيره، فهداهم الله تعالى إلى ما في القرآن من حق، لأنهم كانوا صادقين في التوجّه، والنوايا والسعي، وصفتهم دائماً أنهم مؤمنون.

الوجه الرابع: يقال للفعل أو القول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، وذلك مثل أن نقول: فعلك حق.. وقولك حق..

قال الله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2].

وعندما يقال: إحقاق الحق فيعني إثباته، قال الله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾[3].

وإحقاق الحق على نوعين:

- بإظهار الأدلة والآيات، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

- بإكمال الشريعة وبثها في الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[5].

والحق يستعمل استعمال الواجب واللازم والجائز، نحو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

(١) يونس: ٣٣.
(٢) السجدة: ١٣.
(٣) الأنفال: ٨.
(٤) النحل: ٣.
(٥) الشورى: ١٧.
(٦) الروم: ٤٧.

حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾[2] . وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

ثانياً: الباطل

الباطل هو نقيض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه. يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾[4] .

الله تعالى هو الحق ثابت وقائم ويشهد عليه الوجود كله لقيامه على سنن الحق، وقوانين الضبط، ونواميس التكامل.

وأما ما كانوا يعبدون من الشركاء، وكذلك الأحكام الوضعية التي توجد التمايز، وتنشىء الأوضاع المتضادَّة، ومثلها الأفعال التي لا تتوافق مع منهج الله تعالى.. فجميعها باطل لأنها نقيضة لاطّراد سنن الكون وثباتها. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ترك للناس تدبير أمورهم، فإن هذا التدبير يجب أن يأتي متوافقاً مع منهج الله تعالى وشريعته في الكون، فإن جاءت الأحداث والأفعال تخالف المنهج والشريعة فإن المسؤولية تقع على عاتق الناس ويتحملون أوزارها لأنها غالباً ما تتنصَّل من الحق وتساند الباطل، فهي إذن على نفس الموازاة

---

(١) يونس: ١٠٣.
(٢) الأعراف: ١٠٥.
(٣) البقرة: ١٤٩.
(٤) الحج: ٦٢.

من الشرك بالله تعالى. لأن كل عمل لا يتوافق مع الحق يدخل فيه الباطل إن لم يكن هو الباطل بعينه. يقول الله تعالى: ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]. والمقصود هنا هو فعل السحرة الذين أتى بهم فرعون الطاغية لقهر نبيه موسى عليه السلام وغلبته. وقد كان عملهم السحر الباطل، الذي يزيف الحقيقة في العيون، ويطمس جوهر الأشياء. فالحبل أو الخشبة لا يمكن أن تتحول كائناً حياً بفعل الإنسان، ولا يمكن أن تتحول حبال السحرة إلى أفاعٍ ، كما رأى المشاهدون، وهم يحضرون المواجهة بين السحرة وموسى عليه السلام. ولكن عصا موسى عليه السلام انقلبت إلى حية حقيقية تلقف ما صنعوا من فعال السحر. ولم يكن ممكناً هذا التحوّل إلّا بمشيئة الله تعالى التي أظهرت فعالَ الباطل من السحرة، فبطل ما كانوا يعملون من السحر والشعوذة وظهر الحق صراحاً.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[2]. وإلباس الحق بالباطل يكون لإخفاء الحق وكتمانه وتضييعه في غمار الباطل على علم، وعن عمد. وهو أمر مستنكر قبيح!..

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3].

وهذا توبيخ وتأنيب لأهل الكتاب.. لم تخفون الحق وتظهرونه كأنه الباطل. والصورة معبرة عن هذا الإخفاء. فكما يلبس الإنسانُ الثوبَ ويخفي جسدَه به، هكذا كانوا يعملون لإخفاء الحقيقة التي يعلمونها وهي أن القرآن منزَّل من الله تعالى، وأن محمداً هو رسول

---

(1) الأعراف: ١١٨.

(2) آل عمران: ٧١.

(3) البقرة: ٤٣.

الله، كما تدلُّهم على ذلك كتبهم. فهو إذن كشف من الله تعالى لما كان أهل الكتاب يزاولون ـ وخاصة اليهود ـ من كتمان الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ولذلك ينهاهم القرآن بألَّا يلبسوا الحق بالباطل، وألَّا يكتموا الحق وهم يعلمونه، وألَّا يحرفوا الكلام الذي ورد في التوراة عن موضعه لأن هذا التحريف هو الباطل، وأما ما ورد في التوراة على حقيقته ومن دون تحريف فهو الحق.

واليوم نجد اليهود، ومن يسير في ركابهم من الناس على هذه الشاكلة، يلبسون الحق بالباطل. فكان من الطبيعي أن يعيش العالم كله من جرّاء هذه المفاسد في أجواء التآمر، والقلق، والفوضى، والجشع، والتطاحن، وما يجرُّ إليه كل ذلك من حروب مدمرة، وصدامات قاتلة، من أجل تأمين المصالح ولو كان ذلك على حساب الآخرين ودماء الأبرياء، وحقوق الضعفاء!.. ولذلك كان الإصغاء إلى الحق، والشهادة له، والعمل به، توصل إلى الراحة الجسمانية والسكينة النفسية، واتباع الباطل ينجم عنه الانزعاج والاضطراب الجسدي والنفسي.

ثالثاً ـ أهل الحق وأهل الباطل

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة: «حق وباطل، ولكل أهل. فلئن أُمِّرَ الباطلُ فقديماً فَعَلَ. ولئن قلَّ الحق فلربما ولعلَّ. ولقلَّما أدبَرَ شيءٌ فأقبَلَ».

وفي القرآن الكريم أمثال يضربها للناس تبين أفعال أهل الحق، وأفعال أهل الباطل، ومن هذه الأمثلة:

١ ـ الباطل مثل الزبد الذي يذهب هدراً

يقول الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾(١).

إنها معركة قائمة لن تتوقف أبداً حتى يشاء الله تعالى.. إنها معركة الصراع الضاري بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الصواب والخطأ.. وآثار تلك المعركة ـ التي ما تزال دائرة منذ وجود آدم عليه السلام على سطح الأرض ـ سوف تظل تنعكس على أعمال الناس طيلة بقائهم على هذه الأرض، ولذلك يكون الحكم على تلك الأعمال إما بالإيمان والصلاح، وإما بالضلال والفساد.. وذلـك الحكم لا يصدره المنصفون من أهل الأرض فحسب، بل سيكون الحكم الأخير والعادل لصاحب الشأن، رب السماوات والأرض، الذي يثيب ويجازي على الأعمال، ويحاسب ويقاضي على النوايا.. ولكن من الآن وحتى تقوم الساعة، سوف يظل المفسدون سادرين في غيّهم، يأتون الأعمال الباطلة، المضلّلة، التي ينصرون فيها الأبالسة والشياطين على أهل الحق، وبذلك تتكاثف سُحُبُ الباطل وأستاره لتحجب الحق وتخنق صوته، فينوء الخير، من جراء ذلك، تحت لطمات الشر، ويتوارى الطيّب عند صولة الخبيث، ويخفت صوت العدالة، حتى ليظن الناس بأن دولة الحق قد دالت إلى غير رجعة..

ولكن!.. مهما استفحل الشر، وطغت الطواغيت فلا بد أن نرى من خلال الظلام الدامس، ومن بين دخان الجور والكفر، نوراً ينبثق،

---

(١) الرعد: ١٧.

وضياءً يشع، وسناءً يتألّق.. ثم يستجمع الحق قواه، ليشرق بإشعاعه وضيائه منيراً الدروب أمام المؤمنين الصادقين الذين سوف يحملون مشعل هُدى الله تعالى، فلا ترهبهم الأبالسة، ولا تخيفهم الطواغيت حتى ولو تمنطقت بكل أسباب القوة، وبقنابل الذرة والهيدروجين، لأن المؤمنين هم جنود الله سبحانه وهم الغالبون حقاً، وهم أنصاره فهم الفائزون فعلاً.. ولذا نحن على يقين من أنَّ الحق ثابت وقائم، لأنه خالد بخلود أهله وحملته، وأن الباطل زاهق فانٍ لأن الباطل كان زهوقاً. إذ مما لا شك فيه أن للباطل جولة ساعة، وأن جولة الحق تدوم إلى قيام الساعة.. من هنا فإنه مهما تراءت لنا الصور قاتمة محبطة، ومهما واجهتِ المؤمنين أحداث عاصفة قاهرة، فإنَّ الأمل يظل معقوداً على هذا الإنسان بأن يهتدي ـ بالفطرة التي فطره الله تعالى عليها ـ إلى طريق الحق ومحاربة الباطل، فيؤمن عندئذٍ بما أنزل الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلّى الله عليه وآله وسلم من القرآن المبين الذي يهدي للتي هي أقوم، ويبيّن للناس الحقائق التي تأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم، فيسلكها لطرد الشيطان من نفسه، ومن دنياه، فيعود في النهاية إلى طاعة ربه ـ عز وجل ـ راضياً مرضياً، مخلصاً له الدين كله ولو كره الكافرون.

وها هو القرآن الكريم يقدم لنا الأمثال التي تؤكد ثبات الحق وديمومته، وزوال الباطل وفناءه. وذلك في الآية (١٧ من سورة الرعد) التي من استشفاف معانيها يتبيّن لنا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقدّم للناس من أجل التمييز ما بين الحق والباطل مثالين وهما مثل الماء الجاري وما يعلوه من الزبد التافه، ومثل المعادن وما يعلوها أثناء ذوبانها من زبدٍ لا نفع منه، فيقول تعالى: ﴿أنزل من السماء ماءً

فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً. ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله﴾.

فالماء الذي ينزله الله تعالى من السماء مطراً، نراه يتدفق سيولاً جارفة تمتلىء بها الأودية. والسيل يحمل كثيراً مما يقع في طريقه من الغثاء، كالقش والورق والحطب، الذي يطفو على وجهه حتى أنه ليحجبه في بعض الأحيان، وهو لشدة اندفاعه وتدفُّقه، نرى الزبد على سطحه رابياً، منتفخاً، ولكنه لا يلبث أن يتلاشى حين تنطفىء فقاقيعه وتذهب في الهواء، كما تذهبُ هباءً جميع الأقذار التي حملها، ليبقى من بعد ذلك الماءُ الذي يذهب إلى البحار، أو إلى الأنهار فيغذيها، وإلى الأراضي فيرويها، فيحلُّ الخصب والنماء، ويكثر الخير والجنى.. ومثل ذلك الزبدِ فوق الماء الذي ذهب بلا نفع، الزبدُ الذي يطفو فوقَ سائلِ المعادنِ التي يجري تذويبها فوق النار لتصاغ منها الحلي وأدوات الزينة (كالذهب والفضة) أو لتصنع منها الأواني والأدوات والآلات (كالحديد والرصاص والنحاس...) فالمواد الخبيثة والأقذار تطفو على السطح زبداً يذهب بلا نفع، ويبقى المعدن الصافي المفيد في قعر الإناء..

هكذا هما الحق والباطل في هذه الحياة. فالباطل قد يظهر ويعلو ويبدو رابياً، ولكنه مثل الزبد لا بد وأن يذهب جفاءً مطروحاً، لا حقيقة له ولا تماسك فيه. في حين أن الحق يظل هادئاً، ساكناً، وقد يحسب قصير النظر أنه اختفى أثره أو انتهى أمره، ولكنه هو الباقي في النهاية، كبقاء المعدن الصافي لينفع الناس.

قال قتادة: «هذه ثلاثة أمثال ضربها الله سبحانه وتعالى في مثل واحد: شبَّهَ نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبه القلوب

بالأودية والأنهار، فمن استقصى في تدبّر القرآن وتفكَّر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومن رضي بظاهر معانيه أدّاه إلى التصديق بالحق على الجملة وكان أقلَّ حظاً منه كالنهر الصغير.. فهذا مثل.. ثم شبَّهَ الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد الذي يعلو فوق الماء وذلك من خبث التربة لا من عين الماء، كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فإنه يكون من ذاتها لا من ذات الحق. فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء، كذلك تذهب مخايل الشك هباءً باطلاً ويبقى الحق.. فهذا مثل ثانٍ.. ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾ إلى آخره.. فالكفر مثل الخبث الذي يطفو على المعدن وهو لا ينتفع به، والإيمان مثل المعدن الصافي الذي ينتفع به.. فهذا مثل ثالث»..

وهكذا يضربُ الله تعالى الأمثال ويبيّنها للناس، فيلقيها على أسماعهم، ويعرضها لأبصارهم فتهتدي بها القلوب المؤمنة النيّرة البعيدة عن ظلام الكفر.. فعندما يضربُ ـ سبحانه ـ المثل بالماء الذي أنزله من السماء لإحياء الأرض، فتسيل به الأودية، إنما يريدُ بذلك القلوب التي تمتلىء بالحق والإيمان، فكما يسَعُ الوادي الكبيرُ الماءَ الكثير، كذلك القلب المؤمن يسع العلم الوفير.. وكما الوادي الصغير، فإن القلب الصغير لا يسع إلاَّ بحسبه.. فيكون معنى قوله سبحانه ﴿فسالت أودية بقـدرها﴾ أن قلوباً احتملت من العلم والهدى بقدر ما تستطيع حمله، إذ كما يحمل السيلُ الجارف زبـداً وغثاءً من الأرض التي يمرٌّ عليها، ثم يذهب ذلك كله ويختفي، فكذلك الهدى والعلم، فإنهما عندما يحلان في القلوب يقتلعان كل ما يخالطها من آثار الشبهات والشهوات، لتستقر تلك القلوب طـاهرةً طيبةً مؤمنة..

ولكنَّ هذا التغيير لا بد أن ترافقه عملية استئصال حتى يأتي

العلاج شافياً. فكما أن الجرّاح قد يضطر إلى استئصال المرض بعملية جراحية، مع ما يرافق ذلك من الألم والمعاناة، فكذلك الهدى عندما ينفذ إلى القلب، لا بدَّ وأن يثير لدى الإنسان الضيق والحرج، حتى يتغلب نورُ الله على الشبهات ويطردها خارج ذلك القلب..

وعندما يطمئن القلب بالإيمان، وينتعش باليقين، فإنَّ آثار ذلك تنتقل إلى سائر أعضاء البدن فتنشط للعبادة وتسرع إلى الطاعة. وفي ذلك يقول الشاعر المؤمن:

وإذا حلَّتِ الهدايةُ قلباً نشطت للعبادةِ الأعضاءُ

إن هذا الإيمان الصادق لينفعُ صاحبه، وينفع غيره من المؤمنين.. وعندما يكثر أهل الإيمان، يتضاءل أهل الكفر ويقلُّ عددهم، وكلما اتسعت رقعة الحق، ضاقت رقعة الباطل، إلى أن يمحق الله تعالى الباطل وأهله، وينصر الحق وأهله..

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(1) ليقرّب إلى أذهاننا المعاني التي تحمل مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال.

٢ - الكلمة الطيبة هي الحق، والكلمة الخبيثة هي الباطل

يقول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

(1) الرعد: ١٧.

﴿ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق.. والكلمة الخبيثة هي كلمة الباطل..

فكما أن الشجرة الطيبة جذورها ثابتة قوية في التربة، وفروعها وأغصانها باسقة، عالية، متينة صلبة، لا تقوى الأعاصير على اقتلاعها أو تكسيرها، وهي تعطي ثمارها حين يأتي عليها الموسم بإذن ربها، فينتفع بها الناس، كذلك هي كلمة الحق تظل صامدة، فاعلة تؤدي دورها في الحياة، فلا تقوى عليها الأباطيل، ولا تقهرها الأضاليل، مهما خيّل للناس أنها معرضة للخطر الماحق، أو زيّن لهم الشيطان بأن الشرَّ قد طغى عليها وأخضعها له.. إنها تبقى الكلمة التي تنبت في النفوس حقاً وإيماناً، وصدقاً وقناعة، تماماً كما تنبت البذرة الطيبة شجرةً صالحةً، راسخةً في الأرض، لتعطي ثماراً يانعةً نافعة...

وكما أن الشجرة الخبيثة قد تنشط فتهيج وتتشابك فروعها وأغصانها، وتبدو فارعةً في طولها حتى ليخيَّل إلى بعض الناس أنها تطغى على ما حولها من أشجار، وهي في الحقيقة هشة في كثافتها، ضعيفة في بنيتها، جذورها قريبة من وجه الأرض بحيث تقتلعها الرياح، وتجتثها سريعاً، فلا يبقى لها قرار.. هكذا الكلمة الخبيثة، كلمة الباطل، التي تزرع الشر في النفوس، وتنشر الفتن بين الناس، وتناصر الظلم والطغيان والإلحاد... فإنها إلى زوال لمجرد احتكاك رياح الحق بها، لأنها هشة، ضعيفة بذاتها، لا تحمل أية معانٍ للمواجهة الحقة، ولذلك لا بد أن يحين الوقت الذي تُجتثّ فيه

---

(1) إبراهيم: ٢٤ - ٢٧.

وتنتهي، فلا يبقى لها شيءٌ من الأثر.

ولا يقف مَثَلُ الكلمةِ الطيبة كالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة، عند حدود المثل وحسب، ولا هو مجرد عزاء للطيبين وتشجيع للمؤمنين، كما ليس هو مجرد تشنيع بالظالمين، وتسفيهٍ للملحدين.. إنما هو تصوير لأصل الحياة الذي يقوم على الحق لا على الباطل، لا سيما وأن الخير الأصيل، والحق الثابت ـ وإن أبطأ تحققهما في بعض الأحيان ـ لا يفنيان أبداً، ولا يزولان مهما زحمهما الشر، وأخذ عليهما الباطل الطريق.. أما الشر فإنه لا يعيش إلَّا قليلاً، ثم لا يعتِّم أن يتآكل من داخله، ويتهالك على نفسه، إلى أن يضمحل في ذهابٍ إلى غير رجعة. وأما الخير فإنه خالد باقٍ. وهو متمثلٌ بالكلمة الطيبة، المتجددة على تعاقب الأجيال، التي تحتوي دائماً على الحقائق الثابتة مثل حقيقة الرسالة السماوية الخالدة، وحقيقة الدعوة الصادقة الباقية، وحقيقة التوحيد بأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد.. وهي الحقائق التي لا وجود للكون وللحياة وللإنسان من دونها..

وهكذا نرى أن القرآن الكريم عندما يضرب المثل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، فإنما يعني بالكلمة الطيبة الحقائق بأكملها وخاصة الإيمان الحق، في حين يعني بالكلمة الخبيثة الكفر والباطل.. ولما كان لا بد للشجرة من عروق، وساق، وفروع، وورق، وثمر، فكذلك الإيمان تكون عروقه العلم واليقين، وساقه الإخلاص، وفروعه الأعمال الصالحة، وثمره الآثار والنتائج المترتبة على الأعمال الصالحة من صفاتٍ حميدة، وأخلاق كريمة، ومعاملات طيبة.. وغيرها من المزايا والخلال التي يحمدها الله تعالى وعباده الصالحون.

أما الكفر والإلحاد فكالشجرة الخبيثة المؤذية، التي تفتك بحياة كل من يتناول منها شيئاً أو يقربها، حتى يقيّض الله تعالى لها من يستأصلها فيخلص البرية من تكاثرها، والأحياء من ضررها.. فهي شجرة خبيثة، والخبيث مذموم ملعون. ومن اتبع الشرك والكفر والإلحاد فقد اتبع هذا الخبيث، حتى صار مذموماً، ملعوناً.. وأهل الباطل لا يتّبعون عادةً إلَّا الخبيث بينما هم يكرهون الحق وأهله، ويحاربون الخير والعمل الصالح...

سئل رجل من أهل العلم عن معنى «الكلمة الخبيثة» فأجاب: «لا أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلَّا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوم القيامة». وقد روي عن ابن عباس قوله: «إن الشجرة الخبيثة لم يخلقها الله سبحانه بعد، وإنما هو مثل ضربه بهذا الواقع الذي يدل على الخبث والضرر».

٣ ـ الكافرون يتّبعون الباطل والمؤمنون يتّبعون الحق

قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾[1].

نعم إن أهل الكفر هم دائماً على نقيض أهل الإيمان. فالذين كفروا وصدوا غيرهم عن هدى الله والإيمان بحقيقة وجوده سبحانه، قد أحبط أعمالهم وأضلّها فلا تقع على هدى أو خير، لأنها أعمال باطلة

---

(١) محمد: ١ ـ ٣.

زائلة. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قرآن مبين، وأقروا بأنه هو الحق من ربهم، فهؤلاء يكفّر سبحانه عنهم كلَّ سيئاتهم الماضية - إذ الإسلام يجبّ ما قبله - ويريح بالهم من حمل همِّ الذنوب والخطايا، فلا يعصون الله تعالى بعد إيمانهم، ولا يخالفون أوامره ونواهيه بعد يقينهم.

وقيل إن هذه الآية المباركة نزلت في أهل مكة وفي الأنصار. فأهل مكة هم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، أما الأنصار فهم الذين آمنوا بما نزل على محمد عليه السلام فدخلوا في الإسلام، مخلصين صادقين بعد ما تبين لهم أنه هو الدين الحق من ربهم. ولذلك فقد غفر الله سبحانه ما سلف من ذنوبهم، وأصلح أحوالهم، وأراح بالهم بما وعدهم به من دخول الجنة في الآخرة...

وهذه الآية تنطبق على كل جماعة كافرة، ضالّة، كما تنطبق على كل جماعة مؤمنة مصدّقة، في كل زمان ومكان.

والله تعالى يحبط أعمال الكافرين لأنهم يتبعون الباطل، ويكفّر عن المؤمنين سيئاتهم لأنهم يتبعون الحق، ويهتدون بالقرآن المنزل إليهم من ربهم.. كذلك يضربُ الله تعالى للناس الأمثال حتى تتقرَّب بهذه الأمثال المعاني إلى عقولهم وقلوبهم، فيدركوا الحق ويتبعوه، ويعرفوا الباطل ويرذلوه..

الهدى والضلال

الضلال والخطأ

الضلال هو العدول عن الطريق عمداً أو سهواً، كثيراً أو قليلاً، ويجيء بمعنى الغي، والفساد، والخطأ، والخسار، والزلل، والبطلان، والجهالة، والنسيان.

والفرق بين الضلال والخطأ، أن الخطأ هو ما ليس للإنسان فيه قصد، على حين أن الضلال هو سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب عمداً أو سهواً. فالضلال أعم إذن من الخطأ. وهو ضربان: ضلال في النظر، وضلال في العمل.

وقد يطلق لفظ الضلال على سبيل الفعل، أو على سبيل الانفعال، فإذا أُطلق على سبيل الفعل، دلَّ على الحكم الفاسد، أو العمل الباطل، وإذا أُطلق على سبيل الانفعال، دلَّ على الحالة النفسية التي يكون عليها الفاعل عند عدوله عن الطريق المستقيم.

وقد قيل أيضاً إن للضلال وجهين: أحدهما أن يضلَّ عنك الشيء، كما في ضلال الحواس، والآخر أن تحكم به أو عليه حكماً فاسداً، كما في ضلال النظر والعمل.

أما الإضلال فهو أن تدفع غيرك إلى العدول عن الحق، وهو على وجهين: أحدهما أن يكون شبيهاً بالضلال، والآخر أن يكون سبباً له. وهذا الإضلال لا ينسب إلى الله سبحانه وتعالى، لأن الله سبحانه لا يضل عباده. وإذا كان بعضُ علماءِ الكلام ينسبون إليه الإضلال، فإن هذه النسبة نسبةٌ إلى عموم مشيئته وإرادته، لا إلى رضاه ومحبتَه. قال سبحانه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[1]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[2].

والضلالة فعلة من الضلال، وهي ضد الهدى وجمعها ضلالات.

الهدى والضلال

إنَّ الإنسان ـ مهما كانت المثل التي يؤمن بها، أو القيم التي يسعى إلى تحقيقها ـ قد يخطىء في القول، وقد يخطىء في التصرف، وقد يكون ذلك عن قصدٍ ـ أحياناً ـ أو عن غير قصد.. فالمهم أنه يخطىء، لأنه محكوم بتصرفاته البشرية، إذ العصمة هي من عند الله تعالى يهبها لأنبيائه في دنيا الأرض.. على أن الإنسانَ ـ وفي محاولة تبرير أخطائه، إن كُشِفت له، يحبُّ أن يُسند كل خطأ ارتكبه إلى غيره، أو إلى ظرف خارج عن إرادته، في حين أنه لو كان منصفاً لَلَجأ دائماً إلى الاعتذار وتمَّنى أن يُقبَل عذرُهُ.. كل ذلك يفعله لأنه تواقٌ إلى تأمين الراحة الجسدية والاستقرار النفسي، ولأنه يحبُّ أن يبتعدَ عن كل ما يظنُّ أنه يسلُبُه راحَتَهُ واستقراره...

وانطلاقاً من هذه الميول عند الإنسان فإنك تجده، في الغالب، قد غَلَبَ عليه اعتقاده بأن لا إرادةَ له فيما يقوم به من عمل غير مَرْضيّ. وهذا ما يبدو واضحاً لك عندما تبدأ محاورته كي تصل به إلى

---

(1) الزمر: ٧.

(2) النساء: ١٠٧.

إطاعة الله سبحانه، والسَّير وفق أوامره، والابتعاد عن نواهيه، إذ إنه يجيبك قبل أي تفكير أو تأمل، ومن غير تروٍّ: أنا على ذلك، حتَّى يهديَني الله.. فتقول له: ولكن الله تعالى هداكَ ودلَّكَ على طريق الرشد، عندما بعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وأنزلَ عليه القرآن الذي يتضمن الهداية والإرشاد.. فيجيبك على الفور: كلا هذا غير صحيح.. وإلَّا فكيف يقولُ الله في القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾[1]؟!...

ومنعاً لمثل هذا الالتباس الذي يقع فيه الإنسان، يجب أن يعرف معنى الهدى والضلال مؤيّداً بقرائن عقلية وقرائن شرعية..

يبدو أنَّ جميع الآراء توزعت حول الهدى والضلال في اتجاهين:

الأول: هو القائل بأن الإنسانَ مسيَّرٌ بمشيئة الله تعالى وقدره، وأن كلَّ ما يأتيه أو يقع عليه يكون محكوماً به، من غير أن تكون له إرادة أو اختيار فيه.

والثاني: هو القائل بأنَّ الإنسان يملك الزمام في تسيير شؤون أموره وحياته، وإلَّا لماذا أُعْطِيَ له سلطان الإرادة وقوة الإدراك والتمييز؟ وعليه فهو الذي يختار سلوكه وتصرفه بوحيٍ من نفسه ودفعٍ من ملكاته وطاقاته...

وبمقتضى الاتجاه الأول، فإنَّ هدى الإنسان وضلالَهُ أمران من مشيئة الله تعالى، بينما هما، بحسب الاتجاه الثاني، حادثان من الإنسان، ونابعان من نفسه...

والحقيقة أنه وردت في القرآن الكريم نصوص كثيرة على الهدى

---

(١) فاطر: ٨.

والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يبيِّن المدى الذي يكون فيه الإنسانُ خاضعاً، شاءَ أم أبى، لقدر الله تعالى فيه. وفي الوقت نفسه يدلُّ هذا التنسيق أيضاً على المدى الذي تُرك فيه للإنسان أن يعمَلَ، ولكن ضمنَ ذلك القدر وحتميته، أي وفقاً للمشيئة الإلهية المطلقة التي لا يمكن أن يحدث شيء في الوجود البشري بل وفي الكون كله من غير إرادة الله تعالى المطلقة...

ويقف الإنسان حائراً أمام حقائق كثيرة، منها ما يختص بكينونته وحياته وخَلقه، ومنها ما يتعلق بنظم الكون والوجود، وهو يحتاج فيها كلّها إلى هدى الله تعالى، وبهذا الهدى يمكن أن ينظِّم واقع حياته، وأن يكتشف ما في الكون من عوالم وأسرار، وأن يعمل بالتالي للقاء ربه راضياً مرضياً...

وهذا الهدى الذي يحتاجُهُ الإنسانُ هو تعبيرٌ عن مشيئة الله تعالى التي يجري بها قدَرُهُ في الكائن الحي، لأنه هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]...

قضى الله سبحانه وتعالى أن يُخْلَقَ هذا الإنسانُ باستعدادٍ مزدوج: للهدى والضلال، وأن يودع الخالق ـ سبحانه ـ فيه الفطرة لإدراك حقيقة الرُّبوبية الواحدة والاتجاه إليها، وأن يعطيه العقل المميِّز، الذي بواسطته يمكن أن يقدِّر كل أمرٍ، ويحكم على صوابه أو خطأه. هذا فضلاً عما بعثَ سبحانه إليه من رُسُلٍ بالبيّنات والآيات التي توقظ الفطرة إذا غفت، وتهدي العقل إذا ضلَّ...

وقد قضى الله سبحانَهُ بأن يُعَرِّفَ الإنسان قيمة خلقه، وقيمة ما

---

(١) طه: ٥٠.

منح له من عطاءات، وأهمية تخصيصه بالاستخلاف. وإلاَّ فما الفرق بين إنسان لا يدرك معاني هذه القيم وغاياتها، وإنسان آخر أدركها وعرفها، فعمل بوحيها؟ وما الفرق أيضاً بين إنسانٍ مهتدٍ وبين إنسانٍ ضالّ؟...

من هنا كانت مشيئة الله وإرادته أن يكون الإنسان مخلوقاً باستعداده المزدوج للهدى والضلال، حتى يكونَ عدلُ الله سويّاً، فلا يؤخذ الجميع بمبرَّة الهدى، ولا يؤخذ الجميع بمضرَّة الضلال، بل يكون لكل إنسان ما سعى...

على أنَّ ذلك لا يعني أن الإنسان مسؤولٌ عن خلق الأشياء والأفعال، لأنَّ خلْقَ الفعل هو من الله سبحانه وتعالى، ولا يسأل الإنسان عن هذا الفعل إن كان خيراً أم شراً.. إلا أنَّ مباشرته للفعل هي التي تجعله مسؤولاً عنه: عن خيره أو شره. وبمعنى آخر، لقد أودَعَ الله سبحانه في الإنسان العقل، وأعطاه كافة الأجهزة للرؤية والسمع والإحساس... وذلك من أجل أن يميِّز، وأن يدرك الآيات المبثوثة في حياته، وفي الكون، وأن يعيَ رسالات الرُّسل التي توصي بالهدى... فبات عليه أن يعمل، بعد ذلك كله، وأن يجاهد للهدى.. وقد قضت مشيئة الله سبحانه أن يجري قدرُهُ بهداية من يجاهد نفسه في سبيل الهدى، وأن يجري قدرُهُ بإضلال من لا يستخدمُ ما أودعَهُ فيه، وما مَنحهُ وأعطاه إيَّاه، كي يهتدي..

إذن، فالأمْرُ كلُّهُ يعودُ لمشيئة الله سبحانه، فلا يقع شيء إلاَّ أن يوقِعَهُ قدَرُ الله، لأنه ليس في الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة، إلا قَدَر الله، تُنشىء الأحداث. وفي إطار هذه الحقيقة يتحرك الإنسان بنفسه، أي يباشر الأعمال بنفسه، وهو مسؤولٌ

عنها أمام نفسه. قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[1].

وهكذا فإنه لا شيء يخرج عن مشيئة الله، فهي المشيئة التي شرعت سنَّتَهُ في الحياة. ولكنَّه سبحانه أعطى للإنسان حريةَ الاختيار أي حرية مباشرة الأعمال التي يريدها، ووهبه القدرة على الإدراك والتمييز، ليتمَّ عملهُ على أساس اختياره، ومدى إدراكه وتمييزه. ويكون الحسابُ الذي ينتظره على أساس ذلك.. فالإنسان هو الذي يختار بحرية كاملة، وإنْ كان في اختياره لا يخرج عن المشيئة.. فإن قام بالعمل الطيب، أو بقول الصدق، أو الإخلاص في العمل، أو اتباع الحق، أو رفض الانحراف إلى الهوى، أو البعد عن إيذاء الناس والمخلوقات.. فكل هذه الأعمال تكون من اختياره أي صادرة عن مباشرته، وكلها تصبُّ في اتجاه الهداية... وعلى العكس، إن قام الإنسان بالعمل الرديء، أو بقول الكذب، أو اتباع الباطل، أو إشباع نزواته، وإيذاء غيره.. فهذه أعمال قام هو باختيارها أي هو نفسه باشرها بجوارحه وأدواته التي خلقها له الله تعالى ومكنَّه منها، وتدلُّ كلها على اتجاه الضلال.. فاختيار الإنسان إذن واقع، وقائم، وكل الأعمال الواقعة في دائرة الهداية محكومة بمشيئة الثواب.. بينما جميع الأعمال التي تقع في دائرة الضلال محكومة بمشيئة العقاب. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2]. وقال تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[3].. وهكذا الحال في كل ما يمكن أن يقوم به الإنسان أو يقدم عليه...

وتتبدّى مشيئة الله المطلقة في كونه تعالى وحدَه القادر والفاعل، في حين لا يملك عبدُهُ الإنسان أن يكون فاعلاً وقادراً، بل على

---

(١) القيامة: ١٤.   (٢) المدثر: ٣٨.   (٣) النجم: ٣٩ ـ ٤١.

العكس هو رهينة لمشيئة ربه، ولمختلف الظروف أو الأقدار التي تخرج عن إرادته كإنسان لا يقدر على التحكم بها. فالإنسان لا يستطيع مثلاً أن يقول بأنه فاعلٍ غداً أمراً معيناً، ثم يجزم بأنه قادر على تنفيذ هذا الأمر. وما ذلك إلَّا لسبب بسيط، هو أنه لا يملك المشيئة القادرة على التحقيق. فقد يكون في أية لحظة متوفى. ثم هو غير مالك لزمام الأمور والظروف التي قد تواجهه: فإن أصابَهُ مرض أقعده، وإن حصل له طارىء منَعهُ، وقد تتبدل كافة المعطيات التي بنى عليها تصوراته. وعلى ذلك فهو لا يملك القدرة على التسيير والتحكُّم فيما هو آتٍ ومستقبل. على أنه وإن كان لا يستطيع الجزم بأنه فاعلٌ شيئاً، لا في اللحظة التي يعيشها، ولا في المستقبل القريب أو البعيد، إلَّا أنه يملك إمكانية الاستعداد للقيام بالفعل، وحتى في هذه الإمكانية، لا يضمن النتيجة إلَّا بعد أن يحوزها... وهذا ما يجعله خاضعاً لمشيئة الله وقدَره، فهو وحدَهُ القادر، الذي لا تحده قيود، ولا تقف دونه ظروف، بل إنَّ كل شيء يخضع له، ويسير وفق مشيئته لأن كل شيء هو من صنعه. ولذا فإنه سبحانه يقول لرسوله العظيم في قرآنه الكريم تعليماً لنا وتنبيهاً: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[1].

ولكن يبقى للإنسان، بعد أن يدرك مشيئة الله تعالى، وأنه لا يمكن أن يفعل شيئاً إلَّا أن يشاء الله تعالى له أن يفعله، بعد هذا يبقى له أن يعزم على الفعل، وأن يختار منه ما يتوافق مع هدايته... ولا تتوقف نتائج هذه الهداية على صلاحه في الدنيا وحسب، بل كذلك

---

(١) الكهف: ٢٣ ـ ٢٤.

على مصيره في الآخرة، حيث تكون له الجنة والنعيم... هذا بخلاف الإنسان الآخر الذي اختار الضلال فكان مصيره في النار والجحيم...

على أن حسابَ الإنسان في الآخرة لا يكون فقط على الأعمال وما ظهر منها، بل وعلى ما يجري في دخيلة نفسه، التي عبّر عنها القرآن الكريم بلفظة «السرائر»... وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾[1]، أي يوم يكون الحسابُ على نوايا النفس الخفية التي لا يعلمها إلاَّ هو سبحانه، وإنْ خفيت على الناس، أو أظهر صاحبها عكسها تماماً..

ومما لا شك فِيه، أنَّ من يقوم بالمظاهر الخادعة الكاذبة، لا يخدع إلاَّ نفسه، فإنَّ فوقه ربّاً يرقبه، وعلى نواياه وأفعاله الخفية يحاسبه.. أمّا أفعاله هذه فإنْ خالها خفيت حقيقتها على الناس فليكن على يقين أنها لا تخفى على رب الناس؛ فهو قد اختار، ولكن اختياره كان ضلالاً، فأَضَلَّهُ ربُّه الذي يعلمُ الجهرَ وما يخفى، والذي يطلع على ما تهمسُ به النفوسُ، ويعرف ما يعتلج في الصدور، فلا تفوته لفتة أو همسة، ولا يعوزُهُ علمٌ أو قدرة.

إذن فما على الإنسان، إلاَّ أن يدرك هذه الحقيقة، كي يتّقيَ الله خالقه، فلا يخادعُ نفسه، ولا يخادعُ الناس، بل يسلك الطريق المستقيم، الذي يرشده إلى الهداية والصواب...

ومن هنا وَجَبَ أن يكون واضحاً بأنّ كلمةَ الهداية لا تعني مجرد الإرشاد والعلم فقط، بل تعني الإرشاد مع توفيق الله تعالى إلى العمل، لأنه من دعا لك بالعلم فقد دعا لك بجزء من الخير، وأما من دعا لك

---

(١) الطارق: ٩.

بالهداية، فقد دعا لك بالخير كله، لأنه دعا لك بالعلم مع التوفيق إلى العمل، وهذا لا يكون إلَّا بإذن الله سبحانه.. وهذا الإذن لا يعطى، ولا يمنح، إلَّا لمن يستحقون رحمته وعفوه، لأنه هو البَرُّ الرحيم.. فمن كان ضالاً واهتدى، فعسى أن يثيبه الله على هدايته، ويعفو عنه. وليس أحق من المؤمنين، أن يدعوا إلى الهداية، لأنها طريق الخلاص من الذنوب والآفات...

ثم لا بدَّ، بعد هذا، من بيان ما قاله الله تعالى في أولئك الذين يختارون طريق الضلال ويألفونه، ويبتعدون عن طريق الهداية ويمقتونه. لقد قال ـ سبحانه ـ إنه يخصص لهم شياطين يزيِّنون لهم السير على هذا الطريق المهلك: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1] .. فالله سبحانه يسلِّط، على الذين يختارون الكفر، أو الشر، أو الرذيلة، أو أي طريق يبعد عن الهداية، شياطين هم قرناء لهم، يوحون إليهم بالسوء ـ وهل يوحي الشيطان إلَّا بفعل السوء ـ ويصدُّونهم عن سبيل الله... فأي إنسان اتَّخذ هذا الطريق واختاره لنفسه، لا يمكنه بعده أن يقول: ماذا أفعل؟!... وقد جعل الله لي رفيقاً من الشياطين يزيِّن لي الإثم والفسوق.. ولو ترك الأمر لي، لما اخترت مصاحبة الشيطان، ولا دعوته ليكون قريناً لي!...

فأمّا من يحتجُّ بذلك، ويدَّعي أن الله قد أوقعه في حبائل الشيطان، فإننا نقول له: عد إلى نفسِكَ أيها الإنسان، وكن بصيراً، ألا تجد أنَّك أنت الذي اخترت طريق الضلال، يوم أن آثرت الابتعاد عن الرحمان، وتعاميت عن رؤية الهداية وعميت عن ذكْر الرَّحمان، الذي

---

(١) الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧.

لا يريد بك إلاَّ الرحمة؟.. أوليس هو خالقك، وقد منحك كافة الإمكانيات التي تجعلك تميِّز، وبالتالي تختار؟.. أما وقد اخترتَ بنفسك طريق الضلال، فإنه سيكون لك رفيق وقرين من الشياطين، وهذه الرفقة التي آثرت، هي التي زينت لك زيفاً، ما تفعل.. فالأمر إذن بيدك أنت... وعليه فلا تقولنَّ أبداً: ما ذنبي؟ بل قل: أنا الضالُّ، أنا الذي اخترت طريق الضلال، وقد نبَّهني ربِّي بأنه، في هذا الضلال، سيجعل لي قريناً من الشياطين. أوليست آيتُهُ المعبِّرة عن ذلك أمام ناظري في قرآن كريم، فكيف يهديني الله بعد هذا؟...

والعجيب في أمر هؤلاء الذين نسُوا ذكر الله، وابتعدوا عن السبيل القويم، أنهم يفعلون ذلك، برغم كل ما يسَّرَ الله لهم من سُبل للهداية، إن في أنفسهم، أو في الحياة من حولهم، أو فيما بثَّ في الكون والوجود من آيات عظمته وقدرته، أو فيما بعث إليهم من رسالات سماوية تهديهم إلى الرشد وتصدّهم عن الضلال...

وكما يبيّن القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى يجعل للشياطين ولاية على الكافرين والضالين، فإنَّ القرآن نفسه يبيِّن أيضاً أنه لا يمكن أن تكون للشياطين أَيَّةُ ولاية على المؤمنين.. وليس هذا البيان والتأكيد عليه بآيات دالّة، معبِّرة، إلاَّ رحمة بالإنسان، وحباً بهدايته، إذ لعلَّهُ بعد الضلال أن يثوبَ إلى الله، ويعودَ إلى خالقه.. هذا، ولكي لا تكون للإنسان أيضاً حجةٌ بأنه لم يكن له إرادة في الاختيار أمام مشيئة الله وقدره.. إنَّ رحمة الله تعالى قد وسعت كلَّ شيء، وهو سبحانه يحثُّ الفرد والجماعة على الرجوع إليه، والعودة إلى توجيهه، واللجوء إلى رحمته، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[1]، ﴿وَإِن

---

(١) الإسراء: ٨.

﴿ تَعُودُواْ نَعُدۡ ﴾[1]، ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، ﴿ لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾[3]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾[4] . . فإذا عاد الإنسان عن ضلاله، وابتعد عن غيه، وغيَّر مفاهيمه، فإن سلوكه سيتغيَّر حتماً. وإن هو نهى نفسه عن الهوى، فإنه يكون قد غيَّر ما تكنّهُ هذه النفس. . وعندها يرسل الله سبحانه وتعالى له أولياء من الملائكة يكونون له عوناً، وأخلاَّء أصفياء في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾[5]. . . فهل بعد ذلك توجدُ رحمة أوسع من رحمة الله، ويوجد إرشاد أكبر، وهداية أشمل؟!. . . إنها دعوة صريحة واضحة للإنسان، كي يكون من المهتدين. وإن ضَلَّ يوماً أو أضَلَّهُ غيره، فإن أبواب رحمة الله مشرعة أمامه كي يعود إلى الهداية، وإن خالَقهُ وربَّهُ خير معين له في هذه العودة، وهل أفضل وأكبر من هذا العون وهو ـ سبحانه ـ ينزل عليه ملائكة تأخذ بيده إلى سبيل الرشد؟. . .

وبعد ذلك كله أوليس الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى هو خيرُ عونٍ لنا في البعد عن الضلال؟ إذ كم يكون عظيماً إيمانٌ بالله الذي لا حول ولا قوة لأحد إلاَّ به، ولا ملجأ منه إلاَّ إليه، ولا تدبُّ نملةٌ سوداء على حجرٍ أصلدَ في نهار أو ليلٍ إلاَّ وهو يراها وييسِّر أمرها. . ولا

---

(١) الأنفال: ١٩.

(٢) الذاريات: ٥٠.

(٣) التوبة: ١١٨.

(٤) الرعد: ١١.

(٥) فصلت: ٣٠.

ينبض عرق في جزء من كائن إلَّا بأمره.. والله ـ سبحانه ـ لا يغفل عن شيء بآخر.. ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تقوم الحياة إلَّا بأمره، وإذا أراد شيئاً فإنَّما يقُولُ لَهُ: ﴿كن... فيكون..﴾. إنَّ هذا الإيمان الذي يدعو إليه الإسلام، لكفيل بأن يمسَّ شغافَ القلب، وأن يملأ شعاب العقل، وأن يملك على المرء حواسه ومشاعره، فيعيش في حقيقة الله تعالى الكبرى، حقيقة الهداية التامة...

وهكذا نصل في النتيجة إلى أنَّه ليس من مشيئة تجري وفقها الأمور إلَّا مشيئة الله وقدَره. وقد كانت مشيئته في الهدى والضلال عندما خلقَ الإنسان في أحسن تقويم، وترك له الاختيار الحرَّ الطليق في أن يسيرَ إما وفق مشيئةِ هدى الله، وإما وفق مشيئة الضلال، وصدَقَ الله العظيم حيث يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(1).

وأما قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(2)، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(3) وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(4) فمنطوق هذه الآيات فيه دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الذي يفعل الهدايةَ والإضلالَ هوَ الله سبحانهُ وتعالى، لا العبدُ، وهذا يعني أنّ العبدَ، لا يهتدي مِنْ نفسِهِ إلَّا إذا هداهُ الله تعالى.. إن هذا المنطوقَ قدْ جاءت قرائنُ تصرفُ معناهُ، عنْ جَعْلِ مباشرة الهداية والضلال منَ الله تعالى، إلى معنى آخَرَ، هوَ جَعْلُ خلق الهداية وخلق

---

(1) الكهف: ٢٩.

(2) الأنعام: ٣٩.

(3) الأعراف: ٤٣.

(4) القصص: ٥٦.

الضّلال من الله تعالى، وأما المباشر للهداية والضلال والإضلال فهوَ العبدُ. وهذه القرائنُ شرعيّةٌ وعقليّةٌ.

القرينة الشرعية

جاءَتْ آياتٌ كثيرةٌ تنسب الهدايةَ والضلالَ والإضلالَ إلى العبد. قالَ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾[1]، وقال: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾[2]، وقالَ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾[4] ، وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾[5]، وقالَ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ﴾[6]، وقال: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾[7]، وقالَ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[8]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾[9]. فمنطوق هذه الآيات، فيه دَلالةٌ واضحةٌ على أنّ الإنسانَ هو الذي يَفْعلُ الهدايةَ والضلالةَ، فيُضلُّ نفسَه ويُضِلّ غيرَه، وأنّ الشيطانَ يقوم بالإضلال أيضاً. وهي قرينةٌ على أنّ نسبة الهداية والإضلال إلى الله

---

(١) يونس: ١٠٨.
(٢) المائدة: ١٠٥.
(٣) البقرة: ١٥٧.
(٤) فصلت: ٢٩.
(٥) الأنعام: ١٤٤.
(٦) سبأ: ٥٠.
(٧) طه: ٨٥.
(٨) آل عمران: ٦٩.
(٩) النساء: ٦٠.

تعالى ليستْ نسبةَ مباشرة، بلْ هيَ نسبة خَلْق. فإنّكَ إذا وضعتَ الآيات معَ بعضها، وفهمتَها فَهْماً تشريعياً يتبيَّنُ لكَ انصرافُ كلّ منها إلى جهة غير الجهة التي هي للأخرى، كالآية التي تقول: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾[1] والآية الأخرى التي تقولُ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾[2]. فالأولى تدلّ على أنّ الله تعالى هُوَ الذي هدى، والثانية تدلّ على أن الإنسانَ هو الذي اهتدى. **وهدايةُ الله في الآيةِ الأولى هيَ خَلْقٌ للهداية في نفس الإنسان أي إيجاد قابليّة الهداية فيه، ثم تركه يباشر الاهتداءَ بنفسه. والآيةُ الثانية تدلّ على أنّ الإنسان هو الذي باشرَ ما خَلَقَه الله من قابليّة الهداية.**

فهذه الآيات التي تنسب الهدايةَ والإضلالَ إلى الإنسان قرينةٌ شرعيّةٌ دالَّةٌ على صَرْفِ مباشرة الهداية عن الله ـ سبحانه ـ إلى العبد.

القرينة الشرعية والعقلية

إنَّ الله يحاسب الناسَ على مباشرتهم للأعمال فيثيبُ المهتدي ويعذِّبُ الضّالَ. قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[3]. وقالَ تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾[4]. وقالَ تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[5]. فيكونُ الذي يُباشر الهدايةَ والإضلالَ هو العبدُ، ولذلك يُحاسَبُ عليهما.

---

(١) يونس: ٣٥.

(٢) يونس: ١٠٨.

(٣) فصلت: ٤٦.

(٤) الإسراء: ٧.

(٥) الزلزلة: ٧ ـ ٨.

وأمّا من ناحية الآيات التي تقترنُ فيها الهدايةُ والإضلالُ بالمشيئة مثل قوله تعالى: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾[1] فإنَّ معنى المشيئة فيها هو الإرادة. ومعنى هذه الآيات هو أنّهُ لا يهتدي أحدٌ ولا يضلّ أحدٌ جبراً، بل يهتدي مَنْ يهتدي بإرادة الله ومشيئته، ويضلّ بإرادته ومشيئته. وكانَ السلف الصالح يفهَم هذا المعنى ويُدْرِكُهُ إدراكاً حِسيًّا. ومما ذُكِرَ أنّ علياً عليه السلام، بعدَ رجوعه من صفين سأله رجلٌ: هلْ كانَ ما حدثَ في صفّينَ بمشيئةِ الله وقضائه؟ فأجابه سلام الله عليه: «إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً وكَلَّف يسيراً، فلمْ يُطَعْ مُكْرهاً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولمْ يُرْسل الرسل عبثاً، ذلكَ ظَنّ الذين كَفَروا».

أمّا الآياتُ التي يذكر القرآن الكريم فيها أناساً لا يهتدونَ أبداً، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]، وقوله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾[4]، فهذه الآيات إخبارٌ من الله لأنبيائه عنْ أُناسٍ مخصوصينَ بأنّهُمْ لن يُؤمِنوا، وهذا داخلٌ في علم الله، وليس معناه أنّ هناكَ فئة تؤمن وفئة لا تُؤمن، بل كلّ إنسانٍ فيه قابليّة الإيمان.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[5]، وقولُه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[6]، وقولُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ

---

(١) الأعراف: ١٥٥.
(٢) البقرة: ٦.
(٣) المطففين: ١٤.
(٤) هود: ٣٦.
(٥) المائدة: ١٠٨.
(٦) البقرة: ٢٥٨.

﴿كَـٰذِبٌ﴾[1]، ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[2].. إنّ هذه الآيات تعني عدمَ توفيق الله تعالى لهمْ بالهداية، إذ التّوفيق للهداية هو منَ الله تعالى. والفاسق والظالم والكافر والضالّ والمسرف الكذاب.. كل أولئك يتصفونَ بصفاتٍ تتناقضُ وتتنافرُ معَ الهداية، والله ـ عز وجل ـ لا يُوَفّقُ للهدايةِ مَنْ كانتْ هذه صفتُه. لأنّ التوفيقَ للهداية تهيئةُ أسبابٍ للإنسان، ومَنْ يتّصف بهذه الصفات لا تتهيأُ له أسبابُ الهداية، بل أسبابُ الضلال. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾[3]، وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[4]، أيْ وفقنا لأنْ نهتديَ، بمعنى يَسّرْ لنا أسبابَ هذه الهداية.

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) غافر: ٢٨.

(٣) ص: ٢٢.

(٤) الفاتحة: ٦.

الفصل العاشر

- النفس ونزغ الشيطان
- الفتنة والتجربة
- الإغواء والإغراء
- غفران الذنوب



النفس ونزغ الشيطان

النزغ من الشيطان في اللغة: هو الكلام الذي يُغري به الناس أو يكون فيه حث على المعاصي. والنزغ يعني أيضاً الغيبة، والنازغ هو المغتاب. قال الشاعر: واحذر أقاويل العداة النّزِغِ. ولذلك يقال: نزغه وينزغه نزغاً إذا اغتابه وذكره بقبيح، أو إذا استخفه وحرَّكه أدنى حركة.

وقد يأتي النزغ بمعنى الطعن بالرمح أو اللكز باليد. لأنَّ النزغة تعني الطعنة. أما نزغ الشيطان فيدخل في هذه المعاني جميعاً، لأن فيه وسوسة في الصدور، ونخس في القلوب، وإغراء للنفوس، وطعن للحق، واستخفاف بالصواب. كما فيه تغييب لكل خير. فهو إذن كل ما يسوّل به للإنسان من ارتكاب المعاصي.

هذا هو نزغ الشيطان، فما هي آثاره في حياة الإنسان؟

النزغ من عداوة الشيطان

إن عداوة الشيطان للإنسان أصيلة في الوجود البشري. فهي قائمة منذ أن خلق ربّنا تعالى آدم عليه السلام أباً للبشرية، وأمر الملائكة

بالسجود له إظهاراً لتكريمه في خلقه، وفي المهمة الموكولة إليه باستخلافه في الأرض. فسجدت الملائكة لآدم عليه السلام إلاَّ إبليس أبى، وعصى أمر ربه، فحلّت عليه اللعنة إلى يوم الدين. ولكن كراهيته لآدم عليه السلام أبت عليه إلاَّ أن يطلب من الله تعالى أن يُنظره إلى يوم البعث، فيقوم بإغواء بني آدم، ويقودهم إلى الضلال والمعصية.. ويشاء ربُّ العالمين، لحكمة يقدّرها ويريدها، أن يجيب إبليس إلى سؤاله فيكون من المُنْظَرين... وهكذا وقعت الحرب بين إبليس والإنسان، وما تزال تلك الحربُ قائمة على أشدّها بين إبليس وأبنائه وأتباعه من جهة، وبين بني آدم جميعاً من جهة أخرى، وستظل قائمة إلى يوم القيامة. ولكن اللطيف الخبير، وفي خاتم رسالاته السماوية إلى الأرض، تكرَّم على بني آدم ـ زيادةً في الفضل ـ بهذا القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم، وفيه بيان لحقيقة إبليس اللعين، وفعاله في الناس، وتحذير لهم بالآيات المبينة كيف يتلافون شروره، وكيف يقاومون نزغاته ووساوسه الخبيثة..

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

الإسلام دين الحق ودعوة التوحيد، ومنهج الله تعالى في علاقات الناس بعضهم ببعض. ورسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد بلّغ رسالة ربه

---

(١) فصلت: ٣٣ ـ ٣٦.

بتمامها وكمالها، وبقي على المسلمين من بعده أن يتولوا حمل هذه الرسالة العظيمة، داعين إلى الله تعالى حتى تظل هذه الدعوة قائمة ومستمرة، لأنها الخير، كل الخير، للناس أجمعين. وهنا يأتي دور الداعية وأهميـة هذا الـدور، ولكن ضمن منطوق القـرآن الكريم، وتوجيهاته السنيّة، حتى يكون للدعوة وقعها وتأثيرها في النفوس. . وكلما تقدم الزمن بالإنسان باتت الدعوة ضرورية مِلْحَاحة بعدما وصلت الأحوال بالناس إلى هذه الأوضاع المزرية، بالابتعاد عن الله تعالى، والضياع في متاهـات الضلال. فـالنفوس أصبحت مثقلة بـالأعباء، والعقول غدت تتخبط في المشاكل والمصاعب. . من هنا كان النهوض بواجب الدعوة في مواجهة هذه النفوس صعباً، وكان ما يحيط بالداعية من ظروف شاقة، يجعل عمله شاقاً كذلك، ولكنه عمل ذو شأن عظيم.

وأول ما يوجّهُ القرآن المجيد الداعيةَ إلى الأسلوب الأرقى في القول ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين﴾. فالداعية يجب أن يكون حسن القول، ويعمل صالحاً، ويقول بصراحة: إنني من المسلمين، لأن دعوته هي الإسلام، وهي لله تعالى الواحد الأحد. والدعوة بالقول الحسن والكلمة الطيبة، مع ما يرافقها من العمل الصالح الذي يصدق القول، تكون دعوة خالصةً لله تعالى، وليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ. ولكن جهده يبقى محسوباً عند الله تعالى، ولا يضيع أجره سدىً، إذ لا يمكن أن يستوي مجاهد داعية، مع قاعـدٍ متخاذل عن الدعوة، كما لا يمكن أن يتساوى مع منكر، جاحدٍ، بعيدٍ عن طاعة الله تعالى، يسلك الحياة بدافع من أهوائه ومطامعه المادية الرخيصة.

نعم، الداعية لا يستوي مع غيره، من متخاذل أو معارض. . وقد

يقابل بالعداء، أو الشدة أو الإيذاء، وقد يساء إليه جهراً أو خفية. . . ولكن عليه أن يحتمل، وأن يقول الحسنى، والكلم الطيب، وأن يعمل صالحاً، فيكون في المقام الرفيع، وكل منكر أو معارض يكون في المكان الدون. وهما لا يستويان عملاً ولا مقاماً ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾. وهل يعقل أن تتوازن قيمة الحسنة وآثارها من الصبر والتسامح، مع السيئة التي تستعلي على دعوة الحق وتستكبر على النصح؟

ومهما كانت الصعوبات التي تعترض الداعية فعليه دائماً أن يدفع بالتي هي أحسن. هذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.. وهذه قاعدة ثابتة في الحياة البشرية، وهي تصدق مع كل إنسان عاقل وخلوق، وعلى مستوىً معين من الإنسانية. فالحياة ترينا أن مقابلة الهياج والغضب بالوداعة والسكينة، أفضل بكثير، وهي تعيد الهائج الغاضب إلى صوابه، وتطرح المواجهة والعداوة جانباً. أما إذا قوبل بمثل فعاله فيزداد هياجاً وغضباً، وتأخذه العزة بالخطأ والإثم، فلا يعود ينفع معه قول ولا عمل..

ولكن الداعية يجب أن يُشعر ذاك الهائج الغاضب، أن مواجهته باللين ليست آتية عن ضعفٍ أو تخاذل، بل عن تسامح واحتكام إلى العقل. على أن هذه السماحة يجب أن تبقى في إطار الإساءة الشخصية، أما إذا كانت العقيدة هي المقصودة، فإن المواجهة تصبح واجباً شرعياً لردع الناس عنها، ويجب أن تكون بكل القوى والوسائل والإمكانيات المتاحة. وإذا لم يكن بالإمكان الإقدام على هذه المواجهة، فيقتضي الصبر على الأذى، واحتمال الإساءة، حتى يحظى الصابر بالأجر العظيم من خالقه وربه.

وقد يحاول الشيطان الرجيم أن يستفزَّ الداعية، ليفسد قوله وعملَهُ، والشيطان مستعد دائماً لإفشال كل محاولة خير وعمل صالح، وشباك دسائسه يلقيها على كل إنسان، هنا يجيىء توجيه الله تعالى للداعية، ولكل إنسان: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.. هكذا يجب أن يفعل الإنسان عندما يحاول الشيطان أن يغريَه بفعل الشرِّ، أو يحثّه على معصية، أو يحاول أن يستخفه بطيشٍ أو هوىً... أن يتذكَّر الله تعالى فوراً، ويستعين به لدفع ذاك النزغ عنه. وهذه الاستعانة بالله العلي العظيم من الشيطان هي من مقومات الإيمان، لأن المؤمن يعرف بأن الله تعالى سميع لدعائه ورجائه، عليم بحاله ووضعه، فهو ـ سبحانه ـ يعلم كل همسة نفس، ونبضة عِرْقٍ، ويسمع ما تتفوه به الشفاه، وما تخفق به القلوب، وهو ـ سبحانه ـ سميع لدعاء عبده المؤمن، مستجيب لتضرعه واستغاثته. وحسب الإنسان أن يلجأ إلى خالقه وبارئه، مستعيناً به على نزغ الشيطان، حتى يطمئن إلى أنَّ ربه كفيل بأن يبعد عنه هذا الشيطان ونزغاته، وأن يخلصه من شرِّه ووسوسته..

ولنتأمل هذا التوجيه الربّاني من اللطيف الخبير، لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم كي يعلّم عباد الله سبيل الخلاص من العداوة التي قد يغري بها الشيطان فيما بينهم. يقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

هذا التوجيه اللطيف هو تخصيص وتشريف للمؤمنين. لأن عباد الله هم دائماً المؤمنون. وهو ـ سبحانه ـ يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يربي المؤمنين على أجمل العادات الإسلامية، والصفات الإنسانية: ألَّا يقولوا

(١) الإسراء: ٥٣.

إلا القول الحسن، وألا يتكلموا إلا بالكلام الطيب. لأن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. وبذلك فإنهم يتخلصون من نزغ الشيطان الذي يفسد ما بينهم من محبة وتعاون، وذلك بأن ينزغ بينهم بالقول السيء، وبالرد السيء، فإذا كل ودّ ووفاق تذهب به الجفوة، فيقع الشقاق والعداء.. هذا لأن ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾(1). فعداوته لا لبْسَ فيها، وهو يحاول أن يلاحق بها الإنسان ليدفعه إلى سقطات اللسان، ويحرّضه على العداوة والبغضاء بينه وبين الآخرين، بل إنه لَيُفسد بين المرء وأخيه، والولد وأبيه. فليحذر الإنسانُ هذا العدو اللدود، وليستعصِ على نزغه ووسوسته، وليردد دائماً قول الله تعالى: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾(2). أي أعتصم بك ربِّ من نزغات الشياطين، وبما يوسوسون به.

وعد الله تعالى ووعد الشيطان

يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(3). يحذّر الله تعالى الناسَ من وعود الشيطان الكاذبة المضلّلة، ومنها وعده لهم بالفقر، وهو وعد، في حقيقته منع للناس عن الانفاق في وجوه البر والرحمة، وفي إتيان الفرائض من صدقة وزكاة. وهذا المنع يضعف النفوس ويثير فيها الحرص والشح والتكالب، فهو إذن إفقار لها عن حب الخير، وعن الإنفاق في سبيل الله وعلى عباده.

---

(1) الإسراء: ٥٣.
(2) المؤمنون: ٩٧.
(3) البقرة: ٢٦٨.

والشيطان يأمر الناس بالفحشاء: مثل الإنفاق في المعاصي، ونشر الفساد، وإثارة العداوة والتقاتل، وذلك بما يوغر به الصدور، وبما يملأ به النفوس من شرورٍ كلها فحشاء، لأن الفحشاء هي: كل معصية تفحش أي تتجاوز الحد، وهي تشمل جميع المعاصي من الصغائر والكبائر.

والله تعالى يعد الناس إن هم أنفقوا من المال الحلال في وجوه الخير، أن يستر عليهم، وأن يصفح عنهم ويغفر لهم. وهو ـ سبحانه ـ يعدهم أيضاً أن يعوض عليهم ما أنفقوا وأن يزيد في أرزاقهم ويتفضل عليهم بمكرماته..

ويقدّم ـ سبحانه ـ المغفرة على الفضل. لأن الإنسانَ إذا ما نال مغفرة من ربه فقد نال جزاءً عظيماً. فإذا زاده فضلاً في السعة والعطاء، فهذه نعمة زائدة ورحمة بالغة. وهذا ليس بكثير على الله تعالى لأنه واسع يعطي عن سعةٍ فخزائنه لا تنقص، ورزقه لا ينفد، وهو ـ سبحانه ـ عليم بمن يستحق العطاء، وعليم لماذا يعطي وكيف يعطي سواء لمن يستحق أو لا يستحق، فلله تعالى حكمة بالغة في العطاء، وعلى الناس القبول والرضا..

وعلى الإنسان أن يختار وعد الله تعالى فينعم بالمغفرة والعطاء الجزيل، أو أن يختار وعد الشيطان فيشقى في فقر النفس ويأتمر بالفحشاء.

وهذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم في أكثر من موضع، ويؤكدها مراراً وتكراراً لكي لا تكون للإنسان حجة إن اختار أن ينحرف عن نهج الله تعالى. فليست هنالك شبهة ولا غشاوة: إما طريق الله تعالى وإما طريق الشيطان. ولكل امرىء أن يختار ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ

عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[1].

الاستعانة بالله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[2].

الفلق من معانيه الصبح، ومن معانيه الخلق كله، إشارة إلى كل ما يُفلق وينتج عنه وجود أو حياة.

والغاسق في اللغة: الدافق. والوقب: الثغرة في الجبل يسيل منها الماء. والمقصود في الآية الكريمة بالغاسق الليل وما فيه. وأما النفاثات في العقد فهن الساحرات. والحسد معروف بأنه انفعال نفسي إزاء نعمة الله تعالى مع ميل وتمنٍّ بزوالها عن صاحبها، أو نيلها من قبل الحاسد.

إن في الآيات الكريمة توجيهاً من الله تعالى لرسوله الكريم، ولكل إنسان، أن يستعين بربه تعالى، رب الصبح ورب كل ما ينفلق ويخرج منه حياة جديدة (كالمواليد والنبات) وكل موجود جديد.. والاستعاذة برب الصبح هي أمن للإنسان، لأنَّ ربَّ الصبح هو الذي يؤمِّن بالنور من شر كل غامض ومستور. والاستعاذة برب الخلق هي أمن أيضاً للإنسان، لأن رب الخلق هو الذي يؤمن برحمته من كل شر، ولا سيما من شر ما خلق، لأن لخلائقه شروراً في حالات اتصال بعضها ببعض، كما أن لها خيراً ونفعاً في حالات أخرى. والاستعاذة بالله القدير من شر خلائقه هو اتقاء لشرها والإبقاء على خيرها. والله

---

(١) الأنفال ٤٢.

(٢) سورة الفلق.

تعالى الذي خلقها قادر على توجيهها، وتدبير الحالات التي قد يأتي منها خيرها لا شرها.

والاستعاذة بالله تعالى ﴿من شر غاسق إذا وقب﴾ هي الاستعانة به ـ سبحانه ـ من شر الليل عندما يغطي الأرض بظلامه.. وشرور الليل كثيرة ومنها الخوف من ظلامه الدامس، ومن مجهول شرِّيرٍ يتستر تحت جنح الظلام، أو حيوانٍ من الحيوانات الضارة. وفي الليل قد تهجم الهواجس والهموم، والأشجان والوساوس على النفس، وقد تستيقظ فيه الشهوات أثناء الوحدة، وقد ينشط الشيطان، تساعده الظلمة على الانطلاق، للنفث في النفس.. كل هذا ممكن حدوثه وحصوله أثناء الليل إذا غطَّى الظلام الأرض!...

والاستعاذة بالله تعالى ﴿من شر النفاثات في العقد﴾ هي اتقاء لشرور الساحرات اللواتي من عادتهن السعي بالأذى، عن طريق خداع الناس بمزاولة السحر، وإيهام البسطاء منهم بمدِّ يد العون لهم بأساليب كثيرة ومنها عَقْد العقد في الخيوط والمناديل، والنفث فيها، ثم إعطاؤها للمتوهمين لكي يحققوا رغباتهم.. هذا الخداع للناس هو شر من الساحرات يحذرنا الله تعالى منه، ويوجهنا بأن نلتجىء إليه وحده، فهو المعين والناصر، لا أن نذهب إلى أهل السحر ونطلب منهم العون، فهم أضعف من أن يعينوا الناس أو يقدموا لهم أي خير.

والاستعاذة أو الاستعانة بالله تعالى ﴿من شر حاسد إذا حسد﴾ فيها وقاية أيضاً للإنسان. وسواء أراد الحاسد بانفعاله النفسي زوال النعمة عن المحسود بسبب الطمع أو الحقد، أو انبعث هذا الانفعال من نفسه بلا إرادة منه، فإن شراً يمكن أن ينتج عن هذا الانفعال، ويصيب الشخص المحسود...

ولا يمكن لأحد أن ينفيَ تأثير هذا الانفعال النفسي المعروف بالحسد. . لأن ما لدى الناس من العلم وأدوات الاختبار لم تصل إلى سرّ هذا الأثر وكيفيته. فنحن لا نعلم إلا القليل القليل من أسرار هذا الوجود، وخاصة أسرار النفس البشرية. أما ما هي القوة التي تحدثها النفس عند انفعالها، وما يكون لها من تأثيرٍ سيءٍ على الشخص الآخر أو على الحيوان أو النبات أو الشيء، فلا أحد يعرف كنه ذلك وحقيقته. . فلا يبقى أمام الإنسان إلاَّ أن يستعين بالله العلي العظيم من شر هذه القوة وتأثيرها. .

الوسوسة في الصدور

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[1].

في هذه السورة المباركة توجيه من الله تعالى لرسوله الكريم، وللناس جميعاً، بأن يعودوا إلى الله ـ سبحانه ـ عندما يتحرّك فيهم ذلك العدو الدفين القابع في أعماقهم (الوسواس الخنّاس)، وأن يلوذوا به ـ سبحانه ـ من الشر المستطير الذي يمكن أن يثيره في نفوسهم من انحراف عن الإيمان، وابتعاد عن الله، واندفاع وراء الانفعالات الضارة القاتلة. . .

والعودة إلى الله سبحانه، واللواذ بحماه، تكون بالاستعانة به فهو: ﴿رب الناس. ملك الناس. إله الناس﴾. .

والرب هو المربي والموجه والراعي والحامي. والملك هو

---

(١) سورة الناس.

المالك الحاكم المتصرف القادر. والإله هو المستعلي العزيز المتولي المحيط بكل شيء.. فهو سبحانه إذن الحامي للناس من الشر الذي يحوكه عدو الله، وعدو الناس، في الصدور. ولا تعرف الأنفس كيف تدفعه عنها عندما ينسل خفية وهو مستور، فيأتيها من حيث لا تحتسب، ويأخذها من حيث لا تشعر. ذاك العدو الغادر هو الشيطان الوسواس الخناس. (والوسوسة: الصوت الخفي. والخنوس: الاختباء والرجوع. والخنَّاس هو الذي يكون من طبعه كثرة الخنوس، أي كثرة الاختباء في المكامن التي يأتيها، وكثرة الرجوع والتردد إليها).

ومن بلاغة القرآن المبين أنه أبان لنا الصفة أولاً: ﴿الوسواس الخناس﴾، ثم حدد ثانياً عمل هذا الخناس ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾. وأخيراً حدّد من هو: ﴿من الجنة والناس﴾.. وهذا الترتيب يثير في النفوس اليقظة والانتباه حتى تتبيّن حقيقة هذا ﴿الوسواس الخناس﴾ بعد معرفة صفته، وإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شرُّه، تأهباً لدفعه ومراقبته. والنفس حين تعرف أنَّ ذاك الوسواس الخناس إنما يعمل في الخفاء والسر، وأنه من الجن (المتخفين عن العيون) ومن الناس (الذين يؤثّرون في الأنفس تأثير الجن، ويوسوسون وسوسة الشياطين).. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع وقد عرفت عدوها، وطريقة عمله، والأماكن التي يضرب فيها، فلا يعود قادراً على أن يفعل فيها، كما لو بقيت غافلة، جاهلة، لا تعرف الدفاع ولا تلجأ إلى الناصر والمعين..

وعن جعفر الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من مؤمن إلا ولقلبه في صدره أذنان: أذن ينفث فيها المَلَك ـ وهو أحد ملائكة الله أوكله سبحانه بالإنسان ـ وأذن ينفث فيها الوسواس الخناس،

فيؤيد الله المؤمنَ بالملك وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[1]».

أما اتّباع الوسواس الخناس فيكون من الأنفس ذاتها بشهواتها ورغباتها، لأن الشهوة هي مظهر من مظاهر غريزة النوع كالميل الجنسي، والرغبة هي مظهر من مظاهر غريزة البقاء، كالرغبة في الحصول على المال والسلطة وما إلى ذلك.. إذن في حياة الإنسان عدوان من ألدّ الأعداء وهما: فئة من الجن الفاسقين، وفئة من الناس أتباع للشيطان.

أما الجان (أو الجنة) فلا ندري كيف تتم وسوستها، وكيف تدخل إلى النفوس وتؤثر فيها. ومع ذلك فإن آثارها موجودة في النفوس البشرية وفي واقع الحياة، فكم من الناس يتصرفون بإيحاء خفي، لا يعرفون مصدره على حقيقته، ولكنهم ينساقون معه، فتبرز تصرفاتهم على نحوٍ مشين.. ونعرف من القرآن الكريم أن المعركة بين عدونا إبليس اللعين (وهو من الجان) وبين أبينا آدم عليه السلام قد وجدت منذ بدء حياة الإنسان، فقد أعلنها إبليس حرباً شعواء على آدم وذريته، انطلاقاً من كفرانه بنعمة ربه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان. وقد استصدر إبليس من الله الخبير الحكيم إذناً بتلك الحرب، فأذن فيها ـ سبحانه ـ لحكمة يراها. إلاّ أن ربّنا الله لم يترك الإنسان في هذه المعركة مجرداً من العدّة. فقد جعل له من الإيمان جُنَّة، ومن ذكر الرحمان عوناً، ومن الاستعاذة بالرب الإله سلاحاً.. فإذا أغفل الإنسان جُنته وعونه وسلاحه، فليس له أي عذر إذا وقع في حبائل الشيطان. ولا يقع اللوم إلا على نفسه، وعليه وحده.. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الشيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابن آدم، فإذا ذكرَ الله

(١) المجادلة: ٢٢.

تعالى خَنَس، وإذا غَفل وسْوس». .

وأما بعض الناس فإن من وسوستهم ما هو أدهى من وسوسة الأبالسة والشياطين. وهذه نماذج كثيرة فاسدة من بني آدم:

● رفيق السوء الذي يزين الشر لرفيقه، حتى يدخله إلى عقله وقلبه من حيث لا يحتسب، ومن حيث لا يحترس، لأنه بنظره الرفيق المأمون. يقول الشاعر:

فلا تصحب أخا السوء وإياك وإياه
فكم من جاهل أودى حكيماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

● حاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تجعله طاغية، جباراً، مفسداً في الأرض، مهلكاً للحرث والنسل. .

● النمام الواشي الذي يزخرف الكلام ويزينه حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه، بينما لا يعدو في حقيقته كلاماً منمَّقاً يخفي الخبائث والنفاق والفتنة. .

يقول الشاعر:

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تغيير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن ذممت فقل قيء الزنابير
مدحاً وذماً وما غيرت من صفة سحر البيان يُري الظلماء كالنور

● بائع الشهوات الذي يغري المهووسين، وينفذ من منافذ الغريزة. .

هذه النماذج وغيرها علاجها في يقظة العقل والقلب، وعون الله

تعالى ورحمته، فمن شاء أن يخلص نفسه فالله تعالى حاضر أبداً لنصرته. وذكر الله تعالى، والاستعاذة به، وطاعته، خيرُ معينٍ وناصرٍ للنفوس البشرية في كل شيء. إنها إذن معركة كتبت على الإنسان، وهي لا تنتهي أبداً. فالخناس أبداً قابع خـانس، مترقب للضعف والغفلة عند الإنسان.. واليقظة في أحيان معينة لا تغني الإنسان عن الغفلات المستمرة.. لأنَّ الحربَ سجال بين الناس والأبالسة إلى يوم القيامة، كما يصورها القرآن الكريم في كثير من سوره المباركة، ومنها هذه الصورة، في سورة الإسراء. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(١).

فهذا العهد من الله تعالى لعباده بإلَّا يكون للشيطان عليهم تسلّط يُشعِرُ الإنسان بأنه ليس متروكاً في المعركة وحده وأنه ليس مغلوباً على أمره فيها.. إنها معركة الشيطان هذه، سواء منه مباشرة أو عن طريق عملائه من بني البشر، فلا يجوز أن يتخاذل فيها الإنسان عن حماية نفسه والدفاع عنها. وعليه أن يؤمن بثقة واطمئنان أن الله تعالى، ربه وملكه وإلهه، مسيطر على الخلق كله. وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب على بني آدم فهو ـ سبحانه ـ آخذ بناصيته، ولن يدع له مجالاً للتسلط إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم، أولئك الذين

---

(١) الإسراء: ٦١ ـ ٦٥.

ينسون الله تعالى فينساهم ويتركهم للشيطان. فأما من يذكرون الله تعالى، ويسلمون مقاليدهم له، خاضعين طائعين، فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية، سواء كان هذا الشر من شيطان الجنّ أو من شيطان الناس. . والخير دائماً يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها. يستند إلى رب الناس، ملك الناس، إله الناس. والشر يستند إلى الوسواس الخناس الذي يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء، وينهزم عند الاستعاذة بالله العلي العظيم.

ومن نوازغ الشيطان أنه يزيّن للناس الحرامَ فيرونه حلالاً، ويحثهم على ارتكاب هذا الحرام، حتى في المأكولات، وذلك عندما يأمرهم أن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم، لا أن يتبعوا أوامر الله تعالى الخالق للأرزاق جميعاً. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

الله تعالى هو الرازق لعباده، وهو سبحانه الذي يشرع لهم الحلال والحرام. وقد أباح للناس أن يأكلوا مما في الأرض حلالاً طيباً - إلَّا الشيء القليل الذي حرَّمه عليهم شرعاً - وأمرهم بأن يتلقوا منه الأمر في الحل والحرمة، وأن لا يتبعوا الشيطان في شيء من هذا لأنه عدوهم، ومن ثَمَّ فهو لا يأمرهم بخير، وإنما يأمرهم بالسوء والفحشاء وأنْ يقولوا على الله ما لا يعلمون. وهذا الأمر من الله تعالى بالإباحة والحل لما في الأرض - إلا المحظور القليل الذي ينص عليه الشرع نصّاً - يمثل طلاقة العقيدة الإسلامية السمحاء وتجاوبها مع فطرة

---

(١) البقرة: ١٦٩.

الإنسان. فالله تعالى خلق ما في الأرض للإنسان، ومن ثمَّ جعله له حلالاً طيباً، إلَّا بعضاً قليلاً حرَّمه عليه لما فيه من مضارّ ومساوىء كثيرة له.. والإنسان مدعو للاستمتاع بطيبات الحياة ممّا تتقبله نفسه بلا كزازة ولا حرج ولا تضييق إلَّا ما يجافي فطرته التي فطره الله عليها.. فكان على الناس أن يتلقوا الأمر من الله تعالى بما يحل لهم من الطيبات، أو ما يحرم عليهم من الخبائث، لا من همس الشيطان أو أمره الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، ومخالفةِ ما أنزل الله تعالى دون تثبت أو يقين..

فتنة الشيطان

إن لفظة الشيطان قد وردت كثيراً في القرآن الكريم حتى بلغت ثماني وثمانين مرة، وفي معظم السور. والشيطان مرادف لفعل الشر. فهو الذي يتلبَّسُ الإنسانَ، وينفذ إلى أعماق نفسه، فيزيّن له الشهوات والمتع الزائفة، ويحرّضه على ارتكاب الفواحش والمعاصي، ويحول بينه وبين أعمال الخير والبر، وكل ما يمكن أن ينفعه أو يهديه إلى الحق والصواب.

وعهد الشيطان على نفسه أن يغوي الناس، وأن يقف لهم بالمرصاد، وأن يجنّد كل من يطاوعه، ويسخّره لأغراضِهِ الخبيثة بالانحراف والفساد، والطغيان والغي والضلال، والشرك والإلحاد والكفر، ليستجلب أكبر عدد ممكن من الناس ويحرفهم عن فطرة الإيمان التي خلقهم الله تعالى عليها، وينزل بهم إلى مهاوي المعصية والذنب..

هذا باختصار كلي ما يريده مِنَّا الشيطان، نحن بني آدم: اتِّباعه

والعمل بوساوسه وأضاليله.. إنه عدو مبين للإنسان، كما أخبرنا بذلك رب العالمين، فما ينبغي لنا أن نصغي لهذا العدو المبين، أو أن ندعه يوقعنا في غيّه كلما وجَدَ لذلك سبيلاً.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

منذ فجر الخليقة انطلقت فتنة الشيطان. فالله سبحانه وتعالى جعل لبني آدم الأرض مستقراً، وأوجد لهم المعايش واللباس. وهو ـ سبحانه ـ بعدما يبيّن لهم مجمل النعم التي لا تحصى والتي خلقها لعيشهم في الأرض، يحذرهم من غواية الشيطان، كيلا يصرفهم عن الحق والخير، ويوسوس لهم باتباع الضلال، وارتكاب المعاصي التي تميل إليها النفس البشرية، لأن النفس أمّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربي. وهو يبيّن لهم المثل الواضح على ذلك بما فعله الشيطان بأبيهم آدم، وبأمهم حواء ـ عليهما السلام ـ عندما أزلّهما ودفعهما إلى الأكل من ثمار الشجرة الوحيدة التي نهاهما ربهما عن أكلها، وقد نفذ إلى نفسيهما بأول عمل عدواني، عن طريق ملامسة الضعف البشري فيهما، عندما زعم لهما بأن تلك الشجرة هي شجرة الخلد. وانطلت الحيلة، ونجحت الكذبة الكبرى، فصدقاه، فكان في هذا الإغواء ـ وسببه الكذب والفتنة ـ إخراجهما من الجنة. وأما تلك الجنة التي أوجدهما الله تعالى فيها، فلا ندري عنها شيئاً، وقطعاً ليست هي جنة الآخرة التي يعدنا بها الله تعالى. لأن جنة الآخرة هي المستقر الأخير حيث لا ضلال فيها، ولا غواية، ولا فتنة، ولا دافع لأي التواء أو

(١) الأعراف: ٢٧.

انحراف، كما يحصل في حياتنا هنا على هذه الأرض.. إننا نعلم أن الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ قبل أن يهبطا منها، هي مكان من أماكن الله تعالى، في ناحية من نواحي هذا الكون، ولكنه ذلك المكان الآمن، الظليل، المليء بالخيرات والثمرات. وقد جعلهما الله تعالى يعيشان فيه حتى يحين اختبارهما، وتتحقق المشيئة الإلهية بهبوطهما إلى الأرض ليكون هذا الوجود الإنساني. أما أن النص القرآني نسب الإخراج للشيطان، فمعناه أنه كان بسببه، أي أنه بسبب إغوائه أُخرج أبوانا ـ عليهما السلام ـ من تلك الجنة التي عاشا فيها ردحاً من الزمن لا يعلم مدّته إلا الله تعالى.

وأما قوله: ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ فهو أيضاً التعبير المجازي الذي يصور الحالة التي وقع فيها آدم عليه السلام وزوجه عند تلك الفتنة. فقد كانت الأحاسيس والمشاعر والميول، وكل ما يدخل في النفس الإنسانية، في حالة الكمون الداخلي. حتى إذا وقعت التجربة التي كان لا بد من وقوعها، تفتحت تلك الكوامن في نفسيهما، فانتزعت ذلك الغطاء الذي كان يغطيها، والذي يشبهه النص القرآني باللباس حتى تكون له الصورة الحسية المؤثرة. وظهرت عندها في نفسيهما النزعة الإنسانية، فكان الخجل والحياء، وهما من آداب النفس الإنسانية، وكان اندفاعهما إلى تغطية سوآتهما، أي أعضاء التناسل، بحيث لم يعد أحدهما يهتم إلاَّ بستر السوءة أو العورة، حفاظاً على مكرمته الإنسانية.. أي أن فتنة الشيطان كانت هي أيضاً وراء تبدل المشاعر الصافية الخالصة التي كانت في نفسيهما، بمشاعر الرغبة والشهوة، بما يوحي بأن أثر الشيطان دائماً يتمثل في إبعاد الإنسان عن القيم الرفيعة، والمضامين العالية، والتوجهات السامية..

كل ذلك كان تحذيراً من الله العزيز القدير لبني آدم كي يتقوا فتنة الشيطان ويدرأوا غوايته. وذلك أن هذا الشيطان ومن اتبعه من شياطين الجن والإنس، يؤلفون جميعاً قبيلاً واحداً. . فيحذر الله سبحانه من شياطين الجن الخفي، الذي لا يرى، وينبّه بأنهم يلاحقون بني آدم، من كل حدْب وصوب، يقعدون لهم في كل مكان، ويتصدون لهم في كل وقت، والناس غافلون، لا يرونهم، ولا يقدرون على معاينة شرورهم وسيئاتهم. . قال ابن عباس: إن الله تعالى جعلهم (الشياطين) يجرون من بني آدم مجرى الدم في عروقه، فجعلوا من صدور بني آدم مساكن لهم كما قال تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾. فهم يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم. وهذا أخطر على حياة بني آدم، لأنهم لو كانوا يرونهم، لكانوا درأوا عنهم أخطارهم. وذلك كما قال قتادة: «والله إن عدواً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤونة إلا من عصم الله». وهذا صحيح لأننا إذا كنا لا نراهم فكيف لنا أن نعرف قصدهم لنا بالكيد والإغواء، والطرائق أو الأساليب التي يستخدمونها لذلك، فينبغي أن نكون على حذر فيما نجده في أنفسنا من الوساوس خيفة أن يكون ذلك من الشيطان، وأغلب الوساوس هي من الشيطان بلا ريب. .

﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾. . أي إنا حكمنا ـ وحكم الله تعالى عادل وحق ـ بذلك، بأن يكون الشياطين أنصاراً للكافرين، والفاسقين، والظالمين، والفاسدين، والناكرين الخ. . . لأنهم يتناصرون على أداء المهمة التي أخذها الشيطانُ على نفسه، عندما عاهَدَ الله تعالى بأن يغويَ أبناء آدم ـ ممن يقدر على إغوائهم ـ حتى لا يذر أحداً بلا غواية أو زلل. . . وإنما خصَّ ﴿الذين لا يؤمنون﴾ تنبيهاً إلى أن الشياطين مع اجتهادهم في الإغواء لا يتمكنون

من خيار المؤمنين، المتيقظين، ومن الذين عصمهم الله تعالى. . وإنما هم يتمكنون من غير المؤمنين من بني آدم باتخاذهم أعواناً لهم، أو مطايا لنفث سمومهم وأحقادهم على كل واحد من الناس، لأنهم من نسل آدم الذي نصبَ له إبليس اللعين العداء منذ أمَره ربُّ العالمين بالسجود له، تكريماً وتشريفاً لخلقه السوي، فعصَى إبليس ربَّهُ وشنَّ تلك الحرب العدائية، المدمرة على بني آدم جميعاً، إلى يوم الساعة.

وتأتي غواية الشيطان للإنسان عن طرقٍ كثيرةٍ أهمها الوسوسة والمسّ.

وسوسة الشيطان

وردت كلمة الوسوسة ومشتقاتها في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وهي: قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[١]، وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[٣]، وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[٤]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[٥].

يقول سيد قطب عن وسوسة الشيطان:

---

(١) الأعراف: ٢٠.
(٢) طه: ١٢٠.
(٣) ق: ١٦.
(٤) الناس: ٤.
(٥) الناس: ٥.

«وسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم، لأننا لم ندرِ كُنْهَ الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بـالإنسان وكيفيـة إغوائه. ولكننا نعلم ـ بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب ـ أنَّ إغواءه على الشرِّ يقع في صورةٍ من الصور، وإيحاءه بارتكاب المحظور يتمُّ في هيئةٍ من الهيئات. وأنَّ هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقطِ الضعف الفطرية في الإنسان. وأنَّ هذا الضعف يُمْكِنُ اتقاؤه بالإيمان والذكر، حتى لا يكونَ للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، ولا يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير».

مس الشيطان

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1]. ومعنى هذا أن مسَّ الشيطان يعمي ويطمس ويغلق البصيرة. ولكن تقوى الله تعالى وخشيتـه وتذكّر غضبه وعقابه.. كل هذه تجعل قلوب المتقين متصلة بالله تعالى، وتوقظها من الغفلة عن هداه، فتذكره دائماً وخاصة وقت الضيق. ومس الشيطان، هو مما يضيّق كثيراً على قلوب المتقين المؤمنين فيلجأون إلى ربهم، ويتذكرون ارتباطهم به، فإذا تذكـروا تفتحت بصائـرهم، وتكشفت الغشاوة عن عيونهم، فإذا هم مبصرون للهدى والحق. وليس أعظم تأثيراً من الهدى والحق في إبعاد مسّ الشيطان ونزغه عنهم.. هـذه هي الحقيقة: إن مس الشيطان عمى، وإن تذكر الله إبصار. إن مسَّ الشيطانِ ظلمةٌ، وإن التوجّه إلى الله نور. إن مس الشيطان تجلوه التقوى وتبعده، فما للشيطان على المتقين من سلطان.

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

وعلى هذا المنهاج من الهداية والتربية للنفس البشرية يقول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[1].

هذا توجيه للرسول ﷺ ولجميع أمته من بعده، وللناس كافة، أن يدعو الإنسان رَبَّهُ ويستعين به كي يعصمه من همزات (نزغات ووساوس) الشياطين. والشياطين كثيرون منهم أبناء إبليس بالـذات وأحفاده، ومنهم هؤلاء البشر الذين يتخلَّقون بالخلقة البشرية، وفي نفوسهم كوامن الشر والمعصية.. هؤلاء هم أتباع الشيطان وأعوانُه، وشأنهم شأنُه فيما يمس الإنسـان من ضر، ويحيق بـه من غوايـة وتضليل.. فكما يجب على الإنسان أن يستعين بالله تعالى من وساوس الشيطان، كذلك يجب عليه أن يستعين بالله من شرور هؤلاء البشر الـذين يعيثون في الأرض فسـاداً، وعملهم مقتصـرٌ على مضـايقـة الآخرين، وخاصةً المؤمنين منهم، وأذيتهم، والكيد لهم...

فالإنسان مدعوٌّ لأن يستعيـذ بالله العلي القـدير من همـزات الشياطين، ومن دعوتهم له إلى الباطل والعصيان، ومن شرورهم في كل أمر. وهم لا يحضرونه عند تلاوة القرآن، أو عند إقامة الصلاة، وإتيان الزكاة، وعمل الخير، ونصرة الحق..

الاستمرار في المعصية استسلام للشيطان

أَنَا لا ألوم الذينَ يُذنِبونَ، ولكنّي أَلُوم الذين يُصرّونَ على ذُنُوبِهِمْ ولا يتوبُونَ إلى بارِئهِمْ. ولا أَلُوم الذينَ يُكرّرونَ الذنْبَ بِدَافع ضَعْفِهِم المُركّب، وجِبِلّتِهم التي جَبَلَهُم الله عليها، ولكنّي أَلُـوم الذينَ لَا

---

(١) المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨.

يُحاولُونَ أن يتخلّصوا منْ هذه الآثام بعدَ معرفَتِهِمْ لها وخوْفِهِمْ مِنَ الله في نهايتها، وإيمانهم بمراقبة الله لأعمالهم. والسؤال الذي ينبغي أنْ يُسْأَلَ: كَيْفَ تكون المحاولة بعدَ ما وَقَعَ الإنسان في شَرَك الشّيطان، وأصبَحَ هذا العمل لديه عادةً امتزجَتْ بدمه وحياته اليوميّة؟ والجوابُ: المُنْقِذُ هو الله سُبحانَهُ وتعالى. فعليكَ أنْ تدعوَه خَوْفاً وتضرّعاً لأنَّهُ هوَ الملجأ الوحيدُ، وعليكَ أنْ تَستعمِلَ الإمكانيّات التي وهَبَكَ الله إيّاها، ومكّنكَ مِنْها، وستتغَلَّبُ بعدها بحول الله وقوّته، على قَطْع الشراك التي نَصَبَها لكَ الشيطان وأقامَها بمعونة المُغريات التي مكّنه الله منها. وسَيَثْبُت إخْلاصكَ لله عزّ وجلّ ولنفسِك أيضاً. وإيّاكَ أنْ تَيْأَس من روح الله، وترْتَميَ نهائياً في أحضان الشّيطان لأن الرجْعَة تكون صَعْبـة عليك. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾[1].

---

(١) النساء: ٣٨.



الفتنة والتجربة

أصل الفَتْن من: فَتَنَ وهو إدخال الذهب النارَ لتظهر جودته من رداءته.

والفتنة جعلت كالبلاء. وهما يستعملان فيما يُدفَع إليه من شدة أو رخاء. وهما في الشدة أظهر معنىً وأكثر استعمالاً.

وقد قال الله تعالى في الفتنة والابتلاء:

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

الوقوع في الشر أو السقوط في الفتنة هو ابتلاء. هذا ما يعرفه الناس. وعندما يبتلي الله تعالى عبداً من عباده بالشر أي بالفتنة، فقد يكون في ذلك حكمة يريدها سبحانه لاختبار هذا العبد في احتماله وصبره، ومدى ثقته بربه تعالى، ورجائه في رحمته.

أما الابتلاء بالخير أي بالفتنة أيضاً، فقد لا يعرف الناس أنه قد يكون أشدّ وطأة من الابتلاء بالشر. فقد يصبر كثيرون على الابتلاء

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

بالمرض أو بالفقر أو بأية مصيبة أو ضرر، ولكن قليلون هم الذين لا يسقطون في الحياة عندما تقبل عليهم الدنيا فتتوفر لهم الخيرات والبركات، لأنهم ينسون أن مصدرها هو الله تعالى، وأنه هو الذي ينعم على الناس، ويتفضل عليهم بالخير. ينسون ذلك كله، ويستغنون عن ذكر الله تعالى وشكره، ويجحدون نعمة الله عليهم، وينسبونها إلى مهارتهم، وبذلك يُسقِطون أنفسهم، وتحيط بهم الشهوات من كل جانب، يقول الله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1]. وأما المؤمنون فيلجأون إلى الله تعالى صابرين على البلاء الذي ابتلاهم الله به، ضارعين إليه تعالى أن ينقذهم مما ابتلاهم به. وبالتضرع والصبر على البلاء، يستجيب لهم الله الرحيم وينقذهم برحمته ويثيبهم على صبرهم في السراء والضراء حين البلاء. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عجباً لأمر المؤمن فإنَّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

الفتنة عن الدين

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[2]. ويقول عز وجل: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[3].

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية. ومن ثم فهي أشد من القتل، أشد من قتل النفس وإعدام الحياة. والفتنة تكون إما بالتهديد والأذى الفعلي، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن دين الله تعالى، وتزين

---

(١) التوبة: ٤٩.
(٢) البقرة: ١٩١.
(٣) البقرة: ١٩٣.

لهم الكفر والإلحاد، أو الارتماء في أحضان مناهج بشرية لا تقيم أي اعتبار أو وزن للوجود الإنساني، كما هو شائع الآن في مختلف أقطار الأرض، حيث تباح الأمور التي تضرّ الإنسان في نفسه وجسده، مثل إباحة الخمر والزنى، والاحتكار، والاعتقالات العدوانية تحت اسم السياسة، وسلب الحريات والحقوق بحجة المحافظة على النظام، وما إلى ذلك من أمور قبيحة بحدِّ ذاتها، بالإضافة إلى أنها مخالفة للأخلاق، ولمنهج الله تعالى.

أما النظرة الإسلامية فهي على خلاف ذلك تماماً. إنها تنطلق من نظرة الإسلام إلى غاية الوجود الإنساني. وأهم ما في هذه الغاية هي عبادة الله تعالى التي تحتوي في مضامينها كل عمل خير يتجه به صاحبه إلى الله تعالى، وإلى بني البشر، أفراداً أو جماعات. هذا معنى العبادة في الإسلام، وليس فقط إقامة الشعائر الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج... فالعبادة في الإسلام دينٌ ودنيا. فهي دين بما تمثل من إيمان مطلق بالألوهية المطلقة، والربوبية المطلقة لله تعالى، وما تفترض الألوهية والربوبية على العبد من طاعات وتقديس للإله الواحد الأحد، رب العالمين. وهي دنيا بما تفرض على الإنسان من التخلق بالأخلاق الفاضلة، والآداب الرفيعة، ومن القيام بكل عمل خير والابتعاد عن كل عمل شر، أي بما ينفع الإنسان نفسه وغيره من المخلوقات...

ومن هنا كانت العقيدة حقاً مقدساً للإنسان لا يجوز أن يُسلب منه بالفتنة، سواء كانت الفتنة مباشرة أو بالواسطة. ولذلك قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أي اقتلوا الذين يمنعونكم عن دينكم، ويحاولون القضاء على هذا الدين، والذين يحاولون حرمانكم من ممارسة حقكم في الاعتقاد. واقتلوهم حيث

وجدتموهم، وفي أية حالة كانوا عليها، وبأية وسيلة تملكونها، مع مراعاة أدب الإسلام في عدم الغدر وعدم التمثيل بهم بعد قتلهم.

وإذا كانت النصوص القرآنية تواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة، الذين خاضوا حرباً شعواء ضد المسلمين لكي يفتنوهم عن دينهم، والذين كانوا يجاهدون بكل قواهم، وبكل ما يملكون لكي لا يكون الدين لله تعالى.. بالرغم من ذلك فإن هذه النصوص عامة الدلالة، مستمرة التوجيه. والجهاد عند المسلمين يجب أن يمضي إلى يوم القيامة، طالما أنه في كل يوم تقوم قوة ظالمة غاشمة تحاول أن تفتنهم عن دينهم بالمغريات والمتع واللذائذ، وطالما أنَّ قوى ظاهرة وخفيّة تدرس وتخطط لتصدّ الناس عن الدين، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله العلي القدير، والاستجابة لها عند الاقتناع، والاحتفاظ بها في أمان. ولذلك كانت الجماعة المسلمة مكلفة في كل حين بأن تحطم القوى الظالمة تلك، وأن تحول دون الفساد في الأرض، حتى يكون الطريق واضحاً أمام الناس، فيختارون نتيجة قناعاتهم ويهتدون إلى الدين القيّم، وإلى طاعة خالقهم، فيقومون بأعمال البر والخير، فيكون الصلاح والفلاح لجميع الذين امتثلوا لأمر الله تعالى. ويحذّر الله تعالى المؤمنين من انتشار الفتنة، فلا تعود قاصرة على الظالمين وحدهم بل تصيب أبناء المجتمع كافة. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

والفتنة هي الابتلاء أو البلاء. فإذا جاء هذا البلاء من الظالمين، الطغاة، المفسدين، فإنه يعمُّ المجتمع وتلحق آثارُه الناسَ جميعاً. والجماعة التي تسكت عن الظلم، في أي صورة من صوره ـ وأظلم

---

(١) الأنفال: ٢٥.

الظلم نبذ شريعة الله تعالى ومنهجه في الحياة ـ ولا تقف في وجه الظالمين، ولا تقاوم المفسدين، هذه الجماعة تؤخذ جميعها بجريرة الظالمين المفسدين. وكم من مجتمعٍ اليوم يعمُّه الظلم والفساد، والجماعة فيه خانعة، ذليلة، غير عابئة بما يجري، فترى أحوال هذا المجتمع فاسدة، وأوضاعه مترجرجة، لا أمان ولا استقرار، ولا راحة ولا اطمئنان في أرجائه.. بحيث يصيب الظلم والفسادُ الجميعَ فيه بلا استثناء حتى الفئة الظالمة التي اتبعت الفتنة، فإنها تصاب بالبلاء الذي صنعته من حيث لا تدري.. فالجميع إذن يؤخذ بجريرة هذه الفئة ويستفحل البلاء، ويعم الابتلاء.. هذه هي الفتنة التي يحذر الله تعالى منها. ولذلك كان الإسلام منهجاً تكافلياً إيجابياً لا يسمح بالسكوت عن فتنةٍ ضررها عام وشامل. بل إنه لا يسمح بأية فتنة. ولا يسمح بالتالي بالظلم والفساد والمنكر يشيع في النفوس وفي التعامل. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ بل تصيبكم جميعاً، فاتقوا فتنةً من هذا القبيل، واحذروا شرورها، وقاوموها أشد المقاومة، حتى لا تكون عليكم أيها الناس أشد من القتل، على رغم بشاعته وكراهيته..

وأسباب الفتنة متنوعة ومتشعبة، حتى أن الأموال والأولاد قد يكونون فتنة للمؤمنين. وينبهنا الله تعالى بأن نَعِيَ ذلك، وأن نتخلى عن أسباب الفتنة ونبتغي الأجر والثواب عنده سبحانه، لأن عنده أجراً عظيماً. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(1).

هذا الخطاب موجه للمؤمنين: لا تخونوا الله والرسول.. لا

---

(1) الأنفال: ٢٧ ـ ٢٨.

تخونوا الله بترك فرائضه، وعدم الامتثال لأوامره ونواهيه. ولا تخونوا الرسول بالتخلي عن سنته.. قال الحسن بن علي عليه السلام: «من ترك شيئاً من الدين وضيَّعه فقد خان الله ورسوله. ومن خان الله ورسوله فقد خان الأمانة، وأنتم تعلمون ما في الخيانة من ذم وعقاب».

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾.

إن الله تعالى يعلم مواطن الضعف عند الإنسان. ويعلم أن الحرص على الأموال والأولاد من أعمق مواطن ضعف هذا الإنسان. ومن هنا ينبههم العلي المعطي إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد. هذه الهبة التي قد يكون فيها ابتلاء وفتنة. فهي هبة للامتحان والابتلاء ليرى فيها الله تعالى صنيع العبد وتصرفه.. أيشكر عليها ويؤدي حق النعمة فيها؟ أم يشغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها؟ فالفتنة لا تكون بالفقر والحرمان وحدهما. إنها كذلك تكون بالغنى والعطاء. ومن الغنى والعطاء الأموال والأولاد.

والأموال والأولاد فيهما اختبار ليتبين الراضي بحظّه منهما ممن لا يرضى به. وإن الله تعالى أعلم بالناس من أنفسهم. ولكنه يحذر وينبه الناس، حتى تتبين أعمالهم التي تستحق الثواب والعقاب. وإلى هذا أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «لا يقولنَّ أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مُضلات الفتنة».

ومثل هذا التحذير يأتي في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١).

(١) التغابن: ١٤ ـ ١٥.

ويمكن أن يستفاد من هذه النصوص القرآنية أن الأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله تعالى. كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الفرائض، وفي تبعات الدعوة اتقاء للمتاعب التي ستحيط بهم لو قام الداعية إلى الله، أو المجاهد في سبيل الله بواجبه: كالإنفاق أو القتال أو أي أمر آخر.. فربما في مثل هذه الحالات قد يبخل الإنسان ويجبن ليوفر لعياله الأمن والمال، فيكون العيال في هذه الأحوال عدواً له، لأن حبه لهم، وحرصه عليهم صدّاه عن الخير، ومنعاه من تحقيق مثله الأعلى الذي هو رضوان الله تعالى..

كما أن الأزواج والأولاد قد يقفون للمؤمن أو للداعية في الطريق، فيمنعونه عن النهوض بواجبه اتقاءً لما قد يصيبهم من جرائه من أذى أو تعب، أو لأنهم يسلكون طريقاً غير طريقه، ويعجز المؤمن حينئذٍ عن مقاومتهم، لحبه لهم أو لتفوقهم عليه.. هذه هي صور من العداوة متفاوتة الدرجات. وهذه الصور وغيرها تمرّ في حياة المؤمن في كل آن.

ولذلك اقتضت هذه الأحوال المعقدة المتشابكة، التحذير من الله تعالى، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، ليتحملوا ضغط المؤثرات عليهم، فلا يضعف المؤمنون حيالها ضعفاً يجعل الأزواج والأولاد عدواً أو فتنة لهم. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهب الأموال والأولاد، وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلي على فتنتهما. فلا يقعدنَّ أحد بعد هذا التحذير عن تكاليف الدين، وعن توجيه رب العالمين.

وغالباً ما تأتي الفتنة من نفس الإنسان إذا انحرفت عن الهدى، وأصلُّها الكبر والاستعلاء، بحيث يردّ الإنسان في هذه الحالة كل أمر أو

كل شيء إلى علمه وعمله. ويحذر الله تعالى من هذا الرد والادعاء الفارغ فيقول عز وجل: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

في كل مرة يصاب الإنسان بشدة من مرض أو همٍّ أو عبء... لا يجدُ غير الله تعالى ملاذاً له، فيستغيث به، مُسلِّماً أمره إليه، راجياً أن يكشف عنه الضر الذي أصابه.. ولكن هذا الاستسلام، وهذا التوجه لله تعالى سرعان ما يتبدّد أثرهما، إذا ما استجاب الله تعالى لذاك الداعي أو المرتجي الذي ضعف الإيمان في قلبه. وسرعان ما ينسى مثل هذا العبد نعمة الله تعالى عليه ويقول: إن ما عندي من أموال وأرزاق، وما بي من صحة وعافية.. كل ذلك إنما أوتيته بفضل علمي ومهارتي، وصبري وحيلتي، وشغلي الدائم... وقد يقول في بعض الأحيان: إن نيتي طيبة وأنا مخلص فقد منحني الله تعالى هذه النعم على نواياي لأنَّ الربَّ ربُّ نوايا، ولذلك أعطاني ما أعطاني..

ألا إن كل تلك المقولات إن هي إلا من مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما حازه من مال أو سلطان، من أمثال قارون الذي خسف به الله تعالى وبداره الأرض عندما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[2]. وأمثال قارون في كل زمان ومكان كثيرون. هؤلاء الذين يغفلون عن الحقيقة المطلقة ألا وهي أن الله تعالى هو مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومسبب الأسباب، ومقدر الأرزاق.

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

---

(١) الزمر: ٤٩. (٢) القصص: ٧٨.

إن الفقر كما النعمة، وإن العافية كما الضر.. كلها بلاء للاختبار والامتحان. فالمؤمن يكون صابراً على الضر، شاكراً على النعمة. والجاحد سيَّان عنده الضر أو النعمة فهو قد ضلَّ عن هدى الله تعالى، فلا معنى عنده للاختبار والامتحان، ولا يفهم الطريق الصحيح للصلاح أو الفساد.. وإن أكثر الناس لا يعلمون أن النعمة هي ابتلاء، وأن النعم كلها من الله تعالى، وأن العبد دوره مقتصر فقط على السعي إليها وحيازتها. ومهما يكن من أمر الإنسان، فإن عليه أن يعرف دائماً بأن هذه الحياة الدنيا إنما هي دار فتنة وابتلاء، ليكون مدى الاختبار واسعاً وشديداً على هذا الإنسان، فينجح أو يسقط. وتبقى مشيئة الله تعالى هي المشيئة المطلقة في كل أمر وفي كل شأن، وفي كل حال.
ونبي الله موسى عليه السلام نراه يرجو ربه تعالى، ويدعوه بتضرع وخفْيَة أن يكشف عن قومه غضبه وسخطه، وأن يرد عنهم فتنته، وألا يهلكهم بفعلة السفهاء منهم، فيخاطب ربهُ تعالى بهذه اللغة القرآنية الرفيعة: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾(1). ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي أن هذه الشدة وهذا البلاء إن هما إلا اختبار لنا، ومحنة تفرض علينا أن نصبر على ما أنزلته بنا مما نستحق بفعل تلك الفئة من السفهاء الذين فعلوا ما فعلوا خلافاً لأمر الله، وابتعاداً عن رحمته تعالى.

﴿تضل بها من تشاء﴾ ممن لا يصبرون على البلاء، ولا يرضون بالنعماء، فيتخلون عن سبل ثوابك، ودخول جنتك. ﴿وتهدي من تشاء﴾ بالرضا بها والصبر عليها. أنت ناصرنا، فاغفر لنا وارحمنا واستر علينا وأنت خير الساترين على عباده.

---

(1) الأعراف: ١٥٥.

هذا هو الشأن في كل فتنة: أن يهدي الله تعالى بها من يدركون طبيعتها ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين صابرين. وأن يضل بها من لا يدركون هذه الحقيقة ويمرون بها غافلين منحرفين، أو يخرجون منها ضالين خاسرين..

الإغـــواء والإغـــراء

الغـيُّ هو الشـر والضلال. وهو ناجـمٌ عن اعتقادٍ فاسد، باعتبار أن الاعتقاد يكون أحياناً صالحاً غير فاسد. قال الله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1].

إنه بيان وتأكيد للمشركين أنَّ الوحيَ الـذي يتلقاه صـاحبهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو صدق وحق. فما ضلَّ صاحبكم أيها المشركون كما تتقوَّلون عليه، وما غوى كما تتهمون. فصاحبكم راشدٌ غير ضال. مهتد غير غاوٍ. مخلص غير مغرض. إنه يبلغ الحق كما يوحى إليه من الحق غير واهم، ولا مدعٍ، ولا مبتدع، ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة. فهو إذن عالم بما يقول، وغير جاهل بحقيقة عبء الدعوة التي يدعوكم إليها.

قـال الله تعـالى: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[2]. وإخوانهم الذين يمدونهم بالعقائد الفاسدة والدعوات الجاهلية هم

---

(١) النجم: ٢.

(٢) الأعراف: ٢٠٢.

شياطين الجن، والشياطين من الناس، الذين يزيدونهم في الضلال، لا يكلّون، ولا يسأمون ولا يسكنون، لأن في نفوسهم الغي والفساد يقودانهم إلى تجهيل الآخرين، ليظلوا فيما هم فيه سادرين.

وأما عن أثر الغي ونتيجته فيقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1]؛ فالذين يتركون الدين، ويبعدون عن توجيه الله تعالى سوف يكون همّهم الإغواء والإغراء وعاقبتهم الضياع والهلاك.

ـ الإغراء معناه تسليط بعض الناس على بعض.. ومنه القول: غريت بالرجل غِرىً: إذا ألصقت به..

والأصل في الإغراء اللصوق. ومنه الغِراء الذي تلصق به الأشياء.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2].

لقد أخذ الله تعالى على الذين قالوا إنهم نصارى ميثاقاً. وهذا الميثاق هو توحيد الله. ولكنهم نسوا هذا الميثاق فجاء القرآن الكريم يذكرهم به، ولكنهم لم يأبهوا، وكان لهم حَظٌّ في النجاة لو أنهم عادوا إلى ميثاق الله الذي أخذه عليهم ولكنهم لم يفعلوا. وبسبب تخليهم عن هذا الميثاق ونسيانهم له وقعوا في شتى الخلافات حول العقائد والأمور الدينية وانقادوا وراء مصالحهم السياسية والاقتصادية مما شدَّد العداوة والبغضاء فيما بينهم، وستظل كذلك في نفوسهم إلى يوم القيامة.

---

(١) مريم: ٥٩.
(٢) المائدة: ١٤.

ويشهد تاريخ النصرانية أنهم عندما تخلوا عن كثير مما أمروا به، تفرقوا شيعاً متعددة، وانقسموا فرقاً مختلفة في العقيدة، فقالت اليعقوبية: إن الله هو المسيح بن مريم. وقالت النسطورية إن عيسى ابن الله. وقالت الملكائية إن الله ثالث ثلاثة..

ولقد وقع بين النصارى من الخلاف والتفرقة والعداوة والبغضاء، والقتال والاقتتال ما لا يحصى في التاريخ القديم والحديث، حين ضلوا عن العقيدة الصحيحة، وما تزال خلافاتهم ماضية إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(١) أي وألصقنا في قلوبهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

وقال الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾(٢).

لقد صارت الدولة الإسلامية في المدينة، بعد إجلاء بني قريظة عنها، قوية منيعة. ومع ذلك فقد بقي المنافقون على نفاقهم، وذوو القلوب المريضة على مرضهم، والمرجفون على إرجافهم.. وكلهم ينافقون، ويحيكون الدسائس، ويبثّون الفتن والشائعات المغرضة.. لذلك جاءهم التهديد من رب العالمين إن لم ينتهوا ويكفوا عما هم فيه، ليسلّطنّ رسولَهُ ﷺ عليهم، فيؤدبهم بما ينفثون، وينزل بهم من العقوبات ما يستحقون.

فتنة المؤمن

وهكذا يتبين لنا أنه قد يمرّ على الإنسان حينٌ، فيه يتخلى الله تعالى عنه، ليَضَعَهُ في الفتنة، بعدَ أنْ يكون قد قدّم له البراهينَ والأدلّةَ

---

(١) المائدة: ١٤. (٢) الأحزاب: ٦٠.

الواضحةَ. . هنا يظهر ضعفُ الإنسان وسيطرة شهوته عليه، فيحاول أنْ يُكافِحَ، ولكن بدون جدوى.

فإذا كانَ الإنسانُ مؤمناً حقّاً، ندم أشدّ الندم، وربما أخذَ بالبكاء كما يبكي الطفلُ مِنْ فرطِ نَدَمِهِ، بينما تراهُ في الملمات القاسيات ثابتاً كالجبل لا يتزعزع، ولكنّهُ بعدَ البكاء المرّ والندم الشديد والاستغفار المقلقل (أيْ غير الثابت) يأخذ على نفسه بعزمٍ وتصميمٍ أنّهُ لنْ يعودَ للوقوع في الفتنة، فيبدأ بوضع وسائل الدفاع التي أمَرهُ الله تعالى بها. ولكنْ إذا ما بقيَ في النفس شيءٌ من الشهوة لهذا النوع من العمل الذي قامَ به سابقاً، فترى جميعَ الوسائل التي صَنَعَ منها جهازاً قوياً للدفاع تبدأ بالانهيار تدريجياً أمام البقيّةِ الباقية مِنَ الشهوة الكامنة في النَّفس.

والعون النهائيّ لهذا المؤمن يكون من الله سبحانه وتعالى، إذا أدركَ سبب الفتنة وعملَ للقضاء عليه، أو الخلاص منه، ومن ثمّ رأى أنّ ما قام به لا يساوي شيئاً بالنسبة للابتلاء الذي لم يستطع بمحاولته التخلص منه. أو بالنسبة إلى الشيء أو الأمر نفسه. ثم بعد ذلك، يحاول انتزاعَ الشهوة من نفسِه المؤمنة الحيرى، ولكنّ التوفيق لا يُواكِبُهُ إلّا إذا باشرَ بإبعادِ نفسِه عنْ ذلك الشيء المُشتهى، ليبرهنَ، أمامَ الله وأمامَ نفسه، أنّهُ مؤمنٌ حقّاً، أو إذا أعانه الله سبحانه بلطفه بأن يُميت هذه الشهوةَ في النفس، أوْ يُعطّلَها بمرض أو غيره، أوْ يبعد الله تعالى هذا المُشتهى عنه فيكونُ بذلك الفضل لله وحده. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾

---

(١) النساء: ٢٨.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

ونحن في عالمنا الإسلامي نُشاهد، عندَ كثيرٍ مِنَ المسلمينَ، ظهور أعمالٍ تخالف عقيدَتَهمُ الإسلاميّةَ، ونشاهدُ، عند كثيرٍ من الشخصيّات الإسلاميّة، سلوكاً يتناقضُ معَ الشخصيّة الإسلاميّةِ، فيظنّ البعضُ أنّ ما صدَرَ من أعمالٍ تخالفُ العقيدةَ الإسلاميّةَ قدْ أخْرجَتِ الشّخصَ عن الإسلام، وأن ما برَزَ منْ سلوكٍ يتناقضُ معَ صفاتِ المسلم المتمسِّك بدينِهِ يُخرجُ الشخْصَ عن كونه شخصيةً إسلاميّةً. والحقيقةُ أنّ وجودَ ثغراتٍ في سلوك المسلم لا يُخْرِجُهُ عنِ الإسلام. ذلك أنّهُ قدْ يغفلُ الإنسانُ فيُغْفِلُ ربطَ مفاهيمِه بعقيدته، وقد يجهلُ تناقُضَ هذه المفاهيم معَ عقيدته، أوْ مَعَ كونه شخصيّةً إسلاميّةً، وقد يطغى الشيطانُ على قلبه فيُجافي هذه العقيدةَ في عَمَلٍ مِنَ الأعمال، وبرغم ذلك لا يصحّ أنْ يُقالَ: إنَّهُ في مثل هذه الحال خرجَ عن الإسلام، أو أصبح شخصيةً غير إسلاميّة، لأنَّ العقيدة في الأساس هي التي تصونه، فهوَ مسلمٌ وإنْ عصى في عملٍ منَ الأعمال. وما دامت العقيدةُ الإسلاميةُ أساساً لتفكيره وميولِهِ، فإنه يبقى شخصيّةً إسلاميّةً، وإن فسق في سلوكٍ معيّنٍ من أنواع السلوك السوي.

ولا يخرجُ المسلمُ عن الإسلام إلا بترك العقيدة الإسلامية قولاً وعملاً، فإذا طرأ خَلَلٌ على عقيدته، وهي ما انعقد عليه قلبه أصلاً، خرجَ الشخصُ عن الإسلام بهذه الحال فقط، ولو كانت أعمالهُ مبنيّة على أحكام الإسلام، لأنها لا تكونُ حينئذٍ مبنيّةً على الاعتقاد، بل على العادة، أو على مجاراة النّاس، لأن الأساس هو ما في داخل النفس، وليس ما يظهر من المسلم من أقوال وأفعال فقط.

---

(١) العنكبوت: ٢ ـ ٣.



غفران الذنوب

قد يعاني الإنسان من مشكلة تقضّ عليه المضاجع، وتستحث في نفسه الآلام، ولكن ما إن يُفضي بها إلى شخص يثق به حتى يحسَّ بنوع من الارتياح، ويذهب عنه، ولو بعض الشيء، ذاك التوتر الذي كان يسيطر عليه. «وعلم النفس» يتّبع «التداعي الحر» ـ كما تقول نظرية التحليل النفسي ـ كوسيلة علاجية، إذ إن المريض يسرح مع تصوراته وتخيلاته، وقد يفضي بما لديه من مكنونات في النفس، مما يساعد على معالجته. وفي بعض المعتقدات الدينية هنالك «الاعتراف» حيث يسرُّ الشخص لرجل الدين بالخطيئة التي ارتكب أو الذنب الذي اقترف، وهذا يعني أن هذا الشخص قد نقل جزءاً من التبعة التي يحس بها، ووضعها على عاتق رجل الدين كي يطلب له الغفران من خالقه، على أن يتوب هو فلا يعود إلى الخطيئة ثانية. وكثير من الأفراد قد يلجأ بعد ارتكاب الجريمة إلى تسليم نفسه للسلطات الأمنية أو القضائية، وذلك بدافع داخلي، حيث يذهب ويعترف بجريمته. والدافع إلى هذا التصرف هو عدم قدرته على الاحتمال في إخفاء سره الجرمي، وذلك بسبب ما يعاني من قلق، ووخز ضمير، وأرق وخوف . .

والإسلام يأخذ بيد الإنسان في حالات قوته وضعفه. ويرى فيه مخلوقاً يعمل السيئة كما يعمل الحسنة، فهو لا يني يخطىء، ولا يني يحاول تلافي الخطأ. ولذلك يعده الإسلام بتكفير السيئات إن هو تابَ والتجأ إلى الله تعالى. ومثل هذا التكفير بالنسبة للإنسان جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره. والإسلام يجعل الصلة ما بين العبد وربه صلة مباشرةً، فهو يراعي مشاعره الإنسانية، ويتعاطف مع حالات الضعف التي تطرأ على نفسه البشرية. وميزة الإسلام أنه يسهل دائماً الطريق أمام الإنسان للخلاص من حالات الضعف، كما يدله على أهون السبل لاغتنام الفرصة والالتجاء إلى ربه الذي يقدر وحده ـ تعالى ـ على غفران الذنوب جميعاً. يقول تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]. وهذا من لطيف فضل الله تعالى، وبليغ كرمه، وجزيل منته، على عباده المؤمنين، فهو يناديهم بأن لا ييأسوا من رحمته، التي لا ييأس منها إلا القوم الكافرون.. وهذه الرحمة الواسعة تكون لهم مخرجاً من نزغ الشيطان.

إنه بابٌ واسعٌ للخلاص، وفيه حسن الظن للمؤمن بنفسه فلا تهدر أصالتها نهائياً، وفيه رجاء للمجرم حتى لا يظل منغمساً في حمأة الجريمة وظلامها.

وفي واقع الحياة الإنسانية نجد التسامح والعفو عن الإساءة من شيم الأفاضل، وذوي المكارم في الأخلاق. فكثيراً ما يسيء الإنسانُ إلى غيره فيذهب إليه طالباً الصفح عن إساءته. بل وكثيراً ما يلجأ الإنسان الأضعف إلى جميع وسائل الرجاء والاعتذار والتذلل حتى يقبل

---

(١) الزمر: ٥٣.

الأقوى باعتذاره والعفو عنه. ولكن عفو الإنسان يبقى زهيداً وحقيراً تجاه عفو الله تعالى. إذ إنه سبحانه لا يعفو عمن يذكره ويستغفره فحسب، بل ويتفضَّل عليه بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، وجنات تجري من تحتها الأنهار، ونعم أجر العاملين. هكذا يوجِّهُ الإسلام هذا الإنسان، وهو يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة، وبجانب النزوة والشهوة، والطمع والرغبة، وعياً وخوفاً من الله تعالى. فهو ـ سبحانه ـ يعطف عليه في حالة الضعف ليأخذ بيده إلى الطريق السوي، ويحنو عليه في ساعة العثرة ليشدَّ به إلى مواضع الخلاص، شَرْطَ أن لا تنطفىء شعلة الإيمان في قلب هذا الإنسان، وأن لا تنقطع صلته بربه، في الذكر والاستغفار وطلب العفو والمغفرة، وسوف يجد ربَّه دائماً غفوراً رحيماً ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

ولكن هنالك مقابل رحمة الله وعفوه وغفرانه لعباده، العقاب الشديد.. فلا يحسبنَّ أحدٌ أن الأمور هينة، سهلة، وأنه بمجرّد الاستغفار ينال العاصي المغفرة، لا! إن شرط الاستغفار والمغفرة التوبة وعدم الإصرار، بل وعدم الرجوع بتاتاً إلى المعصية بنية خالصة وقلب مؤمن، وإلَّا فإن الله تعالى شديد العقاب. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2]. إن ربك ـ يا محمد ـ ورب العالمين جميعاً، رحيم بعباده، يفتح لهم أبواب المغفرة ليدخلوها عن طريق التوبة، والاقلاع النهائي عن المعاصي. أما من يصرون على السيئة، وعلى الكفر، وعلى المعصية، فإن ربك لشديد

---

(١) النساء: ١١٠.
(٢) الرعد: ٦.

العقاب عليهم. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار».

إنه لواضح هنا كيف أن الله ـ سبحانه ـ يقدم المغفرة للناس على العقاب. وهذا ما يدعو للتأمل والتعجب من المصرّين على المعاصي، المستكبرين على الحق، كيف أنه تعالى يريد الخير للناس بينما هم يريدون الشر لأنفسهم. ولكن يبدو أن عمى البصيرة، هو الذي يطغى، فلا يتّعظون بالقرآن، ولا يعملون بوحي الرحمان، فيبقون في غيهم لاهين، وبالتالي لن يجدوا بانتظارهم غير العقاب الشديد الذي يستحقون.

ولذلك فإن على من وقع في تجربة الحياة، وقادته إلى الفحشاء، وعرف أنه قد ظلم نفسه، أن يبتعد أولاً عن السبل التي تؤدي إلى المعصية، وأن ينزع من نفسه نزغات الشيطان التي تزين له الفحشاء والمنكر، وأن يلجأ إلى الله تعالى، نادماً، تائباً، مستغفراً، فيجد عنده القبول والعفو والمغفرة. والله غفور رحيم.

الفصل الحادي عشر

الدوافع والبواعث



الدوافع والبواعث

يقال في اللّغة: دفع بمعنى حرَّك. ودفع الشيء حركه، ودفع فلاناً إلى الشيء حمله على فعله، فالدافع إذن هو المحرك.

وفي علم النفس يطلق لفظ الدوافع على القوى الانفعالية التي تحرك نشاط الإنسان وتوجهه نحو هدف معين. والدافع إما أن يرجع إلى النفس وإما أن يرجع إلى الجسم. وفي جميع الحالات فإنَّ الدوافع هي ما تنطوي عليه فطرة الإنسان من حاجات عضوية وغرائز، أو ما يتضمنه عقله من أفكار وتصورات. فإذا خضع الإنسان لدوافع الفطرة كان مسيراً بالأهواء، وإذا خضع لدوافع الأفكار والتصورات كان مسيراً بالعقل. ولذلك يفرق بين الدوافع والبواعث، فإذا رجعت أعمال الإنسان لأسباب غريزية أو حاجات عضوية سُمِّيت هذه الأسباب بالدوافع أو الحوافز، أما إذا كانت الأسباب عقلية فإنها تسمى بالبواعث. فالدوافع هي التي تحرك، والبواعث هي التي توجه، ولا يمكن للإنسان أن يتجرد منهما أبداً. وبمعنى آخر إن البواعث ما ينشأ عن العقل، والدوافع ما ينشأ عن القلب. وإذا كان بعض المؤلفين يستعمل البواعث والدوافع بمعنى واحد، فمردّ ذلك إلى أنَّ الأفكار لا

تحمل على الفعل في معظم الأحيان إلا إذا كانت مصحوبة بالانفعالات والعواطف. وهذا ما جعل البعض يستعمل أيضاً الدوافع والغرائز بمعنى واحد، ويعرّف الغرائز بأنها «قوى موروثة لا عقلانية تجبر السلوك على اتجاه معين، وهي تشكل بصورة جوهرية كل شيء يفعله الناس، ويشعرون به أو يفكرون فيه».

ولكن سرعان ما ظهر خطأ هذا الاتجاه الذي يطلق على «الدافع» أو على الفعل اسم «الغريزة»، ويعتبر كلَّ عملٍ يأتيه الإنسان صادراً عن غريزة لأنه يبعد السلوك عن الفهم الحقيقي، وبذلك فهو ـ أي هذا الاتجاه ـ موضع انتقاد واسع.

ومن الانتقادات التي وُجِّهت إلى هذا الاتّجاه ما عبّر عنه أحدهم ساخراً بقوله: «يقال إن الغرائز تجبر الإنسان على فعلٍ ما. فإذا كان المرء دائم التنقّل مع أقرانه فإن «غريزة التجمع» هي التي تدفعه. وإذا سار بمفرده فإنها «غريزة اللا اجتماع». وإذا تشاجر مع شخص آخر فإنها «غريزة المشاكسة». وإذا شعر باختلافه عن الآخرين فإنها «غريزة تحقير الذات». وإذا عبث بأنامله فإنها «غريزة تضييع الوقت».

وهكذا تمّ تفسير كل شيء بسهولةٍ ويسرٍ يدلّان على ضحالةٍ في التفكير وسطحيةٍ في الفهم.

ويمكن القول إن الدوافع بوجه عامٍ: إما أن تكون دوافع فطرية أو فسيولوجية وهي التي ترتبط بحاجات الجسم، وتدفع الإنسان إلى إشباع حاجاته العضوية كالجوع والعطش والنوم، إو إشباع غرائزه من أجل بقائه وحفظ نوعه.. وإما أن تكون دوافع نفسية وهي التي تُكْتَسَبُ إجمالاً بالتعلم وبتأثير البيئة وعواملها على حياة الإنسان.

الدوافع الفطرية

إن حكمة الخالق العظيم أودعت في الإنسان ـ بل وفي كل كائن حي ـ خصائص وميزات تجعله قادراً على تنمية وجوده وأداء وظيفته. ومن بين الخصائص الهامة التي خلقها تعالى في الكائن البشري الدوافع الفيزيولوجية التي هي ضرورية لبقاء الفرد، وبقاء الجنس البشري على حدٍّ سواء. وأهمية هذه الدوافع أنها تعمل على أداء وظائف بيولوجية هامة جداً. فهي التي تساعد على تلبية حاجات الجسم، وسدِّ ما قد يطرأ عليه من نقص كيميائي، ومقاومة ما قد يطرأ عليه من خلل أو اضطراب أو فقدان توازن، ولذلك فهي تؤدي دور المحرك لإنتاج الوظائف التي تعمل على الاحتفاظ للجسم بقدر معين من التوازن الحيوي لحفظ ذاته وبقائه. فإذا قلَّ الغذاء في الدم مثلاً، أو قل الماء في الأنسجة، أو زادت حرارة الجسم عن حدّها الطبيعي، واعتراه من جراء ذلك الإرهاق، فإنَّ تلك الدوافع تتحركُ بسرعةٍ، وتوجِّهُ الأعضاء والخلايا المعيَّنة للقيام بالنشاط اللازم لإعادة التوازن إلى الجسم.

وقد أثبتت الدراسات البيولوجية والفيزيولوجية أن في جسم الكائن البشري ميلاً طبيعياً إلى الاحتفاظ بدرجة معينة من التوازن، فإذا اختل هذا التوازن قامت الدوافع الفطرية أو الطبيعية بتحريك العناصر التي من شأنها إيجاد نشاط توافقي يعيد إلى الجسم توازنه. وقد يتم هذا النشاط التوافقي إما بصورة لا إرادية، مثل تصبب العرق في حالة ارتفاع درجة الحرارة في الجسم لدى قيامه بنشاط قوي، ويكون من شأنه خفض درجة الحرارة، أو كما يحصل مثلاً عندما تدمع العين في حال ملامسة جسم غريب لها، وتطرد الدموع هذا الجسم الغريب من

العين.. وإما أن يتم هذا النشاط التوافقي بصورةٍ إراديةٍ كأن يقدم الإنسان على تناول الطعام في حالة الجوع، أو على شرب الماء في حالة العطش، أو الإخلاد إلى النوم في حالة النعاس وهكذا...

وفكرة التوازن الحيوي هذه، التي اكتشفها العلماء حديثاً، يشير إليها القرآن الكريم في آيات كثيرة لا تتناول الإنسان فحسب، بل ومكوّنات الكون كله. ومنها مثلاً قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[1].

وعن التوازن في خلق الإنسان يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[2]. ومعنى «فعدلك» أي جعلك معتدلاً سوي الخلق. ويفهم من معنى الآية الكريمة أنَّ الإنسان في خلقه يتضمن الاعتدال والسواء بصورة شاملة لجميع تكوينه سواء في هيئته الخارجية أو في تكوينه الداخلي، ووظائفه المختلفة، أي أنه يتضمن أيضاً مفهوم التوازن الحيوي اللازم لحفظ ذات الإنسان وبقائه.

وإن مختلف الحاجات الضرورية، والغرائز جميعها لدى الإنسان، تبقى محرَّكة بالدوافع الفطرية أو الدوافع الفيزيولوجية وجميعها تعمل من أجل البقاء، وحفظ النوع. ومن قبيل ذلك الدوافع المؤثرة في الجوع، والعطش، والحرارة، والبرودة، والألم، والتنفس، والتعب، والشعور الجنسي، والتملك. ولو أخذنا مثالاً على ذلك ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[3] فإننا نجد في هذه الآية الكريمة

---

(١) الحجر: ١٩.

(٢) الانفطار: ٧.

(٣) طه: ١٢٠

دافع حب البقاء ودافع التملك وقد أثارهما الشيطان في نفس آدم عليه السلام فتحركت غريزة حب البقاء فيه ليقع في المعصية بعد إغوائه من الشيطان الرجيم. وذلك يدل على تأثير وأهمية الدوافع في حياة الإنسان، فإذا كان هذا تأثيرها في آدم عليه السلام نفسه، فكيف ببني آدم، هؤلاء البشر الضعاف الذين تؤثر في حياتهم جميع الدوافع والبواعث وتحرك انفعالات نفوسهم بشكل سريع فيسعون في الأرض جاهدين، لاهثين...

الدوافع النفسية

كثيراً ما يشعر الإنسان بدوافع مثيرة، قد تحرك بعض ميوله ورغباته للإقدام على أمور لا يرتضيها عقله، فيعمل بتوجيه هذا العقل مستبعداً تلك الأمور من حياته، مما يؤدي إلى كبت مشاعره حيالها، أو طرد الدوافع المحركة لها، فتكمن في الباطن.

ولكن قد تقوى الدوافع النفسية، في أحيان كثيرة، بحيث لا يقدر الإنسان على ضبطها، أو التحكُّم فيها، وعندها لا بد أن يظهر تأثير الدوافع بطريقة غير مقصودة تعبيراً عما يجيش في النفس. ومن قبيل ذلك ما يظهر في فلتات اللسان، كما في قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[1]. وقوله تعالى واضح يدل على انفعالات النفس التي تظهر على وجوه بعض الناس، أو تظهر في أقوالهم وذلك بصورة غير إرادية نتيجةً لقوة الدوافع الكامنة في نفوسهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أسرَّ أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها:

(١) محمد: ٢٩ ـ ٣٠.

إن خيراً فخير، وإن شراً فشر». وروي عن عثمان بن عفان (رض) أنه قال: «ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه».

الصراع بين الدوافع

كثيراً ما يشعر الإنسان بصراع نفسي تجاه أمر معين. وينتج هذا الصراع من تعارض الدوافع لديه، إذ بعضها يجذبه لهذا الأمر، بينما يدفعه بعضها الآخر عنه. ويتأتى عن ذلك شعور بالعجز والقلق والحيرة فلا يقدر الإنسان حياله على اتخاذ قرار أو موقف حاسم.

وفي حياة الإنسان أمثلة حيَّة عن هذا الصراع: فقد يشتهي أحدهم امرأة بغير طريقة شرعية، ولكن دوافعه الدينية والأخلاقية والمجتمعية تقف له بالمرصاد، مما يوقعه في الألم والحيرة.. وقد يرغب في اقتناء أو تملك شيء معين ولكن إمكانياته المالية لا تتيح له ذلك، فتسوّل له نفسه الحصول على المال بطريقة غير شرعية أو غير قانونية. وينشأ الصراع في داخله بين الحصول على المال الحرام لاقتناء ذاك الشيء الذي يرغب فيه وبين العزوف عنه.. أو قد يُدْعى المرء إلى حفلةٍ ساهرةٍ في مكان لهو ومتعة فيتردَّد بين الذهاب وعدمه لاعتبارات كثيرة أو بسبب دوافع متضادة. وقس على ذلك أموراً كثيرة تواجه الإنسان وتسبب له مثل هذا الصراع النفسي.

ويصور القرآن الكريم حالة الصراع النفسي لدى كثير من الناس الذين تتجاذبهم دعوات الشياطين للكفر والإلحاد من ناحية، ودعوات الناس المؤمنين إلى الهدى من ناحية ثانية.. يصوّرهم كيف يقعون في الحيرة والتردد. يقول الله تعالى: ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾(١).

إنها صورة حية للإنسان الحائر المتردد: فالشياطين ـ على أشكال مختلفة ـ تستهويه وتدعوه إلى الضلال، بينما أصحاب له مؤمنون يدعونه إلى الإيمان، وهو عاجز لا يقدر على اتخاذ قرار، حيران، مضطربٌ تتوزعه الأفكار والمشاعر فلا يقدر على شيء..

ويصف القرآن الكريم حالةً أخرى من الصراع النفسي لدى الناس، تلك حالة الذين يقفون مترددين بين مقاتلة المسلمين أو مقاتلة قومهم من المشركين، وفي ذلك ما فيه من حرج وحيرة لهم. يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾(٢).

إثارة الدوافع

إن الأهداف أو الحاجات التي نسعى لتحقيقها أو تلبيتها هي التي تكمن وراء الدوافع. فعندما يحدد الإنسان هدفاً معيناً فإن هذا الهدف بذاته هو الذي يثير فيه الدافع لتحقيقه، وعندما يحققه فذلك يعني إشباعاً للدافع. وغالباً ما يترافق هذا الإشباع مع مشاعر الرضا والسرور واللذة، بخلاف الفشل في تحقيق الهدف فإنه لا يؤدي إلى عدم إشباع الدافع وحسب، بل ويوجد السخط والغم والألم.. والإنسان بطبيعته يميل إلى الأشياء النافعة أو التي تبعث في نفسه مشاعر الطمأنينة والسعادة، كما يتجنب الأشياء الضارة أو التي تبعث في نفسه مشاعر الاضطراب والتعاسة. ولذلك كان الإنسان ميالاً إلى تعلم الاستجابات

---

(١) الأنعام: ٧١.
(٢) النساء: ٩٠.

أو الأفعال التي تحقق له النجاح أو المكافأة، ومجافياً للاستجابات والأفعال التي تؤدي إلى الفشل أو العقاب، كما تثبت ذلك معظم التجارب الحياتية.

وفي القرآن الكريم تبيان لدوافع المكافأة التي تتمثل بالترغيب في الثواب، كما هو الحال بترغيب المؤمنين في نعيم الجنة، وتبيان لدوافع العقاب الذي يتمثل بالترهيب من الجزاء، كما هو الحال بترهيب الكافرين والمشركين من جحيم النار. والآيات القرآنية التي ترغِّب في نعيم الجنة تبعث في نفوس المسلمين الأمل في نيل ذلك النعيم، ولذلك فهي تدفع المسلمين إلى التمسك بالتقوى، والإخلاص في أداء العبادات، وعمل كل ما يرضي الله تعالى ورسوله الكريم. وكذلك الأمر بالنسبة للآيات القرآنية التي تخوِّف من جحيم النار فإنها تصف عذاب جهنم وتبعث الرهبة في النفوس من هذا العذاب الأليم، فيدفعهم ذلك إلى الابتعاد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي وكل ما من شأنه أن يغضب الله تعالى ورسوله. وهذان الدافعان: دافع القيام بالعبادات والتكاليف وكل ما يأمر به الشرع، ودافع تجنب الذنوب والمعاصي وكل ما ينهى عنه الشرع، يجعلان المسلم في حالة استعداد تام وتهيؤ كامل للعمل بتعاليم الإسلام وفقاً لأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك وفق سلوك إيماني قويم، ومنهاج للحياة أصيل.

وعظمة القرآن الكريم هنا تكمن في إثارة دوافع الترغيب والترهيب معاً، لأن استخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرهبة على الأنفس فتعيش في الخوف والقلق واليأس من رحمة ربها، ولأن استخدام الترغيب وحده قد يؤدي إلى سيطرة الأمل برحمة الله تعالى

على الأنفس فتركن إلى الدعة والاطمئنان والغفلة، متمنية على الله ما ليس لها. وبهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له».

وبعض الآيات القرآنية الكريمة يدل على الترغيب ويثير لدى المؤمنين الدافع إلى العمل للفوز بالنعيم، كما يدل أيضاً على الترهيب بما يثير في النفس من رهبة العذاب الذي سيلحق بالكافرين. قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٞ لِّلْأَبْرَارِ﴾[1].

ومن العوامل التي تساعد أيضاً على إثارة الدوافع ما يحصل من أحداث هامة تهز ضمائر الناس وتثير اهتماماتهم. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في الآيات التي كانت تتنزّل لتعليم المسلمين وتلقينهم الدروس والعبر المفيدة في التفكير والسلوك بعد أن تثير في أنفسهم دوافع الشعور بالمسؤولية، وتحمُّل الأعباء التي تستلزمها الدعوة غير متخاذلين، ولا مطمئنين إلى بعض التصورات التي لا تتوافق مع وقائع الحياة، ومشيئة الله تعالى المطلقة. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في غزوتي أحد وحنين. ففي «أحد» أرادَ الله تعالى تعليم المسلمين عظاتٍ هامة أبرزها الامتثال لطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما يصدر من أوامر وما ينهى عن أعمال، وأن النصر لا يكون إلَّا بأسباب، كما وأن الهزيمة لا تكون إلا بأسباب، فإن هيأ المسلمون كل أسباب النصر فعليهم تركُ النتائج

---

(١) آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٨.

فيما بعد إلى الله تعالى الذي بيده الأمر وهو ينصر من يشاء ويخذل من يشاء. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وفي «حنين» كذلك أراد الله تعالى أن يثبِّت في الأنفس أنَّ الكثرة وحدها لا تُفضي بالضرورة إلى النصر، وأن الإعجاب بعامل الكثرة قد يكون مدعاة للهزيمة لأنه يؤدي إلى التواكل البعيد عن التوكل الصحيح على الله تعالى الذي بيده وحده النصر. وعن أحداث غزوة «حنين» يقول تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

تلك هي أحداث هامة في حياة المسلمين كانت لها آثارها الهامة في أنفسهم. وهي ما تزال بظلالها الندية تلامس أنفس المسلمين في كل حين ليأخذوا منها العبر والعظات، ويطبقوا أحكامها في حياتهم الحاضرة والمستقبلة، حتى تتهيأ لهم الأسباب التي تساعدهم على التخلص من عوامل الضعف التي تطغى على أوضاعهم.

وإذا كنا نجد في القرآن الكريم تكراراً لبعض الأحداث، أو لبعض الحقائق، ولا سيما تلك المتعلقة بالأمور الغيبية كالإيمان بيوم

---

(١) آل عمران: ١٥٢.

(٢) التوبة: ٢٥ ـ ٢٦.

البعث، والجنة والنار، فإن الغاية من ذلك تثبيت معاني تلك الأحداث والحقائق في الأذهان حتى تبقى دوافع هامة للناس كي يعملوا بما يرضي الله تعالى ورسوله الكريم، وفق منهج الإسلام وتعاليمه السامية.

وأهمية هذا التكرار فطنت إليه دراسات علم النفس الحديثة فأَوْلَتْهُ عناية زائدة في عملية التعلّم، كما فطنت إليه المؤسسات التجارية والصناعية فخصصت موازنات معينة للإعلان عن منتجاتها، تكرره دائماً من أجل التأثير في اتجاهات الناس وجذب انتباههم إلى السلع التي تريد ترويجها.

انحراف الدوافع

الانحراف هو الميل أو العدول عن الشيء. ويطلق في العلوم على انحراف إحدى الظواهر عن قانونها العام. أما في علم النفس فالانحراف هو تحوّل إحدى الوظائف عن غايتها الطبيعية كالشذوذ الجنسي، أو الاضطراب الذهني الذي يوقع في الخطأ والتناقض أو النسيان. وبصورة عامة إن الانحراف هو الخلل الذي يصيب بعض الوظائف العضوية أو النفسية فيعوقها عن بلوغ غايتها الطبيعية.

والانحراف في الدوافع يحصل عندما تتحكم هذه الدوافع بالإنسان فلا يعود قادراً على السيطرة عليها، بل تنقلب هي إلى السيطرة عليه. ويظهر هذا الانحراف مثلاً في السعي لإشباع حاجة عضوية أو إشباع غريزة من الغرائز بأيّ أسلوب يوصل إلى هذا الهدف، ومهما كان هذا الأسلوب مألوفاً أو غير مألوف، طبيعيّاً أو غير طبيعيّ، كأنما الوصول إليه أصبح غايةً بحد ذاتها. وبذلك ينحرف الإنسان عن الكسب الحلال ويقوم بأعمال الاختلاس أو الرشوة أو السرقة وما إلى

ذلك.. ومن قبيل ذلك أيضاً الإسراف في حب السيطرة والتفوق على الغير في كل شيء: من حيث اكتناز الثروة، أو تقلد المناصب، أو الجاه والنفوذ وما إلى ذلك.. أو الإسراف في طلب الراحة والانصراف إلى ملاذ الدنيا ومتاعها مما يؤدي إلى الخمول وعدم الشعور بالمسؤولية لدى الإنسان سواء تجاه نفسه أو تجاه أفراد أسرته أو أبناء مجتمعه.. أو الإسراف في الحذر وعدم الثقة الذي يثير مشاعر العدوان في العلاقات بين الناس.. وما إلى ذلك من انحرافات كثيرة وشائعة في الدوافع النفسية عند كثير من الناس.

وهكذا نجد أن الانحراف في إشباع الحاجات العضوية والغرائز هو الذي يؤدي إلى الانحراف بالدوافع عن أهدافها الصحيحة، مما يعوق استمرار حياة الفرد وبقاء النوع بشكل طبيعي، ويبعد الناس عن الغايات النبيلة والقيم العالية.

وكما هو الحال في انحرافات الدوافع النفسية، فإن هذا الانحراف قد يصيب الدوافع الفيزيولوجية. والأمثلة على ذلك كثيرة كالإسراف في تناول الأطعمة والأشربة الذي يؤدي إلى الأمراض، والإسراف في النوم الذي يؤدي إلى الكسل والخمول، والإسراف في تناول المنشطات الجسدية التي تحدث فيما بعد ردة فعل وتوقع الجسم في الوهن والضعف.

ولعلَّ من أهم الدوافع الفيزيولوجية المعرضة للانحراف الميل الجنسي. فهذا الدافع في الإنسان يرمي لإشباع مظهر من مظاهر غريزة النوع، وهو واقع طبيعي ويقتضي إشباعه وفقاً لفطرة الإنسان أو طبيعته التي خلقه الله تعالى عليها. ولكن الإنسان قد ينحرف بهذا الدافع عن غايته الطبيعية فيحدث الشذوذ الجنسي كاللواط ما بين الرجل والرجل،

والسحاق ما بين المرأة والمرأة. وقد ذمَّ القرآن هذا الشذوذ وقبَّح أهلهُ، بل وأذاق القوم الذين شاع فيهم أشدَّ ألوان العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وهم قوم لوط. وعنهم قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[2].

ومن عجب أن هذا الشذوذ الجنسي قد شرعته بعض الأمم في قوانين أقرَّتها تحت ستار الحفاظ على الحرية الشخصية، مخالفة بذلك سنة الله تعالى في خلقه، ومنحرفةً بذلك عن فطرة الإنسان الأصيلة التي أودعها تعالى في أحسن مخلوقات الأرض وأكرمها على خالقها.

من هنا كانت نظرة الإسلام إلى التحكم في الدوافع والسيطرة عليها، وعدم الإسراف في إشباع الحاجات العضوية والغرائز حتى لا تؤدي إلى الانحراف. فالمنهج الإسلامي يقر الاعتدال في كل شيء، ذلك الاعتدال الذي يتوافق مع الطبيعة البشرية ويبتعد بالإنسان عن أي إسراف. يقول الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾[3]. ويقول تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[4]. فسبحان الله الذي هدانا إلى ما فيه تأمين مصالحنا الفردية والجماعية والإنسانية بطريقة الاعتدال والحق.

---

(١) الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) الأعراف: ٨٠ ـ ٨١.
(٣) الأعراف: ٣١.
(٤) الفرقان: ٦٧.

وهكذا فإن إدراك الإنسان لحقيقة تكوينه، ووعيه لمسؤولياته وقيامه بواجباته، تعتبر من أهم العوامل لترك الانحرافات أياً كان نوعها فيزيولوجية أم نفسانية. فالإنسان عندما يعمل بمقتضى هذا الإدراك والوعي، ويؤدي واجباته فإنه في الوقت نفسه يؤمن حقوقه، ويكون صحيح البدن والنفس. ولكن إذا انحرف الإنسان في تحصيل حقوقه، وأهمل أداء واجباته، فإن ذلك يؤدي إلى الإخلال بموازين الحياة التي تقوم على التوازن والاعتدال في الحقوق والواجبات. من هنا اقتضت الصحة النفسية التزام الإنسان بالقيام بواجباته، وتعويد نفسه على تحمل أعباء مسؤولياته وفقاً للقواعد والأصول التي تفرضها مصالح الفرد والجماعة على حد سواء. وإن التزم بذلك فإنه ولا شك يبعد عن الانحرافات ويسير على النهج القويم.

وإلزام النفس بالواجبات ـ الدينية والدنيوية ـ عملية نفسية إرادية، من شأنها أن تشعر الإنسان بقيمته وبكفاءته وبما أودع الله تعالى فيه من استعدادات للهدى والخير، فيشغل نفسه بالطاعات والمسؤوليات، ويطرد عنه مشاعر المعاصي والإهمال. وإلاَّ فإن أفكار الانحراف ومشاعره تسيطر عليه فينأى عن الحياة الطبيعية السليمة.

ولعلَّ من أهم دوافع الانحراف الفراغ الذي يعتري النفس ويشعرها بعدم أهميتها وقدرتها على التفاعل مع الحياة. فكما أن الطبيعة لا تقبل الفراغ كما يقال في علم الفيزياء، كذلك الطبيعة البشرية لا تقبل الفراغ الذي يوهنها ويؤدِّي بها إلى الضعف والانحلال. وهذا ما دل عليه قول الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عندما كان يوصي أحد الولاة، ويقول له: «إن الله خلق الأيدي لتعمل فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية». وهذا ما يدل على صدق

النظرة إلى سلوك الإنسان الطبيعي، الذي لا يكون فيه مجال للانحراف عن أداء الواجبات، والالتزام بالطاعات.

وقد يظن البعض بأن الإنسان يقع عليه وحده عبء الاختيار بين الالتزام بالطاعات وأداء الواجبات، أو التخلي عنها، لأنه في النهاية مسؤول عن اختياره بين هذه أو تلك، ولكن الحقيقة أن الإنسان لم يخلق عبثاً في هذه الحياة، حتى يتوهم بأن عليه انتهاج السلوك الذي يريد، ووفق ما يريد، سواء اتبع سلوكاً قويماً أو سلوكاً منحرفاً. فهو كريم على خالقه، ومكرمته هذه هي التي تدفعه إلى تصور القيم والمثل العليا في كل شيء، وتحثه على تحقيق كل ما يرتقي به صحياً ونفسياً ومجتمعياً، ولذلك كانت عليه واجبات نحو خالقه، ونحو نفسه ونحو أسرته ونحو الناس، وعليه أداء هذه الواجبات دون إفراط أو تفريط. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لبدنك عليك حقاً. ولنفسك عليك حقاً. ولزوجك عليك حقاً. ولربك عليك حقاً. فآتِ كل ذي حق حقه».

السيطرة على الدوافع

وهكذا يتبين لنا أن وجود الدوافع الفيزيولوجية إنما كان في صميم تكوين الإنسان وطبيعته. وقد جبل الله تعالى هذه الفطرة الإنسانية بدوافعها الطبيعية لتكون عاملاً هاماً يساعده على حفظ البقاء وحفظ النوع، فكان من الطبيعي أن تكون مراعاة هذه الدوافع لإشباع الحاجات الضرورية والغرائز أمراً حتمياً تقتضيه الفطرة بالذات. ولذلك جاءت أحكام القرآن الكريم تلامس الفطرة البشرية، وتتحدث عن تكوين الإنسان، متوافقةً مع الفطرة التي خلقه الله تعالى عليها.

وإذا كانت الدوافع الفيزيولوجية والنفسية لها مثل هذه الأهمية في حياة الجنس البشري، فإن مراعاتها وحسن إدارتها أو الإقرار بتأثيرها تفرض على الإنسان عدم التنكر لها أو كبتها. بل على العكس من ذلك إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يدعوان إلى السيطرة على الدوافع والتحكم فيها، بما يجعلها قادرة على أداء وظائفها، وضمن الحدود التي تؤمن مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة على حد سواء.

وهنالك فارق ما بين القمع والكبت للدوافع، فالقمع قد يعني عدم الاستجابة، بصورة إرادية، لدافع ما، أو لرغبة ما ومقاومة إشباع هذه الرغبة، أي أنه لا يعني إنكار هذه الرغبة على الإطلاق، بل عدم إشباعها آنياً، وترك هذا الإشباع إلى ظروف أخرى أكثر ملاءمة. أما الكبت فهو إنكار الدافع أو الرغبة وذلك إما للشعور بحقارتها أو الخوف منها، ومحاولة إبعادها عن دائرة الوعي مما يؤدي إلى كبت هذه الرغبة وحبسها، وبالتالي إهمالها وطمرها. ولكن وجود هذه الرغبة، ولو مطمورة في أعماق النفس، لا يعني أنها انتهت، بل هي تحاول أن تطفو فوق دائرة الوعي وتتحين الظروف المواتية للظهور، وقد يكون ذلك بطرقٍ وحيلٍ لا إرادية، مما يسبب نشوء بعض الأعراض، أو حصول اضطرابات في السلوك، نتيجة للإزعاج أو القلق النفسي.

والقرآن الكريم لا يدعونا إلى كبت دوافعنا الفيزيولوجية والنفسية إطلاقاً، بل هو على العكس يوجهنا إلى تنظيمها والسيطرة عليها من أجل توجيهها توجيهاً سليماً يتوافق مع فطرتنا، ومع منهجية سلوكنا القويم. وهذا ما يجعل الإنسان قادراً على السيطرة على دوافعه، موجهاً لها، بدل أن يترك تلك الدوافع تتحكم فيه، وتصبح هي الموجِّهة له والمسيطرة عليه.

وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[1].

هذا فضل القرآن الكريم. فهو لا يدعو الإنسان إلى إنكار دوافعه الفطرية وكبتها حتى يجنِّبه الوقوع في الصراع النفسي، كما أنه لا يطلق العنان للإنسان حتى يترك دوافعه تتحكم فيه وتسيطر عليه. بل هو يدعوه إلى تنظيم الدوافع وإشباع الحاجات الضرورية والغرائز بطريق الحلال والمسموح به شرعاً، وعدم الإسراف في هذا الإشباع إسرافاً يتنافى مع الفطرة والشرع. وهكذا فإن تنظيم دافع الجوع مثلاً يكون بإشباع الحاجة إلى الطعام إما عن طريق الكسب الحلال، وإما بعدم تناول بعض المأكولات والمشروبات التي حرمها الله تعالى لأنها مضرة بالصحة البدنية أو العقلية. وتنظيم الدافع الجنسي يكون بإشباع الشعور الجنسي عن طريق الزواج وعدم تعاطي الزنى أو السفاح، لما فيه من أضرار صحية ومجتمعية وإنسانية.. ويبيّن القرآن الكريم فضائل الزواج في تكوين العلاقة النفسية والجسدية بين الزوج وزوجته، وفي تكوين الأسرة، وبناء المجتمع الإنساني الفاضل، بما يشيع أجواء الطهارة والعفة والأمن الجماعي بين الناس، وذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) الأعراف: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) الروم: ٢١.

وإذا لم تسمح ظروف الإنسان له بالزواج فعليه أن يستعفف وأن يسيطر على شهواته حتى تتيح له الظروف إمكانية الزواج. وقد ثبت «أن المرضى العصابيين الذين كان «سيمون فرويد» يعالجهم، نشأوا في الأغلب في مجتمعات أوروبا المسيحية التي كانت في ذلك الوقت تنظر إلى الجنس باعتباره دافعاً غير مقبول ويجب كبته. ولذلك لم يكن غريباً أن يلاحظ «فرويد» وجود علاقة بين كبت الدافع الجنسي وبين الأمراض العصابية. وتجدر الإشارة إلى أن بعض تلاميذ «فرويد»، أمثال «أدلر» وغيره من المحللين النفسيين الآخرين مثل «كارن هورني» و«إريك فروم»، لم يوافقوا «فرويد» على اهتمامه الزائد بالدافع الجنسي وبتفسيره للأمراض العصابية على أساس أنها ناشئة عن الكبت. ونحن نعتقد أنه حتى ولو كانت النتائج التي وصل إليها «فرويد» صحيحة بالنسبة لبعض الحالات في ذلك المجتمع الأوروبي، فليس من الضروري أن تكون صحيحة في مجتمعات أخرى تختلف في ثقافتها عن المجتمع الذي عاش فيه «فرويد».

ويتضح من عرضنا لموقف الإسلام من الدافع الجنسي، وعدم إنكاره له، وعدم النظر إليه باعتباره شيئاً مستقذراً يجب كبته، أننا لا نتوقع أن نجد في المجتمع الإسلامي الذي يربي أطفاله تربية إسلامية سليمة، ويشجع شبابه على الزواج المبكر، ويتخلص من العادات والتقاليد التي تحول دون تحقيق ذلك.. أجل، إننا لا نتوقع أن نجد في هكذا مجتمع إسلامي أثراً لكبت الدافع الجنسي. كما أن تحكّم الشباب المسلم بدوافعه الجنسية وسيطرته عليها لا يؤديان إلى الإضرار بالصحة النفسية إذا ما أقبل الشباب على العبادات بأبعادها القرآنية، وخاصة على الصلاة والصوم اللذين من شأنهما أن يقويا السيطرة على الطاقة الحيوية التي تتمثل في الغرائز والحاجات العضوية. كذلك فإن

إسهام شبابنا أيضاً في النشاطات الإنسانية المفيدة، والإقبال على تحصيل العلوم والآداب والفنون، وممارسة شتى أنواع النشاطات الأخرى.. كل ذلك يبعد عنهم حالات السأم والضجر، ويحميهم من مخاطر البطالة والمفاسد على اختلافها.

من هنا كانت تربية القرآن الكريم للإنسان تربية سليمة وذلك بوضعه القواعد التي تفصل بين المرأة والرجل وتمنع الاجتماع بينهما إلَّا وفق الأصول المحددة شرعاً، وتأكيده على النساء بعدم إبداء زينتهن لغير من أحلَّ الله تعالى لهم، وفي الأوقات الملائمة، والظروف المناسبة، كما يتضح ذلك من الآيتين الكريمتين في قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ ﴾[1].

---

(١) النور: ٣٠ ـ ٣١.

الفصل الثاني عشر

- الانفعالات
- العقد النفسيّة
- الحِيل العقليّة



الانفعالات

الانفعالات هي حالات داخلية تنشأ من مجريات الأمور والأحداث في حياة الفرد. وهي في الحقيقة لا يمكن التحكم بها فوراً، أو السيطرة عليها وعلى ما قد ينتج عنها من سلوك. بل إن محاولات السيطرة على الانفعالات قد تزيدها إثارة أو تهيجاً. وهي تبرز بأفعال مضطربة، لا واعية وغير منظمة. ويطلق عليها أيضاً تعبير الوجدانيات. وقد عرَّف البعض الانفعالات على أنها «حالات داخلية تتصف بجوانب معرفية خاصة، وإحساسات، وردود أفعال فسيولوجية، وسلوك تعبيري معين. وهي تنزع للظهور فجأة ويصعب التحكم فيها».

ومن الأمثلة على الانفعالات مشاعر القلق، والغضب، والسعادة، والحزن، والخوف، والحسد، والغيرة، والندم. وتوجد علاقة قوية بين الدوافع والانفعالات، لأن الدوافع غالباً ما تكون مصحوبة بحالة وجدانية انفعالية، فمثلاً حينما يشتد الدافع إلى الطعام بسبب الجوع، ولا يمكن إشباع هذا الدافع عن طريق الطعام، فإن المرء يحس بشعور من التوتر يدل على حالة وجدانية مكدرة، بينما على العكس من ذلك إذا حصل الإشباع فإن المرء يشعر بحالة وجدانية سارة.

والانفعالات تقوم بتوجيه السلوك مثل الدوافع، فانفعال الخوف يدفع إلى الهرب، وانفعال الغضب يدفع إلى العدوان، وانفعال الحب يدفع إلى لقاء الحبيب.

والحكمة الإلّهية كما أوجدت في نفس الإنسان الدوافع، كذلك أوجدت فيها الانفعالات التي يشعر بها الإنسان كلما واجهه واقع معين في الحياة.

والانفعالات كثيرة ومتنوعة بحيث لا تقع تحت حصر. وهي تختلف باختلاف الأفراد وظروف البيئة والأوضاع التي يعيشها كل منهم. فلو أجري اختبار الانفعال نفسه على بضعة أفراد لتبين لنا بأن ردود الفعل الفسيولوجية تأتي مختلفة ومتنوعة، وما ذلك إلا لأن الانفعالات إنما ترتبط بمكونات فسيولوجية وإدراكية ومعرفية وسلوكية خاصة بكل فرد، وإن كانت هذه العناصر تتفاعل مع بعضها بعضاً في الذات الواحدة.

وقد جاء في القرآن الكريم وصف لكثير من الانفعالات التي تصاحب النفس البشرية، مثل الخوف والقلق والغضب التي تتبدى جميعها بمظاهرها والتي لا تعدو في حقيقتها مظاهر للحاجات العضوية لدى الإنسان، وللغرائز الثلاث: حب البقاء، والنوع، والتدين.

وقد يكون لهذه الانفعالات آثار هامة في حياة الإنسان كالخوف فإنه يعينه مثلاً على الشعور بالأخطار وتداركها بدل أن تهدد وجوده، مما يجعل من الخوف عاملاً هاماً يساعد على الحياة والبقاء. والغضب كذلك، مثل الخوف، فإنه من الانفعالات التي تعتري النفس، وقد ينشأ عن أشياء بسيطة مثل التوبيخ أو الإهانة، أو عن أشياء كبيرة كالتهديد أو الاعتداء، ولذلك فإنه قد يتحول إلى شعور عدواني، وإذا

لم يجر التحكم به، يؤدي إلى أعمال عدوانية ضارة.

والانفعالات تحدث دائماً تغييرات فسيولوجية في الجسم، وتظهر بصورة خاصة على ملامح الوجه. ومن تلك التغيرات التي تحدث أثناء الانفعال تزايد ضربات القلب، وتقلص الأوعية الدموية في الأمعاء والأحشاء، واتساع الأوعية الدموية في الأطراف، وزيادة تدفق كمية الدم إلى القلب.

ويصور القرآن الكريم حالة المؤمنين في موقعة الخندق وما اعتراهم من خوف شديد، كما يبيِّن آثار انفعالاتهم التي كانت تظهر في شدة خفقان قلوبهم وتدفق كميات الدم فيها مما يزيد في أحجامها ويجعلها تتضخم وتكبر حتى لتقترب من القصبة الهوائية. وهذا كلّه يتبيّن في قول الله تعالى ﴿وبلغت القلوبُ الحناجر﴾ في الآية الكريمة: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1].

ومن الثابت في علم الطب التشريحي أن القلب يقع تحت القصبة الهوائية بحوالي سنتيمتر ونصف السنتيمتر، فإذا امتلأ بالدم بسبب شدة الخفقان فإنَّ حجمه يزداد مما يجعله يقترب من القصبة الهوائية. وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم في الآية المبينة، إذ زاغت أبصار المؤمنين، فلم تعد قادرة على الرؤية الصحيحة، وغطت عليها غشاوة أضعفت الأنظار، كما اضطربت الأفئدة، وتضخمت القلوب حتى صارت قريبة، بسبب هذا التضخم، من القصبة الهوائية التي هي مجرى التنفس ما بين الحلق والرئتين...

---

(١) الأحزاب: ١٠ ـ ١١.

وأما ما يحدثه الانفعال من تغيرات في ملامح الوجوه يوم القيامة نتيجة لانفعالات الحزن والكآبة التي تنتاب نفوس الكافرين فيذكره الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[1].

فالغبرة هي الغبار. والقترة هي من الكدر. والمعنى أنَّ وجوه الكفار الفجار يغشاها سواد من الخزي والمذلة والهوان كأنما طليت بغبار أسود، أو دهان من كدر..

والعيون تتأثر أيضاً بالانفعالات، بحيث يؤدي انفعال الخوف، خاصة، إلى اتساع حدقة العين. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[2]، فقوله تعالى: ﴿تشخص فيه الأبصار﴾ و﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ وصف حي لما يحدث من اتساع حدقة العين، وشدة التحديق بها، وعدم استطاعتها الإغماض لشدة الفزع من هول ما ترى.

ومن التغيرات البدنية التي تحصل أثناء الانفعال من خشية الله سبحانه أنَّ الشعر الموجود على سطح الجلد ينتصب بعد أن يصاب المرء بنوع من القشعريرة. يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[3].

وكثيراً ما نلاحظ أن التعبير عن الانفعال يكون بحركات اليدين. وقد ذكر القرآن الكريم تقلُّب الكفين بسبب حالة الندم التي تسيطر

---

(١) عبس: ٤٠ ـ ٤٢.

(٢) إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣.

(٣) الزمر: ٢٣.

على الإنسان. قال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[1].

وهذه بعض الأمثلة عن الانفعالات التي تصاحب النفس البشرية:

١ ـ انفعال الضحك والبكاء.
٢ ـ انفعال الغضب.
٣ ـ انفعال الحب.

١ ـ انفعال الضحك والبكاء

الضحك انبساط في الوجه مصحوب بزفير متقطع، وصوت مسموع، ناجم عن سرور في النفس. ومنه: القهقهة وهي ضحك تبدو معه النواجذ ولذا سميت مقدمات الأسنان بالضواحك. ومنه التَّبسُّمُ: وهو ضحك بلا صوت. ويستعار الضحك للسخرية فيقال: ضحكت منه. والضُّحَكة عندما تضحك من الناس بسخرية أو هزء، بينما الضُّحْكة عندما يضحك الناسُ عليه ويسخرون منه. قال تعالى: ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾[2]. والأضحوكة كل ما يضحك منه.

والضحك ضده البكاء، فكما ينجم الضحك عن السرور فالبكاء ينجم عن الحزن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾[3] أي أوجد سبب الضحك من السرور وسبب البكاء من الحزن. والله تعالى موجد الأسباب حقاً، ولكن مباشرة الضحك والبكاء تكون بفعل

---

(١) الكهف: ٤٢.
(٢) المؤمنون: ١١٠.
(٣) النجم: ٤٣.

إرادي من الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[1] أو قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾[2] أي أنه ـ سبحانه ـ نسب الضحك إليهم... ويأتي الضحك بتفتح أسارير الوجه عن سرور وعجب في القلب، فإذا أصاب الإنسانَ منه ما لا يمكنه دفعه، فهو من الله تعالى.

وينجم البكاء الذي قد يظهر بجريان الدمع على الخدِّ عن غم في القلب، وربما يكون عن فرحٍ يمازجه تذكر أمر معين فكأنه عن رقة في القلب.

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى أودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء، وهما من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد ماهيتهما، ولا كيف يقعان في هذا الجهاز المركب المعقد الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوي، والذي تتداخل المؤثرات النفسية، والمؤثرات العضوية فيه، وتتفاعل لإحداث الضحك أو إحداث البكاء. وكل ما يتبدى من هاتين الخاصيتين هو مظاهر لحالات نفسية وعضوية ناتجة عن تفاعل المؤثرات في الكائن البشري.

٢ ـ انفعال الغضب:

إن الغضب يعتبر من العاهات النفسية التي تورث الشرور، بما تؤدي إليه من تعطيل للفكر، وفقدان قدرته على إصدار الحكم الصحيح أو التحكم في الحادث الذي يحصل.

---

(١) التوبة: ٨٢.

(٢) النجم: ٦٠.

والخطر الناجم عن الغضب يجب تلافيه وذلك بالتحكم في انفعالاتنا أثناء ثورة الغضب. لأنَّ من شأن هذا التحكم أن يعيد إلى الإنسان وعيه ويجعله قادراً على التفكير السليم، فلا يتورط في قول أو فعل قد يندم عليه فيما بعد، وأن يحفظ توازن الجسد فلا ينتابه التوتر الذي ينتج عن زيادة الطاقة الحيوية نتيجة لإفرازات الكبد كمية أكبر من السكر. وبالسيطرة على التوتر لا يندفع الإنسان إلى أعمال عدوانية كالأذى الذي يكون مصدره الرئيسي الغضب. ثم إن عدم مواجهة الشخص الآخر بعمل عدواني، والسلوك معه بهدوء واتزان قد يذهب بالبغضاء والمشاحنة ويورث الصداقة والمحبة بين الناس، كما يوجهنا إلى ذلك ربنا تعالى بقوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[2].

٣ ـ انفعال الحب:

إنّ القرآن الكريم يوجهنا أيضاً إلى عدم الإفراط في حب الأهل من الآباء والأزواج والأبناء، أو في حب الأقربين والناس والأموال، وما إلى ذلك. . حتى لا يكون هذا الحب مدعاة إلى الانصراف عن طاعة الله تعالى والعمل بما يرضيه. يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3].

---

(١) فصلت: ٣٤.
(٢) الشورى: ٣٧.
(٣) التوبة: ٢٤.



العقد النفسيّة

في الإنسان غرائز وحاجات عضوية، وهي تقتضي الاشباع، فإذا لم يحصل هذا الاشباع وفقاً لفطرة الإنسان، أو حصل إشباع زائد أو ناقص عما يقتضيه الاعتدال والتوازن في النفس، وفي الجسد، فإنّ ذلك يؤدي إلى كبت وقلق في النفس، أو إلى شذوذ في السلوك، مما يؤدي بدوره إلى نشوء خلل قد تأتي عنه العقد النفسية. وقد درج علماء النفس على تسمية «مصادر ومسببات الانفعالات الشعورية والتصرفات السلوكية المرضية بالعقد النفسية». وآيات القرآن المبين تشير إلى كثير من هذه العقد النفسية بكلمات: العقبة، الطاغوت، الشهوات، الأهواء والأرباب..

فعن عقدة البخل أو الشح يقول الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[1]. وعن العقدة الجنسية وعقد الشح والسلطة وحب التملك يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ

---

(١) البلد: ١١ ـ ١٦.

وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1].

أما الآيات التالية التي تذكر «الأرباب»، و«الطاغوت» فهي ترمز إلى أهم مسببات العقد النفسية. يقول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[4]. ويقول تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5].

يضاف إلى ذلك أن جميع الآيات القرآنية التي تتحدث عن «الهوى» أو «الأهواء» إنما ترمز إلى كل الشهوات التي تؤدي إلى العقد النفسية.. «والعقد النفسية ما هي إلا طغيان الأهواء والمخاوف النفسية على العقل وسيطرتها عليه».. ولذلك عرَّف البعض العقدة النفسية على أنها «جملة من التصورات أو الانفعالات المكبوتة الناشئة عن

(١) آل عمران: ١٤.
(٢) التوبة: ٣١.
(٣) النساء: ٦٠.
(٤) النساء: ٧٦.
(٥) البقرة: ٢٥٦.

حالات صراعية ذات شحنة وجدانية كبيرة، وهي تؤثر في تفكير الشخص وتطبع سلوكه بطابع الانحراف والشذوذ». ونعطي مثلاً على العقد النفسية ـ على كثرتها ـ عقدة النقص أو مركب النقص.

وهذه العقدة أي عقدة النقص «هي حالة انفعالية تسيطر على المرء من جراء شعوره بقصورٍ حقيقي أو وهمي، وهي تحمله في كثير من الأحيان على كبت عواطفه، فتوقعه في عصاب (مرض) تختلف شدته باختلاف الظروف المحيطة به والوسائل المتوافرة لديه. ولذلك هي عبارة عن مجموعة من التصورات والأوهام والوجدانات الشعورية تؤثر في تفكير وسلوك المصابين، وأكثرهم من الأطفال، وتطبعهم بطابع الانحراف والشذوذ».

والعقد النفسية معروفة، في الغالب، عند معظم أصحابها، وليست كما يدعي كثير من أصحاب مدارس التحليل النفسي أو أتباع «فرويد» من أنها «عقد لا شعورية» أي أنها مجهولة، ومدفونة في أعماق النفس ولا يدركها المريض لطغيانها عليه، واستبدادها به، وتسيير سلوكه بما لا يقدر على لجمه، أو مخالفته.. والحق يجب أن يقال: إن عدم معرفة واتباع الأساليب التربوية الصحيحة سواء في البيت، أو في المدرسة، وعدم قيام علاقات مجتمعية وفق القيم الخلقية والمثل النبيلة، وعدم اتباع التعاليم السماوية الحقة، والابتعاد عن الله تعالى.. هي من أهم مسببات العقد النفسية. كما سيتضح لنا ذلك عند البحث في أهم العقد النفسية التي تقضّ مضجع الإنسان.

والنفس تعيش في صراع شبه دائم بين العقد التي تتحكم فيها وبين محاولاتها للتخلص منها، فإن نجحت في ذلك فمعناه أنها تسامت، وإن فشلت فقد تتخفَّى العقد النفسية تحت ظواهر

وعوارض مرضية، وتتحول عندها العقدة إلى نقيضها من خلال ما يسميه البعض «عملية التعويض»، كتحول عقدة الحرمان المادي إلى عقد الجشع والطمع والبخل، وعقدة الضعف إلى عقد الكبرياء والتعالي، وعقدة الحرمان العاطفي إلى عقدة حب الإيذاء والشراسة والتعالي. وقد تتداخل العقد النفسية مع بعضها، فتكون العقدة ونقيضها في النفس الواحدة مما يسمى «بازدواجية الشعور والتصرف» وهذا ما تكون عليه نفوس أغلب الناس المرضى والأصحاء، وإن كان الفرق في درجة المغالاة والشدة والاضطراب التي تكون أقوى عند المريض.

ولقد أثبتت كل الدراسات في علم النفس أن الناس أشقياء، تعساء، قلقون في كل المجتمعات باستثناء القلة القليلة التي تتبع تعاليم الله تعالى الحقة، والتي تلتزم بالطاعات وتأتمر بالنواهي الإلهية. وإن «مقياس الصحة النفسية المتعارف عليه عالمياً بين علماء النفس هو درجة سعادة الفرد وطمأنينته وسكينته». وبقدر ما يلتزم الإنسان بتعاليم الله الحقة بقدر ما يطمئن ويسعد، وبقدر ما يبتعد عنها يقلق ويشقى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]. نعم إن من اتبع هدى الله تعالى فهو في أمان من الضلال والشقاء. وهذا يعني أن الشقاء هو ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتع واللذائذ، إذ إن هذه اللذائذ هي ذاتها شقاء في الدنيا والآخرة، لو تفكر الإنسان بحقيقتها، وخاصة إذا كانت حراماً، لأنه ما من متاع حرام إلا وله غصّة تعقبه.

---

(١) طه: ١٢٣ ـ ١٢٤.　　(٢) البقرة: ٣٨.

والإنسان عندما يضل عن هدى الله تعالى فلسوف يتخبط ـ لا محالة ـ في القلق والحيرة، والتعاسة، والاضطراب، والمرض، والاندفاع من حالة إلى حالة لا يستقر فيها على شيء، ولا يتوازن في أي وضع. فالشقاء قرين التخبط والضياع حتى ولو كان في المرتع المبهج. وتكون الشقوة الكبرى في الدار الآخرة.

أما من تبع هدى الله تعالى فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض، وفي حرز منيع من الضياع والتخبط. إنه آمن في نفسه، مطمئن إلى ربه، فهو هاديه، وقد استجاب له فاتبع هداه.

أما من أعرض عن ذكر الله تعالى فإن حياته كلها ضيق وهو الضنك. ضنك الحيرة والقلق والشك. ضنك الحرص والحذر، الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء المطامع، والحسرة على كل ما يفوته. ولذلك فإن القلب المؤمن يبتعد عن هذا الضنك حتى يشعر بالطمأنينة والاستقرار في هدى الله.

وقد حذَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما قد يطغى على العبد من تصرفاتٍ غير سوية، أو من انفعالات مَرَضِيّة مبعثها العقد النفسية، وذلك في ما روي عنه. قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«بئس العبد عبد تخيَّل واختال ونسي الكبير المتعال. بئس العبد عبد تجبَّر واعتدى ونسي الجبار الأعلى. بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى. بئس العبد عبد عتا ونسي المبتدا والمنتهى. بئس العبد عبد يختل[1] الدنيا بالدين. بئس العبد عبد طمعٌ يقودُهُ. بئس العبد عبد هوى يُضله. بئس العبد عبد رَغَبٌ يُزِلّـهُ». (رواه الطبراني والترمذي).

(١) ختل: خدع.

ومن أبرز العقد النفسية التي يعاني منها الناس:

١ ـ **عقدة الموت**: إن في تفكير كل منا وشعوره شيئاً اسمه الموت. والخوف من الموت قد يلازم الإنسان منذ وعيه وحتى وفاته. ولذلك فهو يحاول أن يهرب من عقدة الخوف هذه التي تصاحبه، وأن يحيد عنها كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1].

وليس الإنسان فقط هو الذي يحاول أن يحيد عن الموت، بل وكل كائن حي قد يكون عنده نفس الشعور بسبب غريزة البقاء.. وما لم يجد الإنسان حلاً للخوف من الموت فإنه قد تتحكم به فكرة الهلاك حتى تصبح من أصعب وأشد العقد النفسية التي تسيطر على انفعالاته وتصرفاته. وقد تصبح أيضاً المصدر الأول لأكثر العوارض النفسية العصابية والذهنية واضطرابات الشخصية لديه، وفي طليعتها القلق الدائم على الحياة. ولذلك كان لا بد من إيمان قوي عنده للسيطرة على الخوف من الموت، وفقاً لما يهدي إليه القرآن الكريم. فقد أوضح هذا الكتاب المبين بأن هذه الحياة هي فانية. وأن ما فيها من لهو ومتاع لهو زائل. بينما الحياة الآخرة هي حياة البقاء والخلود، وأن الموت ليس إلا مرحلة ينتقل فيها الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]. والمسلمون الصادقون بإيمانهم يدركون أن الموت حق، وأنه لا مفر منه. ولذلك هم يرتقبون الموت حتى يُوفَّوا أجورهم التي وعدوا بها من الباري ـ عز وجل ـ تصديقاً

---

(١) ق: ١٩.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[2].

وتتفرع عن عقدة الموت عدة عقد نفسية أخرى، مثل عقدة قصر العمر، وعقدة عذاب الموت، وعقدة القبر..

(أ) عقدة قصر العمر:

إن العمر في هذه الدنيا محدود بفترة زمنية طالت أم قصرت، والعاقل يعرف أنه ميت لا محالة إن لم يكن اليوم فغداً. والشعور الذي يغلب على أكثر الناس هو الخوف من قصر العمر ولذلك تجدهم يتهافتون على هذه الدنيا والأطماع تسلب عقولهم، يحاولون اجتناء الثروات، أو التمتع بشتّى أنواع اللذائذ وبأقصى ما يستطيعون.

والحقيقة التي يجب أن يدركها كل إنسان، والمؤمن خاصة، أن الأعمار بيد الله حقاً، وقد كتب ـ سبحانه ـ لكل فرد أجلاً محدداً، لا ينقص ولا يزيد، وذلك منذ تخلّقه جنيناً في رحم أمه. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4].

---

(١) آل عمران: ١٨٥.
(٢) النساء: ٧٨.
(٣) آل عمران: ١٤٥.
(٤) فاطر: ١١.

والتعمير يكون بطول الأجل وعدّ الأعوام، كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقاً مثمراً، وامتلائه بالمشاعر والأعمال والآثار التي ترضي الله تعالى. ويكون نقص العمر بقصره على عدّ السنين فقط، أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث والكسل والفراغ. فرب ساعة تعدل عمراً، ورب عام يمر خاوياً فارغاً لا حساب له في ميدان الحياة، ولا وزن له عند الله تعالى.. فكل فرد من الناس له أجل وعمر مكتوب في كتاب الله تعالى، ويتوهم كثيراً من يظن غير ذلك، أو من يفكر بأنَّ أي شيء يمكن أن يغيِّر في الأجل المحدد إلاَّ أن يشاء الله تعالى.

(ب) عقدة العذاب عند الموت:

قد يتوهم كثير من الناس أن الفرد يصادف عذاباً شديداً إبان ساعة الموت، أو قد ترافقه آلام عند خروج الروح وما إلى ذلك. وهذا صحيح لأن الموت قد يصاحبه العذاب. وقد يولّد هذا الخوف عقدة العذاب تلك التي تصل إلى حد الرعب. ولكن هنالك فارق بين موت المؤمنين وموت الظالمين والمجرمين، كما تدلنا على ذلك الآية المباركة: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾[2].

هنا الفارق بين المؤمن برحمة الله تعالى، وأنه ـ سبحانه ـ الرؤوف

(١) الجاثية: ٢١.
(٢) الواقعة: ٨٨ ـ ٩١.

الرحيم، الودود، الغفور لمن يشاء من عباده، وبين الظالم أو المجرم الذي نأى بجانبه عن الله تعالى، وفقد كل صلة بينه وبين خالقه فعاث في الأرض فساداً. الأول لا تحكمه عقدة عذاب الموت، والثاني قد تتغلغل في أعماقه هذه العقدة حتى تقضَّ عليه مضاجعه سواء درى أم لم يدرِ بذلك.

ولا سبيل للشفاء من عقدة عذاب الموت إلا بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى، حتى يتخلَّص الإنسان من المظالم والجرائم التي يرتكبها وهو سادر، ساهٍ عن عدالة الله تعالى، وعن قهره وجبروته.

(جـ) عقدة القبر:

ومن العقد النفسية التي قد تتحكم بالإنسان أيضاً خوفه من أهوال القبر. وهذه العقدة إنما هي في الحقيقة ناجمة عن مرض الخوف من الأماكن المغلقة والدهاليز المظلمة، فكثيرون يخافون هذه الأماكن ويخشون الدخول إليها. وربما كان هذا ناجماً عن خوفهم الدفين من القبر، لأنهم يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم سوف يوضعون في هذه الحفرة المسماة بالقبر، أو في هذه الغرفة المظلمة التي تتكدَّس النعوش فيها فوق بعضها البعض. ويزداد هذا الخوف عندما تسيطر على الإنسان فكرة عودة الحياة إليه في القبر.

وقد ذهب أنصار التحليل النفسي إلى القول بإمكانية الوصول إلى نتائج إيجابية في معالجة عصاب الخوف من الأماكن المقفلة، وذلك بمواجهة المريض تدريجياً بما يخيفه. ونحن نسألهم: إن «فرويد» نفسه، واضع أسس التحليل النفسي، كان مصاباً بهذا العصاب، فلماذا

لم يشفِ نفسه منه؟ وهذا ما يجعل جميع وسائلهم العلاجية وقتية. ولا يشفي من عقدة الخوف من القبر إلاَّ الإيمان الحقيقي. فالمؤمن يثق بوعد الله تعالى، لأنه ـ سبحانه ـ لا يخلف وعده، وقد قال في محكم تنزيله الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]. والرسول الكريم يقول: «إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

إن المؤمن يبشَّر بالجنة منذ احتضاره، إذ يصبح الغيب الذي آمن به وملائكة الرحمة حقيقة يقينية أمام بصره، يطمئنونه بحسن المآب، فيغدو مطمئن البال، قرير العين، لا يخاف موتاً، ولا يخاف ظلمة قبر.

٢ ـ عقدة الخوف من الفقر

كثير من الناس تتملكهم عقدة البخل، أو تطغى عليهم مظاهر التملك والأثرة والأنانية، فيندفعون وراء جمع المال وتكديسه، وينتج من جراء ذلك لديهم حالتان: حب شديد للمال، وخوف من نفاده أو فقدانه..

وقد يعزو البعض هذا الحرص على المال إلى الحرمان المادي والعاطفي معاً، فيريدون التعويض عما فاتهم، من قبل، بالجشع والطمع، واتباع شتى الوسائل للحصول على الغنى والابتعاد عن الفقر.

والإسلام قد عالج هذه العقدة، بل هذه القضية في حياة الناس، بحيث جعل الفرد، إن عاش في مجتمع إسلامي يطبق الشريعة الإسلامية، ألاَّ يخشى العوز والفقر، وألاَّ يطمع في جمع المال

---

(١) فصلت: ٣٠.

وتكديس الثروة، وذلك عندما فرض الزكاة، وعزَّز مكانة المحسنين بالصدقات. فالزكاة كما هي معروفة في الإسلام تزكي النفس والمالَ معاً، وهي قد جعلت ركناً من أركان الإسلام، لما تنشىء من رابطة التضامن والتكافل بين أبناء المجتمع، بحيث يشعر الغني أن لأخيه الفقير حقاً معلوماً عليه من ماله. والله تعالى في محكم تنزيله الكريم يحبب الإحسان إلى النفوس. والآيات التي تمتدح المحسنين كثيرة في القرآن الكريم، ومنها قوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾[2]. ولكن الله تعالى حدد للشخصية الإسلامية أن تكون وسطاً في الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[4].

وقد كان في الانصار خير شواهد للناس على ما آثروا به إخوانهم المهاجرين، في حبهم البذل والعطاء لهم، مما جعل الإسلام يسمو بتعاليمه وبالمؤمنين به. ولو اتبع المسلمون اليوم تعاليم دينهم، واقتدوا بسيرة رسولهم الكريم، وبمن سبقوهم من الأولين، لما كان بينهم فقير أو سائل أو محروم.. ولذلك عالج الإسلام عقدة الخوف من الفقر بالزكاة والإحسان، كما عالج بهذه القيم العليا عقد الشح والبخل والتقتير. ومما يزيد في اطمئنان المسلم معرفته أن الرزق من عند الله تعالى، الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

ولا ريب بأن المسلم المؤمن هو الذي يثق بعطاء ربه، ولا يخاف من الفقر والإملاق، ما دام يسعى ويعمل في هذه الأرض ويوفر أسباب

---

(١) آل عمران: ١٣٤.
(٢) سبأ: ٣٩.
(٣) الفرقان: ٦٧.
(٤) الإسراء: ٢٩.

العيش ثم يركن بقلبه إلى عطاء ربه الكريم. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1]. ويقول عز وجل: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2].

٣ ـ عقدة الطغيان

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[3]. إنه الإنسان، يحاول أن يطغى في كل شيء، عندما يجد في نفسه مقومات هذا الطغيان، فيضيع عندئذٍ عن السلوك القويم، وتتحكم به الأهواء والشهوات حتى تمتلىء نفسه بالعقد النفسية. والطغيان مجلبة لكثير من الشرور والآثام، إذ به يكون الإنسان: ظلوماً، جهولاً، منوعاً، فخوراً، مغروراً، كفاراً، مفسداً، سفاكاً للدماء.. وما أبشعها من أوصاف لمخلوق هزيل، ضعيف، جزوع، هلوع... ومن كان الطغيان دأبه، فلا ريب أنه مريض نفسانياً، وتتحكم فيه مختلف العقد النفسية. والله تعالى يصور حالاته تلك أو يصفه بتلك الأوصاف المذمومة في قرآنه الكريم، لأنه أعلم العالمين بمن خلق.

وهكذا نجد أن الإسلام، وبما يحويه قرآنه الكريم، وبما تحفل به السنة النبوية الشريفة، هو خير منهاج يمكن للإنسان أن يسير عليه في هذه الحياة، لأنه وحده النظام السماوي المتكامل الذي لا يترك ثغرة صغيرة في حياة الإنسان إلا ويعالجها معالجة شافية وكافية.. فهو يخلص الإنسان كفرد من عقده النفسية، وهو يخلص المجتمع من مشاكله المتعددة، ويخلص الإنسانية من العثرات التي سقطت فيها بفعل الظالمين، المفسدين، وبتسلط المشركين والمتكبرين..

وأي مجتمع يطبق الإسلام تطبيقاً صحيحاً وكاملاً من المحال أن

---

(١) الذاريات: ٥٨. (٢) الذاريات: ٢٢. (٣) العلق: ٦ ـ ٧.

تُوهِنَ نفوسَ أبنائه الأمراضُ النفسية، وأن تتغلغل فيها العقد النفسية. وأي مجتمع لا يراعي حدودَ الله تعالى في كل شيء -حتى ولو كان مجتمعاً إسلامياً في ظاهره أو في بعض مقوماته- ولا يطبق المنهج الذي أرادَهُ المولى -عز وجل- للبشر، بكل حذافيره، فإنَّ الناس، ولو كانوا فيه مسلمين، هم مثل غيرهم، معرضون للعقد النفسية وللأمراض النفسية.

الحيل العقلية

الحيل العقلية هي مشاعر وقائية أو دوافع للسلوك تتحرك في نفس الإنسان لتبرير تصرفاته، أو لوقاية نفسه من القلق الذي يمكن أن ينتابه إذا أدرك دوافعه الحقيقية الكامنة في نفسه.

ويتبين أن الغاية من الحيلة العقلية هي إخفاء حقيقة كامنة في نفس الإنسان، ومحاولة إظهار ما يناقضها، لوقاية النفس من ضرر قد يحصل لها.

والحيل بصورة عامة هي صناعة المكذبين، الفاسقين، المرائين وأمثالهم. وهذه الصفات هي التي عرف بها المنافقون في المدينة المنورة لما كان يتفاعل في نفوسهم من مشاعر موتورة ضد المؤمنين. وقد ركزَّ القرآن الكريم على أفعال المنافقين الشنيعة في كثير من آياته المبينة، وعلى حيلهم العقلية التي تنم عن عدائهم للإسلام وأهله.

وتبدو تلك الحيل على ثلاثة أنواع هي: الإسقاط، التبرير، وتكوين ردة الفعل.

الإسقاط: وهو حيلة عقلية يحاول الفرد أن يلصق بغيره ما يخالج نفسه من دوافع وعيوب وأخطاء. وهذا ما يسمى «الإسقاط»، أي أنه

يسقط شعوراً لديه على غيره. ومثاله أن يضمر أحدهم شعور العداء الدفين لآخر أو لأحد أقاربه فيحاول أن يسقط شعوره العدائي على قريبه فيشعر أنَّ قريبه يعامله بعداء.

ومن هذا القبيل إسقاط المنافقين مشاعر الخوف والبطش على المسلمين. لقد كانوا يريدون في قرارة أنفسهم أن يبطشوا بالمسلمين ويقضوا عليهم، ولكنَّ قوة المسلمين جعلتهم يظنون أن هؤلاء يريدون البطش بهم، فإذا صدرت صيحة عن المسلمين توهموا أنها موجهة ضدهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(١).

كان المنافقون يتخذون الأيْمان جُنَّة (أي سترة) يتسترون بها لكي يأمنوا على أنفسهم وأموالهم. وكانوا في الحقيقة يعملون في الخفاء ليصدوا عن سبيل الله تعالى. لقد كانوا يبدون كل استعداد لمناصرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والخروج معه، وفي الوقت نفسه يبطنون له العداوة والبغضاء، ويحيكون له الدسائس مع المشركين، كما كانوا يخذّلون المؤمنين بالتقاعس عن القتال وتخويفهم من الموت، وبث روح الشقاق والنزاع في صفوفهم..

وفي هذه الآية الكريمة يصف الله تعالى حالتهم الجسدية والنفسية، فينبّه رسوله الكريم بألاَّ تأخذه مظاهرهم الخادعة بما يعجبه من أجسامهم القوية، وبما يبدون من قول فيه فصاحة وذلاقة، فهذه أشياء لا يعوَّل عليها كثيراً إذا لم تكن متوافقة مع دخيلة النفس. ولذلك يعود النص القرآني ويبين دخيلة نفوسهم بما فيها من عداء ووهن، فيشبههم

---

(١) المنافقون: ٤.

بالخشب المسنَّدة إلى الحائط التي نخرها السوس فصارت مهلهلة، متآكلة من داخلها، مهملة، لا تنفع لشيء، فأسندت إلى حائط. أما إذا دعي أولئك المنافقون إلى قتال فالخوف يستولي على نفوسهم، فيحسبون كل صيحة ترمي لإهلاكهم. وفي هذا أصدق التعبير عن القلق النفسي الذي يعانون منه، سواء لخوفهم من اكتشاف أمر نفاقهم، أو لحقدهم الشديد على المؤمنين الذي يشحن نفوسهم بحب القضاء عليهم. وهكذا فإنهم يسقطون هذا الشعور العدائي على المؤمنين. ويؤكد شعورهم هذا قول الله تعالى في نفس الآية: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾.

التبرير: وهو حيلة عقلية دفاعية يحاول فيها الإنسان تبرير دوافعه غير المقبولة لجعلها مقبولة. وهذا ما كان يفعله مرضى القلوب في أحيان كثيرة وذلك باللجوء إلى التبريرات لتفسير سلوكهم تفسيراً مقبولاً. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

في هذا النص الكريم يظهر واضحاً أن التبرير إنما يصدر عن الإنسان بصورة تلقائية لا يشعر معها بالخطأ الذي يرتكب، وذلك عندما يفعل شيئاً سيئاً ويظن أنه يفعل شيئاً حسناً، أو عندما لا يدرك حقيقة ما يفعل. وأولئك المرضى من المنافقين كانوا يأتون الفساد، وكان المؤمنون ينصحونهم بالتخلي عن فسادهم، فبماذا كانوا يردّون؟ كانوا يردّون بالقول: ﴿إنما نحن مصلحون﴾. إنهم لا يدركون حقّاً فساد أعمالهم ويظنون أنهم يفعلون شيئاً من الصلاح. ويبين عدم

---

(١) البقرة: ١١ ـ ١٢.

إدراكهم ذاك قوله تعالى: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ وهذا تأكيد لفسادهم ﴿ولكن لا يشعرون﴾.

ردّ الفعل: رد الفعل هو أيضاً حيلة عقلية دفاعية تظهر بسلوك مضاد للسلوك الحقيقي الذي يريد الإنسان إخفاءه. والمثال على ذلك أن يبدي أحدهم كثيراً من المجاملة واللين والاهتمام في معاملة شخص آخر لإخفاء كرهه له وشعوره العدائي تجاهه. فالمنافقون كانوا يظهرون أحسن القول للؤمنين، والاعجاب والتقدير لأعمالهم، ولكن كان ذلك كله بقصد إخفاء كراهيتهم وعدائهم لهم. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾[1].

وقد روي أن هاتين الآيتين الكريمتين نزلتا في الأخنس بن شريف. لقد كان منافقاً، حلو الكلام، حتى ليعجب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من كلامه، وكان يظهر الإيمان ويحلف بالله على ذلك، ولكنه في الحقيقة كان من ألد الخصام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين. بل ويبيّن الله تعالى شدة قساوته بأنه عندما يسعى في الأرض لا يتوانى عن إتلاف الحرث من الزروع إذا قدر، ولا يتأخر عن قتل الناس إذا استطاع. وذلك لشدة خصومته الدفينة للمؤمنين ولنبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم قد أشار إلى بعض الحيل العقلية التي كانت تعشش في نفوس المنافقين، مرضى القلوب، وذلك قبل قرون عديدة من اكتشاف علماء النفس الغربيين لتلك الحيل

---

(١) البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

العقلية التي كانت تظهر في سلوك مرضى القلوب الذين كانوا يعالجونهم.

والمرض: هو الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وهو نوعان: الأولُ مرض جسمي وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[1]. والثاني مرض نفسي وهو عبارة عن الرذائل، كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق وغيرها من الرذائل الخُلُقِيّة، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[2].

تداعي الأفكار أو تجمع الأفكار

إن تداعي الأفكار ليس سوى نمط من أنماط استحضار الأحوال النفسية لبعضها بعضاً. وهو يتم بصورة تلقائية ودون أن يكون للإرادة أي أثر. أو بمعنى آخر إن حدوث أمر حسي أو فكر يستدعي تذكر أمر آخر مرتبط به، أو التفكير في هذا الأمر الآخر. وقد جرى تعريف هذه الظاهرة النفسية التي تسمى تداعي الأفكار «بأنها استحضار الأحوال النفسية بعضها بعضاً بصورة تلقائية، وتسمى الحالة المتقدمة المؤثرة والحالة التالية المتأثرة». مثال ذلك أن أقرأ كتاباً فأتذكر مؤلفه أو أتذكر شخصاً تربطني به علاقة؛ أو أذهب لزيارة صديق في القرية فأتذكر أموراً جرت لي من قبل في هذه القرية بالذات؛ أو أمرَّ أمام المنزل الذي كنت أستأجره فيخطر ببالي كثير من الأمور التي مرت بي أثناء سكني فيه.. وهلم جراً...

(١) النور: ٦١.
(٢) البقرة: ١٠.

وتداعي الأفكار يحصل:

بتجمع عدة أحوال نفسية فردية لتؤلف وحدة متكاملة، فإذا ما بُعثت إحدى هذه الحالات جذبت إليها الحالات الأخرى المتممة لها، وتكون قيمة هذه الحالات الجزئية أو الفردية بما تؤلفه من مجموعات. مثال ذلك: إن تعلم القراءة يستدعي سماع الأصوات التي تتشكل من الحروف، مضافة إليها الصور السمعية والبصرية وما تحتوي من معان، بحيث يتألف منها كلِّها مجموعات من الكلمات والجمل والأفكار لا يمكن تبيان أجزائها إلا بالتحليل. وهكذا فإن استحضار أي حالة من الأحوال الجزئية تبعث في الشعور جملة من الأجزاء الأخرى المتممة لها.

مثال آخر: استدعاء الأحوال النفسية بصورة متتالية. كأن تستدعي حالة نفسية معينة حالة أخرى مختلفة عنها، وهذه تستدعي حالة ثالثة، وهلمَّ جراً. بحيث يتألف منها جميعاً سلسلة متصلة الحلقات. وكل حالة نفسية سواء كانت إحساساً أم انفعالاً أم فكرة فإنها قادرة على أن تستدعي غيرها. ولكن تختلف قوة الاستدعاء باختلاف قوة الإيحاء. فالحبيب يعلم أن ذكرى حبيبه تثير فيه مشاعر كثيرة، والشاعر توحي له بعض المشاهد انفعالات مؤثرة فيبحث عن الألفاظ التي تصور تلك المشاهد وتهيج النفس بما توحي به من المعاني.

والأفكار المتتالية لا تتوقف عن التداعي إلا في حالة الركود الذهني، أو في حالة التأمل الشديد، أو الإدراك المسيطر. غير أن التأمل والإدراك لا يوقفان مجرى الصور إلا ليغيرا اتجاهه ويسيران معه. ولعل الأحلام والمنامات خير مثال على هذا المجرى الطبيعي لأن النفس فيهما تكون بعيدة عن التأثر بالواقع وأحكام العقل.

ويختلف نوع التداعي باختلاف الحالات النفسية، وهذا الاختلاف يحكمه قانون الاهتمام. وخلاصة هذا القانون: أن حالة نفسية معينة لا ترجح على غيرها من الحالات الأخرى إلا إذا كانت متناسبة مع الاهتمام الحاضر. ولذلك يؤثر الاهتمام في الحياة العفوية، وفي حياة التفكير والتأمل كما يؤثر الانتباه في التداعي.

وعوامل الاهتمام ثلاثة:

١ ـ شدة التأثير. ومثاله ذكريات الشباب التي تكون أقوى تأثيراً من ذكريات الشيخوخة.

٢ ـ الميول والرغبات. فالطفل مثلاً لا يميل إلا للألعاب التي تجذبه؛ والحديث عن الصحراء يؤدي للتفكير بالحر، وعندها لا يرغب الإنسان إلا في ظلال الأشجار وينابيع المياه.

٣ ـ المشاغل الحاضرة. فالإنسان لا يفكر أثناء القراءة إلَّا بفهم المعاني، ولا يدرك من معاني الألفاظ إلا ما يناسب سياق الكلام.

حلّ المشاكل

ما من إنسان في هذه الحياة إلَّا وتصادفه مشاكل متنوعة في حياته، حتَّى أنَّ السؤال الذي يطرحه على نفسه ولا يجد الإجابة عليه يعتبر مشكلة، والأمر الذي يريد تحقيقه ولا يعرف السبُل التي توصله إليه يعتبر مشكلة، والعقبات جميعها التي تعترض سير الإنسان هي أيضاً مشكلات.. حتى التساؤل عن نوع الطبخ اليومي عند العائلة، ووسيلة المواصلات إلى أماكن العمل قد تشكل مشكلة.. من هنا كان تشعب المشاكل وكثرتها، ومن هنا كان تفكير الإنسان في حل هذه المشكلات أو تذليل العقبات التي تُكَوِّنُها.

ويرى علماء النفس أن التفكير لحل المشكلة، أية مشكلة، لا بد أن يمر بمراحل. وقد قاموا بدراسة وتحليل مراحل التفكير هـذه، ووضعوا لها القواعد التالية:

أولاً ـ التفكير بوجود مشكلة: ليس هنالك شيء يمكن اعتباره مشكلة إلَّا إذا قرَّر التفكير أنه مشكلة، فإذا فكرنا بأي أمر من الأمور ولم يعطنا التفكير طريقة الوصول إليه وتحقيقه، عندها يكون فكرنا قد حكم بوجود مشكلة. ثم نشعر بعدها بدافع ملحٍّ إلى حلها. وتختلف قوة هذا الدافع بحسب نـوعية المشكلة ومـدى صعوبتهـا. والمشكلة تختلف بين شخص وآخر، فالمعوز قد تعترضه مشكلة تأمين القوت لعياله، بينما تعترض التاجر مشكلة تأمين الاعتماد لاستيراد البضاعة، في حين يرى الطالب في الدروس والمحاضرات التي لم يدرسها أو لم يفهمها مشكلة تعترضه لاجتياز امتحانه.. وهكذا الحال بالنسبة لجميع الناس. ولذلك كان التفكير بالمشكلة أولى المراحل التي يمر بها الفكر.

ثانياً ـ جمع المعلومات عن المشكلة: بعد أن يتأكد الإنسان من وجود مشكلة لديه فإنه يفكر في هذه المشكلة من جميع جوانبها، ويتفحَّص مختلف وجوهها وحـالاتها. وكثيـراً ما يعمـد إلى تقصّي المعلومات عنها، وهنا يبدأ بتجميع الأفكار حولها أو أنّ الأفكار ذاتها هي التي تتداعى وتتوالى، فيقارن فيما بينها ويختار منها ما هو ملائم يساعد على توضيح المشكلة، وفهمها، وتحديدها بدقة.

ثالثاً ـ وضع الفروض: أثناء جمع المعلومات المتعلقة بالمشكلة قد تطرأ على الذهن لدى الإنسان بعض الحلول المحتملة لها، أو بعض الافتراضات التي تساعد على حلها، فينظم هذه الفروض ويرتبها ثم يختار بعضها ممَّا يراه أكثر صلاحية وملاءمة للحل. ثم يعمد إلى

مناقشة أحد هذه الفروض فإذا وجدهُ غير ملائم استبعده ثم استبدله بآخر. وقد يقوم بمناقشة عدة فروض وتمحيصها في ضوء المعلومات المتوافرة لديه إلى أن يصادف أخيراً الفرض الذي يراه أكثر ملاءمة وانطباقاً، وأكثر صلاحية لحل المشكلة.

رابعاً ـ أفكار جديدة ومعلومات طارئة: بعد اختيار الفرض الأخير قد تطرأ على ذهن الإنسان أفكار جديدة أو قد تتوافر معلومات إضافية، فيقوم في ضوئها بتحليل المشكلة من جديد. وقد يجري الاستشارات ويقوم ببعض الأعمال، وكل ذلك للتأكد من صحة الفرض الذي اعتمده لحل المشكلة، حتى ينتهي أخيراً إلى الحل الذي يوافقه فيضعه موضع التنفيذ.

تلك هي المراحل التي تمر بها عملية التفكير عادةً في حل المشكلات التي تعترض الإنسان، ما لم يكن الإنسان متهوراً فيقدم على عمله دون أي استعداد أو سابق تفكير فيصطدم عندها بالصعوبات التي قد تشكل له مآزق خطيرة.

السيطرة على الانفعالات

إن الانفعالات، كما أشرنا من قبل، قد تساعد الإنسان في المحافظة على البقاء والنوع، إلا أن شدة الانفعالات وكثرتها قد تسبب للإنسان أضراراً نفسية وفيسيولوجية. وقد أثبتت الدراسات الحديثة في الطب النفساني أن نشوء كثير من الأعراض الجسدية إنما ينجم عن اضطرابات نفسية. وقد يتردد كثيرون على العيادات وهم يشكون من بعض الأمراض فيكتشف الأطباء أن العلاجات الطبية لا تفيدهم لأنهم يعانون من اضطرابات نفسية ناشئة عن مشكلات معينة في حياتهم.

ويحرص القرآن الكريم على توجيه الناس إلى التحكم في انفعالاتهم والسيطرة عليها لما في ذلك من فوائد جمة لهم. ذلك أننا نجد في القرآن الكريم زاداً لنفوسنا، وتربية قويمة لهذه النفوس، ولا سيما في السيطرة على انفعالاتها في أي أمر من الأمور سواء كان انفعال فرح أو حزن، جرأة أو خوف، أو حب للأبناء والأموال.. وما إلى ذلك.. ففي هذا الكتاب المبين توجيه ونصح وإرشاد لكل ما فيه خير الإنسان. وإن في قوة إيماننا وتصديقنا بكل ما جاء به القرآن والسنة النبوية الشريفة لتقويةً لنفوسنا تجعلنا قادرين على السيطرة على انفعالاتنا والتحكم فيها. ولذلك فإن المؤمن الصادق لا تعتريه الانفعالات الضارة، فهو مثلاً يكظم غيظه أو غضبه تجاه الناس، ولكنه يغضب لله تعالى ولما يُغضبه جلَّ وعلا. وفي ذلك سبل هداية للإنسان للسيطرة على انفعالاته. فلتكن حياتنا قائمة على منهج الإسلام حتى نحظى بهذه الهداية، وتكون لنا السيطرة على انفعالاتنا.

ويجدر بالمسلم خاصة، وبالإنسان عامة، أن يستفيد من التوجيهات القرآنية الواردة في كتاب ربِّ العالمين، وسنة رسوله الكريم، للسيطرة على انفعالات نفسه، وإلَّا عاش في القلق والضياع.

الفصل الثالث عشر

- القناعة والثقة
- الجدّيّة والتغيير



القناعة والثقة

يقولون: إن الثقة ناجمة عن القناعة بصحة الشيء وصدقه.

ويقولون: إن القناعة آتية من المشاعر، فهي تأتي للإنسان من غير براهين، وتذهب من غير براهين. والثقة ليست شيئاً يمكن الحصول عليه بالحجة والمنطق، بل بإيجاد القناعة التي قد تأتي اعتباطاً وتذهب اعتباطاً.

هذا القول باطل وغير مطابق للواقع.

فالثقة تنجم عن القناعة بصحة الشيء وصدقه بلا شك، أي بمطابقته للواقع، أو للفطرة، ولكنها لا تحصل إلاَّ بناء على برهان يثبت صحة الشيء وصدقه. وهذا البرهان إما أن يكون عقليّاً مرتبطاً بالمشاعر، وإما أن يشعر الشخص بصحته وصدقه فقط من غير أن يقوم دليل عقلي عليه، ومن تكرار ذلك تحصل القناعة وتتولد منها الثقة.

فالثقة لا تأتي اعتباطاً، ولا تذهب اعتباطاً، وإنما تأتي من تكرار ثبوت مطابقة الشيء للواقع، أو الفطرة العقليّة أو الشعوريَّة، وتذهب من تكرار ثبوت عدم صحته وصدقه. هذا هو الذي يُوجِدُ الثقة، وهذا هو الذي يزعزعها ويذهبها.

وحتّى تترسَّخ الثقةُ لا بد أن تنتقل من دور إقامة البرهان إلى دور البداهة، وذلك بتكرار ثبوت صحة الشيء وصدقه بالبرهان عقليّاً وشعوريّاً.

وكما أنه يصعب إيجاد الثقة في جو التشكيك، فكذلك تصعب زعزعة الثقة في جو الإيمان. وكما صَعُبَتْ على الغربيين زعزعةُ الثقة بصلاحية أحكام الشريعة الإسلامية لمعالجة مشاكل العصر عندما كان الجوُّ جوَّ إيمان، فكذلك ليس من السهل على الدعاة إلى الإسلام أن يعيدوا هذه الثقة بصلاحية الإسلام في جو التشكيك المفتعل بالإسلام.

وهنا لا بدَّ أن ينشأ الصراع العنيف حول هذه الأفكار والأحكام، أي الصراع العقائديّ الذي تصطدم فيه العقول والمشاعر فيما بينها اصطداماً يلتمع من خلاله ضوء الحقائق، ويشرق نورها، فينجلي فساد الأفكار والأحكام الجارية، بظهور فساد وجهة النظر المنبثقة عنها. ويلمس المسلم حينئذٍ صدق عقيدته وصحة معالجتها، كما يلمس الكافر والمنافق، مِن الصراع الفكري، والنقاش العميق، بُطلانَ وجهة نظر الكفر وصحة وجهة نظر الإسلام. ويتجلّى عند ذلك للناس جميعاً فسادُ النظام القائم، وصلاح حكم الإسلام.

فإذا تكرر ثبوت صحة أفكار وأحكام الإسلام، وصدقُها، وُجِدَت القناعةُ بها، وتولدت عن هذه القناعة الثقة بها وحدها دون سائر الأفكار والأحكام الموجودة في العالم.

وإذا عمَّتْ هذه القناعةُ الناسَ، وتركَّزت الثقة في نفوسهم، وَوُجِد رأي عامٌّ منبثقٌ عن وعيٍ عام، فإن النهضة تكون قد دبَّت في الأمة، وأصبح بإمكانها إقامةُ حكم الله مهما وقف في سبيلها من

عقبات، لأن الأفكار القوية تزيل أكبر قوة سياسية، وتُبطل كلَّ فكر باطل، وتدمِّر كل حُكم فاسد.

إن عدوَّنا حوَّل عداوتنا له من عداوة كفر وإيمان إلى عداوة استعمار واستغلال، ومن عداوة مسلمين إلى عداوة مستعمَرين، وحوَّل بغضنا له من بُغض مسلمين لِكفَّار بالإسلام إلى بغض وطنيين لأجانب. وبذلك أنسانا مرارة الهزيمة بوصفنا مسلمين، وأزال عنها كونها هزيمة كفر للإسلام، وذلك حتى يتحوَّل كفاحُنا له من جهادٍ نطلب فيه رضوان الله تعالى إلى كفاح رخيص كالمظاهرات والاحتجاجات للحصول على الاستقلال، أي على الانفصال عن باقي بلاد الإسلام!.

فإلى متى نغفل عن هذه الخطط الجهنَّميَّة الكافرة؟

لا مندوحة لنا عن إعادة الصراع بيننا وبينه إلى صعيده الأصلي.. أي إلى الصعيد المبدئي العقائدي، فإنَّ لدينا عقيدة ونظاماً نتحدّى بهما سائر البشر. ولكن لا بدَّ لنا أولاً أن نعرف عدونا من هو، وأن نتخذه عدوّاً.

وإذا لم نعرف جهة العداوة بيننا وبين عدونا، والسبب الذي يحمل لنا من أجله العداء، فلا يمكن إنقاذ أنفسنا من براثنه، وبالتالي لا يمكن التغلّب عليه.

وإذا لم نتخذه عدوّاً، فإننا سنجعل أنفسنا تحت سيطرته، أو تحت رحمته بلا شك. وعلينا أن لا ننسى ما قاله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾(1).

ولن ننسى في ذات الوقت أنه قال عزَّ من قائل: ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ

(1) فاطر: ٦.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1]. فقد جاء القرآن بكيفية معاملة الأعداء بآيات صريحة تقرع الآذان وتوقظ العقول وتهز النفوس. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[2]. وقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾[3]. وقال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[4].

ولذلك كان من المحتم على المسلمين الكثير من الكفاح المرير في سبيل بثِّ أفكار الإسلام. ولا بدَّ كذلك من كفاح شديد مع العملاء، ومع الملحدين، وسائر أعداء الدين في مختلف الجبهات.

وهنا قد يرد استيضاح:

إذا كانت البلاد الإسلامية مقسمة إلى دول فعلاً، وإذا كانت متحررة من الاستعمار، وحُكَّامُها مسلمون، فالكفاح إذن يجب أن ينصبَّ على الأنظمة التي تخالف الإسلام فقط!..

الجواب على ذلك: إن الأمة منكوبة ببلاءَين اثنين:

أحدهما: بعضُ حُكَّامها وكونُهم عملاء للمستعمرين.

وثانيهما: أن معظمها تُحْكَمُ بغيرِ ما أنزل الله.

ولذا تملكت بعضَ الحكام في العالم الإسلامي حالتان اثنتان:

---

(١) النساء: ١٤١.

(٢) الممتحنة: ١.

(٣) آل عمران: ٢٨.

(٤) النساء: ٨٩.

ففي الحالة الأولى: قد أثَّرت عليهم الأنظمة الغربية حتى أفقدت بعضَهم الإيمانَ بالإسلام كنظام للحكم وكنهج للحياة، فأصبحوا في صف الأعداء ولو صلُّوا وصاموا.

وفي الحالة الثانية: يبرز الشعور بالعجز الدائم عن الوقوف في وجه الدول الكبرى. وهذا العجز هو الذي بعث في نفوس البعض يأساً من صلاح هذه الأمة إلا بالاستناد إلى عمالة دولة كبرى تنافسُ الدولةَ التي تستغلهم وتستعمرهم. وأدّى ذلك إلى تصوُّر انتقالهم من أحضان استعمار إلى أحضان استعمار آخر، فَجُسِّمَ الخطر بنظرهم، وأُبْعدت من ذهنهم إمكانيةُ إعادة الدولة الإسلامية إلى الوجود، مع أنهم يؤمنون بالإسلام كنظام للحكم وكنهج للحياة.

إنّ عدم الثقة بالإسلام كمبدأ عالمي للحياة، وعدم الثقة بالأمة الإسلامية كأمة قادرة على أن تحتل مكان الصدارة بين الأمم، أضف إليهما الرعبَ الذي قذفته الدول الكبرى في قلوب المسلمين بما لديها من وسائل الدمار وأساليب المكر والخداع.. كل ذلك جعل المسلمين يَنْأَوْن بجانبهم عن الإسلام، ويجعلون ركيزة بقائهم في الحكم تقوم على الاستعانة بالدول الكبرى، والاستناد إليها، لا الاستعانة بالله العظيم والاستناد إلى أمتهم، مما دفعهم للاستسلام كليّاً إلى الحكام الغربيين والشرقيين معاً، فضاعوا وأضاعوا...

ولذا، فإن الغربيين، ومَنْ وراءَهم من العُملاء، سيقاومون فكرة إعادة الثقة بالأفكار الإسلامية، وبأحكام الإسلام، وسيبذلون قصارى جهدهم لخنق كل صوت يرتفع بالدعوة إلى الله تعالى وإلى الدين الإسلامي.

ومن هنا ندرك الصعوبة في تثبيت الإسلام في قلوب المسلمين،

وجعله طريقاً وحيداً للعيش من قِبَلِهم.

الثقة بالنفس:

ومن واجبات الإنسان، بشكل عام، والإنسان المسلم خاصة، أن يتحلى بالقناعة والثقة بالنفس. ومما يساعد الإنسان على الثقة بنفسه أن يعرف قيمته الإنسانية وما كرَّمه خالقه به، وأن يكون شعوره بذاته حسناً وراقياً، لما في ذلك من تأثير كبير في سلوكه. فإذا كانت أفكار الإنسان ومشاعره عن نفسه توحي له بأنه جدير بحب الناس وثقتهم، وأنه صالح في مجتمعه، وأنه يتحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الطيبة، فإن سلوكه يكون في العادة متفقاً مع أفكاره ومشاعره. وعلى العكس من ذلك إذا كان تفكير الإنسان يُشعره بأنه فاشل في الحياة، وغير صالح في تعامله مع الآخرين، وأن الناس يمقتون تصرفاته، ويكرهون وجوده وعشرته، فإن من شأن ذلك أن يفقده الثقة بنفسه، وأن يزعزع علاقاته بالناس، مما يؤثر في سلوكه، ويجعله غير قادر على القيام بأي عمل فيه نجاح له.

وغالباً ما تنشأ الثقة بالنفس عن التربية في البيت، والمدرسة، والتنشئة في المجتمع، ومن خبرات الإنسان وتجاربه في المواقف التي يتعرض فيها للفشل أو النجاح، للنقد أو المديح، للعقاب أو الثواب.

والتربية النبوية للمسلمين كانت أكبر عنوان على غرس الثقة في نفوسهم، بما قام به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم من تخليصهم من مشاعر النقص والضعف والتفسخ والعصبية الجاهلية، وغير ذلك من النقائص التي كان الناس يعيشون في أجوائها ولا يشعرون بتفاهتها وعدم صلاحيتها لنفوسهم وعيشهم.

ومن أهم مزايا تلك التربية الإسلامية تعليم المسلمين القرآن

وإفهامهم معانيه، وحثُّهم على التخلّق بأخلاق هذا القرآن المجيد الذي يهدي للتي هي أقوم، ومن ثم الاستسلام لله العلي القدير، والأخذ بالأسباب والمسببات ثم التوكل على الله، والصدق في القول والعمل، والخشية من الله تعالى دون خشية الناس مهما كانت الظروف والأحوال. عن سعيد الخدري أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يحقر أحدكم نفسه»، فسألوه: وكيف يحقر أحدنا نفسه يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يرى أمراً لله عليه مقال ثم لا يقول فيه. فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى».

وعن تربية الأولاد وحث الآباء على تعزيز الثقة بنفوسهم كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو القدوة الحسنة في ذلك، لما كان يعامل به أولاده، ومن بعدهم حفيديه الحسن والحسين عليهما السلام. وكان يعظ الصحابة ويحثهم على حسن معاملة أولادهم. عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

وقد أولى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اهتماماً بالاسم لما له من أهمية على شخصية الإنسان وثقته بنفسه، لأن الاسم الجميل من العوامل التي تكوّن الشعور الحسن بالذات. ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يكره الأسماء القبيحة، ويحاول أن يغيّرها بأسماء حسنة.

عن ابن عمر قال: «إن ابنة كانت تسمى عاصية، فسماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميلة». وعن أسامة «أن رجلاً يسمى أصرم جاء مع نفر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما عرف اسمه قال له: «بل أنت زرعة»[1].

---

(١) زرعة من الزرع وهو بخلاف أصرم من الصرم أي القطع الذي ينبىء بانقطاع الخير والبركة.

وقد غيّر الرسول ﷺ اسم شهاب فسماه هشاماً، وغيّر اسم حرب فسماه سلماً، كما غيّر أسماء العاص والمضطجع وغراب، وغير ذلك من أمثال هذه الأسماء، واستبدل بها أسماء ذات معانٍ حسنة.

وهكذا تتبين لنا أهمية الثقة بالنفس كأحد الأسس التي تبنى عليها الصحة النفسية.

والنفس تحتاج إلى علاج كما البدن يحتاج إلى علاج.

الجدّيّة والتغيير

إن أكثر تفكير الناس خالٍ من الجدية، فهم يقومون بأعمالهم عن طريق العادة وبحكم الاستمرار. والجدية لا بد أن تُقصد قصداً، والقصد أساسٌ لها. والجدية التي نعني هي الجدية التي تكون في مستوى ما يفكر به المرء، وإن كانت الجدية دون مستوى التفكير فلا تعتبر جدية.

والجدية في التفكير لا تستلزم قصر المسافة بين الفكر والعمل ولا تقتضي طولها، لأن العمل هو نتيجة للفكر. فقد يفكر المرء بالسفر إلى أوروبا وقد تطول المسافة بين هذا التفكير وبين السفر إلى أوروبا. وقد يفكر بتناول الطعام ويطول الوقت بين التفكير وبين تناول الطعام. وقد يفكر بأن ينجح في تجارته أو يترقى في وظيفته وقد تقصر المسافة بين تفكيره وبين نجاحه في تجارته أو بين ترقيته في وظيفته. وقد يفكر بإنهاض أمته وقد تقصر المسافة بين تفكيره وبين وجود النهضة. فالمسألة ليست بطول المسافة أو قصرها، لأن المسافة بين التفكير والعمل قد تكون قصيرة وقد تكون طويلة، وهذا ليس هاماً، بل المهم هو أن يوجد عملٌ من جراءِ التفكير، سواء أوجده نفس المفكر أو أوجده سواه.

فالتفكير يجب أن يترجم إلى إنتاج معين سواء كان كلاماً كالشعر والأدب، أو كان أعمالاً كتلك التي يقوم بها العلماء في العلوم التجريبية، أو كان خططاً كتلك التي يقوم بها علماء السياسة وقادة الحروب، أو كان فعلاً مادياً كالطعام والتعليم والبناء، إلى غير ذلك من الأفعال. . .

وعليه فالجدية أمرٌ ضروري في التفكير، سواء أنتجَ أم أخفق في الإنتاج، وبدون الجدية يكون التفكير عبثاً أو لهواً أو رتيباً يسير على وتيرة واحدةٍ، بحكم العادة وبحكم التقليد. والتفكير الرتيب يستمرىء الحياة التي عليها المفكر والحياة التي عليها الناس، ويبعد عن الأذهان فكرة التغيير والتفكير بالتغيير.

فما هو التغيير الذي نقصد؟

التغيير

مما لا شك فيه أن واقع المسلمين في أواخر القرن العشرين أصبح واقعاً سيِّئاً جداً، إذ وصلوا إلى الحضيض في الانحطاط الفكري والتخلف المادي، لأنهم ضُلِّلوا وضلُّوا سياسياً إلى حدِّ القطيعة والاقتتال فيما بينهم. ومثل هذا الواقع الأليم يفرض ـ ولا ريب ـ ويؤكد ضرورة تغييره لاستعادة دَورهم الفعَّال على الصعيد العالميِّ والإنساني. ولا يكون ذلك إلّا عن طريق التغيير الإسلامي المنشود الذي هو وحده الكفيل باستعادة ذلك الدور. . بل نُنَبِّهُ إلى أن القيام بمهمة التغيير يعتبر تكليفاً شرعياً لا يجوز القعود عنه ولا التهاون فيه حتى لا نكون مأثومين عند الله سبحانه وتعالى. .

وعندما نقول بضرورة التغيير الإسلامي فذلك لأن المنهج

الإسلامي هو بطبيعته منهج تغييري يتناول الإنسان والحياة والكون بنظرة شاملة متكاملة، لا مجال فيها للترقيع أو الاقتباس عن غيرها. إذ إن الإسلام كلٌّ متكامل لا يحتاج إلى غيره في شيء سواء في المفاهيم والتعاليم والأحكام والأصول، أو في الفكرة والطريقة والمنهج والأسلوب التي تكفل جميعها عملية التغيير. فالإسلام عقيدة كاملة متكاملة، وتطبيقها يجب أن يكون كاملاً متكاملاً، بحيث تؤخذ كلاًّ بلا أدنى تجزئة، إذْ لا يمكن تطبيق أحكامها أو منهجها مثلاً في بعض المجالات دون مجالات أخرى. فإمَّا أن تكون عقيدة الإسلام هي القاعدة، وتكون الشريعة الإسلامية هي المنهج، وبذلك يكون الكلُّ إسلامياً صرفاً، وإمَّا أن يكون غير ذلك من العقائد والشرائع هو غير الإسلام.. ولا هوادة في ذلك..

ومن المعلوم أنه ما وصل المسلمون إلى واقعهم المأساوي اليوم إلا عندما اعتمدوا أَنصاف الحلول أو حاولوا الاستعارة من المناهج الأرضية لتطبيقها في مجتمعاتهم الإسلامية، فضاعوا وتاهوا عن الحقيقة، وابتعدوا عن السبيل السويِّ عندما ابتعدوا عن منهجهم الأصيل، أي المنهج الرباني الذي لا يستوي معه منهج آخر، ما دامت جميع المناهج الأخرى هي من صُنع الإنسان. وتظلُّ هذه المناهج مقصرةً وناقصة وبعيدةً عن بلوغ منهج الله تعالى الذي يبقى وحدَه الحق والصواب مهما كذب الناس على أنفسهم حين يضعون مناهج لهم تناهض مناهج السماء. فالمنهج الربانيُّ هو وحدَه الذي يحقق العدل والقسط بين الناس ويحقق حاكمية الله تعالى في الأرض. فهل يريد الناسُ حاكمية أخرى غير حاكمية الله تبارك وتعالى؟.. نعم، لقد أرادوا ذلك وابتدعوا نظماً وتشريعات وضعية أقلُّ ما يقالُ فيها أنها لم تُراع قوانين الله سبحانه، ولم تتناسق مع قواعد حاكميته، فسيطروا فيها

على المجتمعات البشرية، وكانت النتائج التي لم تخفَ على كل ذي بصيرة: تخبُّطاً في الفوضى والمشاكل، وضياعاً وتياهاً، وسيطرةً للمادية والإلحاد، وتنكُّراً لقواعد العدل والإنصاف، وهدراً لحقوق الإنسان وقيمه، وتجاهلاً لكلِّ المعاني التي تشرِّف الإنسان وتقوده نحو الكمال والسعادة..

من هنا كان على المسلمين، وهم يحملون شريعة الله الكاملة، ويعتنقون مبدأه الحق، أن يدركوا قبل غيرهم، بُعدهم هم أنفسهم أولاً عن إحقاق حاكمية الله تعالى في الأرض، وأن يلاحظوا بعد ذلك تنكرُّ غيرهم لهذه الحاكميَّة.. وبهذا الإدراك يبرز العبء الثقيل الذي ينبغي أن يكون على عواتقهم بضرورة المبادرة إلى التغيير واستئناف الحياة الإسلامية امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[3].

والتغيير المنشود سواء كان تغييراً لنفوس الأفراد أو أحوالهم، أو تغييراً للمجتمعات، أو تغييراً لأوضاع الشعوب، فإنه يجب أن ينطلق دائماً من الأساس الذي تقوم عليه حياة الإنسان. وأن يبدأ بالمجتمعات التي لا قواعد ولا أُسس تقوم عليها حياتها، أو التي تقوم على أساسٍ خاطىء. وأن يتناول الأوضاع غير المستقيمة وغير المستقرَّة. وينظر أولاً

(١) آل عمران: ١٩.
(٢) النساء: ٦٥.
(٣) الشورى: ١٠.

إلى هذا الأساس، فإن كان عقيدةً عقليةً تتجاوب مع فطرة الإنسان، فإنه حينئذٍ لا يحتاج إلى تغيير، ذلك لأن التغيير إنما يُفترض حيث لا تكون الأشياء صحيحة، وحيث لا تكون الأمور مستقيمة، أي حيث يكون الخطأ ماثلاً للعقل، أو بارزاً لمشاعر طاقة الإنسان الحيوية.. أما إذا كان العقل موقناً يقيناً جازماً بصحة الشيء، واستقامة الأمر، وكانت الطاقة الحيوية مشبعة ومرتاحة.. فإن فكرة التغيير تنعدم كليّاً، طالما أنَّ أساس الحياة عقيدة تتجاوب مع فطرة الإنسان.

والمسلمون، وهم من نعموا بالعقيدة العقلية التي تتجاوب مع فطرة الإنسان السليمة، كان غريباً منهم أن يقعوا فيما وقع به غيرهم ممَّن ليس عندهم هذه العقيدة الحقة. ولذلك كان لزاماً عليهم أن يُحدثوا التغيير أولاً في نفوسهم حتى تعودَ أفكارهم ومشاعرهم متوافقة مع عقيدتهم، ثم كان عليهم أن يُحدثوا التغيير عند الناس الذين لا عقائد لهم، أو الذين لهم عقائد لا تستقيم مع أحكام العقل، ولا تتجاوب مع فطرة الإنسان.. وإحداث التغيير عند الناس يستدعي حمل الدعوة الإسلامية إليهم حتى يعتنقوا العقيدة العقلية التي تتجاوب مع فطرة الإنسان. وبذلك تتحقق حاكمية الله تعالى على الأرض، وتنعم البشرية بالعدالة التي يؤمِّنها لها الإسلام..

فالتغيير يجب أن يبدأ بالأساس، أي بالعقيدة التي يعتقدها الناس، أو بالعودة إلى هذه العقيدة عند من يؤمنون بها ولكن لا يعملون بحسبها.. فإذا جرى تغيير هذا الأساس وحلَّ محله الأساسُ المقطوع بصحته وصدقه، فعندئذٍ يتحوَّل التفكير إلى تغيير المجتمعات والأوضاع، أي تغيير المقاييس والمفاهيم والقناعات، لأنه إذا وجد الأساس الصحيح الصادق فإنه يكون هو المقياس الأساسي لجميع المقاييس، والمفهوم الأساسي لجميع المفاهيم، والقناعة الأساسية

لجميع القناعات، وبه تتغير القيم كلُّها: قيم الأشياء، وقيم الأفكار، وبالتالي تتغير مقوِّمات الحياة..

فالتفكير بالتغيير لا بد أن يكون عند الإنسان، أو لا بد أن يوجد عند الإنسان. وكل من يملك عقيدة عقلية متجاوبة مع فطرة الإنسان يوجد لديه التفكير بالتغيير، إما بالقوة أي بأن يكون كامناً فيه، وإما بالفعل كأن يباشر التفكير بالتغيير أثناء خوضه معترك الحياة...

والتفكير بالتغيير لا يعني أنه موجود فقط عند الذين يشعرون بضرورة تغيير أحوالهم أو أفكارهم، بل هو موجود ما دام في الكون حالة تقتضي التغيير. ولذلك فإن التفكير بالتغيير لا يقتصر على تغيير المرء لحاله، ولا تغييره لذهنية شعبه وأمته، بل يتعدى ذلك كله لتغيير الناس الآخرين، لتغيير أوضاع مجتمعه والمجتمعات الأخرى الأجنبية.

والسبب في ذلك هو أن الإنسان فيه خاصية الإنسانية، ولا يمكن لفرد من البشر أن يسمَّى إنساناً ما لم تكن لديه هذه الخاصية التي تفرض عليه النظر للإنسان كإنسان أينما كان: سواء في بلده أو في غير بلده، في دولته أو في دولة غيرها، في أمته أو في أمة أخرى. فالإنسان يحاول إحداث التغيير في كلِّ مكان وفي كل شيء يحتاج إلى التغيير، حتى تتناسق أمور الحياة، وتتناغم مسيرتها، فلا يعود التقاتل أو التنافر أو التنابذ قائماً بين الأفراد والمجتمعات والدول، بل تسود علاقات التعاون والتضامن والتكافل التي ترتبط بها جميع الجهود المخلصة، وتتلاقى عليها جميع الإرادات الخيِّرة.. وكل ذلك من خلال عمليات التغيير...

ولكن ما هو تأثير هذا التغيير في العلاج النفسي؟

إن إحداث أي تغيير - أو تعديل - في شخصية الإنسان أو

سلوكه، يجب أن يسبقه تغيير في أفكاره واتجاهاته، لأن سلوك الإنسان يتأثر إلى حد كبير بأفكاره واتجاهاته. وهذا ما يتوخاه العلاج النفسي أساساً، أي تغيير أفكار المريض النفسي عن نفسه، وعن غيره من حوله، وعن الحياة، وعن المشكلات التي عجز عن مواجهتها من قبل وكانت سبباً في قلقه.

وحين تتغير أفكار المريض النفسي، وتظهر له بوضوح الأسباب الكامنة وراء قلقه، فإنه قد يرى الأمور بصورة مختلفة، ويجد أنه لم يكن هنالك مبررات تستدعي كل ذلك القلق الذي كان ينتابه.

والعلاج النفسي هو في أساسه عملية تعليم جديدة يتم فيها تبديل أو تغيير الأفكار والمشاعر والعادات والسلوك التي يكون المريض قد تعلمها أو اكتسبها بطرق خاطئة أو وهمية عن نفسه وعن غيره وعن المجتمع، وعن كل الأمور التي كانت تواجهه وتسبب له القلق والتعاسة.. وتكون مهمة المعالج النفسي تصحيح أفكار المريض لكي ينظر إلى كافة الأمور نظرة واقعية صحيحة، تمكنه من مواجهة مشكلاته بدلاً من الهرب منها، والعمل على محاولة حلها بدلاً من البقاء في حالة الصراع النفسي الناشىء عن العجز السابق. ويصاحب ذلك، بطبيعة الحال، شعور المريض بالنشاط والحيوية، وبتغيير فعلي في حالاته النفسية، بما يجعله قادراً على أن يعاود ممارسة حياته بصورة طبيعية بعيدة عن الاضطراب أو المرض، أو القلق، بل وفيها اطمئنان وسعادة ورضا.

ولقد كانت مهمة القرآن الأساسية مواجهة الناس في الصميم من أعماق أنفسهم، ومدَّهم بأفكار ومشاعر جديدة يستطيعون بواسطتها تغيير عقيدتهم الدينية، وأنماط عيشهم وعاداتهم الجاهلية، ومن ثم إعدادهم

لحمل الرسالة بقوة الإيمان، وبدافع شعور القناعة والرضا. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] لأن تغيير ما في الأنفس يعني تغيير الأفكار، والمشاعر، والاتجاهات، والسلوك.

وقد أحدث القرآن الكريم ذلك التغيير الرائع فبدّل الجهل والضلال بالعلم والهدى، والكفر والشرك بالإسلام والإيمان، والانغماس في متاع الحياة الزائل بحمل أعباء الدعوة الإسلامية، والتخلّق بالفضائل والمكارم، والسير على منهج الله تعالى لإصلاح الأرض بعد فسادها.. وقد نجح القرآن الكريم والرسول البشير النذير نجاحاً عظيماً في ذلك كله، بحيث تغيرت حياة الناس تغييراً جذرياً، وانقلبت رأساً على عقب، وخاصة بعد إرساء دعائم النظام الإسلامي في المدينة المنورة والانطلاق منها إلى أنحاء الجزيرة كافة، لتتخطاها بعد أعوام عديدة وتطرق أبواب العالم كله في مشارق الأرض ومغاربها. مما جعل مفاهيم الإنسانية الحقة تنتشر لأول مرة بين الناس، فيقيمون علاقاتهم على أساس الإيمان والتقوى، واحترام الكائن البشري لخصائصه الإنسانية.

الأصالة

من هنا كان مفهوم الرجوع دائماً إلى الأصالة، إلى أصالة النفس الزكية التي تعرف الخير من الشر، والصواب من الخطأ. والأصالة تعني الصدق، ويطلق لفظ الأصالة على كلّ عملٍ صادر حقاً عن صاحبه. ويقابله المنحول. فتقول الوثيقة الأصلية أو الأصيلة أي الوثيقة

---

(١) الرعد: ١١.

التي كتبها المؤلف بيده صدقاً، أو القاضي أو الموظف الرسمي المختص. ويطلق هذا اللفظ على صدق مضمون الوثيقة ومصداقيته للواقع.

الأصالة في علم الأخلاق هي الصدق والإخلاص.

والأصالة هي أيضاً الأفكار والعواطف الصادرة حقاً عن صاحبها.

والأصالة في الإنسان إبداعه، وفي الرأي جودته، وفي الأسلوب ابتكاره، وفي النسب عراقته. ولذلك تكون الأصالة ضد السخف، والإسفاف، والابتذال. وليس من الأصالة في شيء أن يكون المرء غريب الأطوار، كثير المدح لنفسه، متفاخراً، مخالفاً لقواعد السلوك المألوفة السليمة، لأن الخروج عن النظام، وعن المألوف السليم في حياة الناس فيه حمق وسخف، أكثر مما فيه فطنة وذكاء وأصالة.

الفصل الرابع عشر

- الظروف والملابسات
- الأحداث والوقائع
- الأجواء والمناخات[٧]

إن من أهم المقوّمات لصحّة النفس أو مرضها

ما تعيش فيه من مناخات وأجواء

بما فيها الظروف والملابسات، والأحداث والوقائع.

وهذه لمحة موجزة

عن

كل منها وفقاً للمفاهيم

الإسلامية.

الظروف والملابسات

الظرف

الظرف في اللغة: الوعاء، وكل ما يستقر غيره فيه. ومنه ظرف الزمان وظرف المكان عند النحاة. والظرف: الحال (جمعه ظروف). والظرفية هي حلول الشيء في غيره حقيقة: مثل حلول الشراب في الكأس، ومجازاً مثل: النجاة في الصدق.

والظرف في الاصطلاح: هو الفرصة المناسبة لحدوث الشيء. ويمكن للإنسان أن يوجد ظرفاً أي وضعاً مناسباً له، ويمكن أن يقع عليه ظرف مناسب فيستفيد من أوضاعه، أو ظرف غير مناسب فيتضرر منه.

والقرآن الكريم من بين أهدافه السامية معالجة الأوضاع التي تحيط بالإنسان أو تقع عليه. فمثلاً لو ساءت أحواله الصحية ثم تدهورت، وخاف على حاضره وغده، فإن القلق سوف يستبدّ به، وتبعد عنه الطمأنينة. ولكنَّ إيمان الإنسان القوي بربه سبحانه وتعالى يجعله يستيقن بأن له مصيراً محتوماً لا يمكنه تبديله أو تغييره بإرادته،

ما لم يشأ الله تعالى له ذلك. فإن اطمأنّ لهذا الإيمان اعتبر أن تغيّر الظروف والأوضاع لن تغيّر من مصيره شيئاً، حتى ولو جاءت بالأذى والضرر له. وعندها تطمئن نفسه، ويهدأ باله، فلا يعود هنالك مجال للقلق حتى يغلب على اطمئنانه، ولا للأمراض سبيل حتى تسيطر على نفسه. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾(١).

﴿وأصلح بالهم﴾... إنَّ إصلاح البال نعمة كبرى من نعم الله تعالى على الإنسان لأنها مرتبطة بنعمة الإيمان، وهي تعني الطمأنينة والراحة والثقة والرضا والسلام. ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والأمان.

الملابسات

اللَّبس هو ستر الشيء. يقال لَبَسْتُ عليه أمره، أي خلطت عليه الأمر حتى لا يعرف جهته. وألبست القوم لبْساً، إذا جعلت الأمر يُشْكِلُ عليهم.

ومعنى اللبس، في حياة الإنسان الداخلية، هو منع النفس من إدراك الشيء بما هو على حقيقته، كالستر له. والالتباس هو الإبهام والاشتباه والخلط بين الأشياء. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢). والمعنى: أن

---

(١) محمد: ٢.

(٢) الأنعام: ٨٢.

المؤمنين الذين عرفوا حقيقة وجود الله تعالى، وصدقوا به، وبما أوجبه عليهم، ولم يخلطوا ذلك الإيمان بظلم أي بشرك، أولئك لهم الأمان النفسي، وهم مهتدون من ربهم.

وعندما نزلت هذه الآية الكريمة قال الصحابة: «يا رسول الله أيّنا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون. ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح لقمان ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[1] إنه الشرك».

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾[2].

هذه الآية الكريمة تُظهر أن المشركين كانوا يلحّون على رسول الله ﷺ أن ينزل الله ـ تعالى ـ عليه ملكاً يصدقه في دعوته. وكان الرسول ﷺ يبيّن لأولئك المشركين أن الملائكة خلق آخر غير خلق الإنسان، خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله سبحانه. وقد أعطاهم الله تعالى من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤمرون بعمل يؤدونه في حياة البشر، كتبليغ الرسالة، أو تهديم أو تدمير من يريد جلَّ شأنه أن يعاقبهم على معاصيهم، أو تثبيت المؤمنين في القتال، إلى آخر الأفعال التي يقص القرآن الكريم أخبارها عن الملائكة، والتي كانوا يكلفون بها من ربهم، فلا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولو شاء الله تعالى أن يرسل ملكاً يصدق رسوله محمداً ﷺ لظهر ذاك الملاك للناس في صورة رجل ـ لا في صورته الملائكية ـ

---

(١) لقمان: ١٣.
(٢) الأنعام: ٩.

وعندئذٍ يلتبس الأمر عليهم مرة ثانية. وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة، فيمنعون أنفسهم من إدراكها، ومحمد ﷺ يدلي أمامهم بحقيقته وهو يقول لهم: أنا محمد الذي تعرفونه، أرسلني الله تعالى خالقكم لأنذركم وأبشركم ثم لا تصدقونني.. فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك - في صورة رجل - لا يعرفونه ثم يقول لهم: أنا ملاك أرسلني الله تعالى لأصدق رسوله.. فهل كانوا يصدقونه وهم يرونه رجلاً كأيّ منهم؟ إنهم يلبسون الحقيقة البسيطة، فلو أرسل الله تعالى ملكاً لجعله رجلاً ولعادت فالتبست عليهم الحقيقة الكبيرة، ولما اهتدَوْا قطُّ إلى يقين.

وهكذا يكشف الله تعالى - في الآية المبينة - جهل الذين اختلط عليهم الأمر - أي التبس - بطبيعة خلق الله العلي العظيم، كما كشف لهم جهلهم في معرفة سنته في خلقه.. وذلك بالإضافة إلى كشف تعنّتهم وعنادهم بلا مبرر، ولا برهان، ولا دليل معرفة.

الأحداث والوقائع

الحادث هو ما يكون مسبوقاً بالعدم. والحادث هو الواقع، فالأمر حدث أي وقع. والفرق بين الحادث والشيء، أن الشيء حقيقة ثابتة مؤلفة من الصفات الموجودة في المكان، على حين أن الحادث حقيقة متحركة منسوبة إلى الزمان. ومثال ذلك أنَّ صخرة الجبل شيء، أما سقوطها في الوادي فهو حادث. والحادث أعمُّ من الظاهرة، لأن الظاهرة تدل على ما يمكنك رؤيته أو ملاحظته، في حين أن الحادث يدل على ما يُرى وما لا يُرى، وله نسبة إلى الزمان كالحادث النفسي، أو إلى الزمان والمكان كالحادث المادي.

أما الواقعة فهي الحادث الذي يكون وجوده الزماني أكثر خطورة من وجوده المكاني: كالواقعة التاريخية.

ومن هذه المفاهيم يمكن أن نستشفَّ بأنَّ الإنسان يمكن أن يعيش في ظل ظروف وأوضاع قد تكون سليمة أو قد تلبس عليه، كما يمكن أن يعايش أحداثاً ووقائع ذاتية ومادية قد تريحه وقد تضغط عليه، وكلها ترتبط بالمناخات أو الأجواء العامة القريبة والبعيدة التي تؤثر على حياة الأفراد، وعلى حياة الناس بما تكون معبَّأة به أو مرسومة له. وقد كان آباؤنا الأولون عندما يشعرون بأنَّ الأماكن التي يقطنونها بدأت أجواؤها الإيمانية تخفُّ، يسارعون بالانتقال إلى أمكنةٍ أكثر إيماناً، وأكثر ملاءمةً لنفوسهم، ولتنشئة أبنائهم في أجواء إيمانية. وكانوا عندما يسألون عن سبب تركهم الديار يجيبون: إنا مهاجرون إلى ربنا.

وقد يقع الإنسان فريسة للظروف والأجواء التي تحيط به، فيقع في الأمراض النفسية والبدنية. وقد يستطيع التأقلم مع تلك الأجواء والمناخات، ويتجاوز مصاعب الظروف ومتاعبها، فينجو من آثارها السيئة. ومن هنا نشأت أبحاث علماء النفس حول الصحة البدنية والنفسية، أي حول توافق الفرد مع نفسه ومع محيطه، بل ومع العالم كله، وقدرته على تحمل أعباء الحياة ومواجهتها، وتقبله للوقائع والأحداث الخارجة عن إرادته. أي بمعنًى آخر إن الصحة النفسية تتعلق بالنضج النفسي، وبالمؤثرات الحسية أو المادية التي تتقلّب في حياة الإنسان.

وقد وضع علماء النفس المحدثون تعريفات كثيرة للصحة النفسية، نستقي منها التعريف الذي وضعته هيئة الصحة العالمية حيث قالت عن الصحة النفسية بأنها: «تكيّف الأفراد مع أنفسهم ومع العالم

عموماً، مع حدٍّ أقصى من النجاح والرضا والانشراح والسلوك الاجتماعي السليم، والقدرة على مواجهة حقائق الحياة وقبولها». .

وإن مختلف التعريفات، للصحة النفسيّة، التي وضعها علماء النفس المحدثون، سواء كانوا من الغرب والشرق أم من المسلمين، تدور كلها حول «تكيّف الفرد وتوافقه مع نفسه ومع المجتمع، ومدى قدرته وفاعليته في القيام بشؤون حياته الواقعية، وإشباع حاجاته المادية الدنيوية».

الأجـواء والمناخات

ومن الأجواء والمناخات التي يعيشها الإنسان الضحك واللهو والمزاح وما يرادفها أو يضادها، كما في الضحك الذي يضاده البكاء، واللهو الذي يضاده الخشوع، والبطر والطرب اللّذين لا يتماشيان مع القناعة والعبادة. وقد رأينا أهمية الضحك والبكاء كحالات انفعالية في النفس، فما مدى التأثير الذي تحدثه الانفعالات الأخرى في أجواء أو مناخات معينة؟

اللهو والمزاح

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1]. وفي تفسيره قال كثيرون ومنهم ابن عباس وابن مسعود (رضي الله عنهما): إنَّ «لهو الحديث هو الغناء، وما يتبعه من آلات اللهو». فعندما يعيش الإنسان في مناخ غناء وطرب فإن غرائزه هي التي تهيج حتى تسيطر عليه وتتحكم به، فيبعد عن التفكير الرصين، وتظهر عليه الانفعالات وما قد

---

(١) لقمان: ٦.

يصاحبها من سلوك شائن، أو ما يرافقها من اللهو العابث في تعاطي المسكرات والمخدرات حيث يكون الجو مشبعاً بكل ما يثير مظاهر الغرائز الشهوانية.

ويقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

نزلت في شأن الصحابة لما أكثروا المزاح فقال تعالى منبهاً لهم ما معناه: ألم يحن لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزّل عليهم من القرآن حتى لا يكونوا كاليهود والنصارى، الذين أوتوا الكتاب من قبل هذا القرآن، فطال عليهم الزمن بينهم وبين أنبيائهم، فلم تلن قلوبهم لذكر الله حتى صار كثير منهم فاسقين؟!.

لقد خاطب تعالى المؤمنين، الذين نبههم إلى حالتهم تلك من المزاح، بموعظة دالّة وعبرة عظيمة، بما يفيد: اعلموا أيها المؤمنون أن الأمر ليس بيدكم، وأن نفوسكم ليست من صنعكم، فالله تعالى هو الذي خلقكم وزوّدكم بهذه الجوارح التي تدفعونها إلى المزاح، وقد عرفتم حلاوة الإيمان ونعماءه، فاعلموا أن الله سبحانه كما يحيي الأرض بعد موتها بإنزال الماء وإنبات النبات لهو قادر على أن يفعل بقلوبكم كذلك، فيردها إلى الخشوع. وقد ضرب الله سبحانه لكم هذا الإحياء للأرض مثلاً من آياته الكثيرة الدالة على قدرته لعلكم تعقلون ذلك، ويجب أن تعقلوه، فتردعوا أنفسكم عن كثرة المزاح أو اللهو

---

(١) الحديد: ١٦ ـ ١٧.

الذي يبعدكم عن مناخات العبادة وأجواء الإيمان.

ويقول عبد الله بن مسعود (رض) في ذلك: «لما أكثر المسلمون المزاح ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآيات إلا أربع سنين». وهو تحذير متجدّد للمسلمين من الركـون إلى اللهو والمزاح والضحك، ونسيان حياة الجد والانضباط التي يريدها الإسلام صوناً لصلاح الدنيا وضماناً لصلاح الآخرة.

ووفقاً للمفاهيم الإسلامية لا يعني ذلك أن المزاح كله حرام، فإنه إن كان خالياً من حرام أو غيبة أو لمز أو همز أو غير مبالغ فيه، وكان مما يستدعيه الجو المناسب، فلا بأس به عندئذٍ. وكذلك الأمر بالنسبة للضحك القليل، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يضحك أحياناً حتى تظهر نواجذه (أي أضـراسه الداخليـة) كمـا روى ذلك البخـاري. ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن كثرة الضحك لأنها تميت القلب. قال الصحابة: يا رسول الله إنك تداعبنا ـ أي تمازحنا ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لا أقول إلاَّ حقاً». وروي عن أنس بن مالك (رض) قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخالطنا ـ بالملاطفة والمزاح ـ حتى يقول لأخ لنا صغير: يا أبا عمير ما فعل النُغير؟» ـ والنُغير: طائر البلبل.. وطلب رجل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمله على دابة فقال له: «إني حاملك على ولد الناقة». فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ ـ وكان يقصد أنه صغير لا يصلح للركوب ـ فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تَلِد الإبلَ إلا النُّوقُ؟».

أما المزاح بالكذب فهو حرام. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ويل للذي يحدِّث بالحديث ليُضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له».

وهنالك عادة في بعض البلاد العربية تأتي في هذا السياق وهو ما يعرف «بكذبة نيسان» إذ يعتبرها كثير من الناس «كذبة بيضاء» في حين

أنها أشنع أنواع المزاح لأنها كذب، والكذب مذموم مهما كان نوعه أو الغاية منه.

البطر والطرب

يقال في اللغة: بَطَرَ الشيء يبطِرُهُ ويبطُرُهُ بَطْراً إذا شقَّه. وأصل البطر الشق، ومنه البيطار لأنه يشق اللحم بالمبضع. وبَطِرَ الرجلُ يبطَرَ بَطْراً إذا دَهِش وتحيَّر في الحق فلا يراه حقاً. وبطِرَ الشيءَ أي كرِهَهُ وهو لا يستحق الكراهة.

والبطر هو حالة نفسية من الدهش تعتري الإنسان بحيث يقوم بالتصرف بالنعمة التي أنعمها الله عليه دونما اعتدال أو اتِّزان، والتهرب من القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجوهها، كما في قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾[1]. أي كفرت بالنعمة وأسرفت في معيشتها ولم تشكر الله تعالى على ما آتاها من فضل وبركة، فكان جحودها سبباً في هلاكها. وكثيرة هي القرى التي نزل بها الهلاك بسبب هذا البطر والإسراف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2].

إنه توجيه وإرشاد للمؤمنين بألَّا تأخذهم حالة البطر أبداً في حياتهم، لأنها تؤدي بهم إلى ما لا يرضاه الله تعالى، وإلى ما لا يريده سبحانه لعباده المؤمنين. ويعطي الدليل على ذلك ما أصاب قريشاً يوم خرجت إلى بدرٍ ﴿بطراً ورئاء الناس﴾ أي خرجت وزعماؤهما مأخوذون

---

(١) القصص: ٥٨.

(٢) الأنفال: ٤٧.

بالبطر، وهم يعلنون ويدَّعون أنهم لن يرجعوا إلى مكة حتى يشربوا الخمر وينحروا الجُزُر، فيلهون ويطربون على ضرب القيان وغنائهن، وأنغام اللهو والمتع، وفي وهمهم أن العرب تتسامع بذلك فترهبهم، وتظل على اعترافها بسيادتهم في الجزيرة فلا تتبَّع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أو تدخل في دينه.

ومن هنا فإن الطرب يقارب البطر، لأنَّه خفة في النفس. وهي حالة أكثر ما تعتري الإنسان في الفرح، فيقال طَرِبَ الرجلُ يطرَبُ طَرَباً أي فرح وضدها حَزِن. واستطرَبَ القوم: اشتدّ طربُهم. والمطرب الذي يَطرَبُ سامعُهُ بحسن صوته وغنائه.

والناس يأخذهم الطرب، ويعتبرون ذلك من مباهج الحياة التي تسرّي عن النفس وتجعلها تستمتع بالأصوات الجميلة، والحفلات الموسيقية الرنانة. وحجتهم أن الإنسان لا يجوز أن يعيش في الكمد والغمّ، وأنهم يعبّرون في ذلك عن ذوقهم الرفيع الذي ينمُّ عن شفافية النفس في الاستمتاع الموسيقي.

وهذا يقتضي توضيح مفاهيم الإيقاع والذوق ليصار من ثمَّ إلى تفنيد تلك الادعاءات وإظهار بطلانها..

الإيقاع

يقال للايقاع في اللغة: اتفاق الأصوات وتوقيعها في الغناء. وفي الاصطلاح: اتصاف الحركات والعمليات بالنظام الدوري. أما من حيث الموسيقى فيطلق الايقاع على نظم حركات الألحان وأزمنتها الصوتيّة في طرائق موزونة تسمّى بأدوار الإيقاع. ويكون الايقاع عادة مصحوباً بنقرات مختلفة الكم والكيف تدل على بداية اللحن أو نهايته، أو على

أماكن الضغط واللين في أجزائه. وهو يختلف باختلاف مراحل اللحن. وما يقال على الايقاع الموسيقي يقال كذلك على إيقاعات الألفاظ في الشعر والنثر.

الذوق

حاسة تدرك بها الطعوم والمشارب من حلو، ومالح، ومرّ، وحامض.. وآلته الأعصاب الحسية الموجودة في اللسان. والذوق أيضاً قوة إدراكية في النفس إن بإدراكها لطائف الكلام ومحاسنه، أو ميلها إلى بعض الأشياء التي تريحها: كتذوق المطالعة، أو تقدير القيم الخلقية والفنية والإنسانية، أو كتذوق الفنون من الشعر والأدب والموسيقى.

وللذوق تأثير في نفس الإنسان حتى ليعتبره البعض نوعاً من الطبع كما لو تقول: فلان مرهف الذوق أي رقيق الطبع. والذوق السليم يعبَّر به في القدرة بالحكم على الأشياء حكماً صادقاً ودقيقاً.

هذا من حيث المفاهيم العامة، والتي تعتبر صحيحة في تفسيرها لحقيقة الفنون مثل الموسيقى، أو تقديرها لبعض الحواس كالذوق..

ولا يعترض أحد بأن للفنون عامة أهميتها في تربية الإنسان وصقل مشاعره، وتهذيب أحاسيسه. كما لا يعترض أحدٌ بأن الله تعالى قد أودع في الإنسان من حسن الصنع وبديع التكوين والتقويم ما يؤهله للاستفادة من خَلْقه، والتنعم بجمال الحياة وآثار الوجود، شرط أن يكون ذلك بلا مبالغة ولا إسراف حتى لا يخلَّ بسلامة النفس وصحة الجسد، مما يؤدي أخيراً إلى الاضطرابات النفسية والأمراض الجسدية.

ولذلك يجب أن يكون واضحاً بأن مختلف المناخات والأجواء التي يعيشها الإنسان إنما تؤثر في النفس البشرية تأثيراً كبيراً. فإن عاش الإنسان في مناخ الغناء والطرب مثلاً فإن غرائزه تسيطر عليه، ومنها غريزة النوع التي ينتج عنها بعض المفاسد، مثل الانصراف إلى تعاطي الخمر، أو اشتداد الشهوة الجنسية، وما يرافق ذلك.. لأن أجواء الغناء والطرب مما يثير الأحاسيس، كالشهوة الجنسية التي تنتج عن المؤثرات الخارجية، بمعنى أن أسباب إثارتها تأتي من الخارج، بعكس الحاجة العضوية مثل الشهوة إلى الطعام أو الشراب التي تتحرك من الداخل وتنم عن حاجة طبيعية إلى إشباع الجوع أو العطش.. وهذا ما يجعل للجو أو المناخ الذي نتكيّف به، ونكيّف به أجسادنا وأنفسنا، تأثيراً كبيراً على سلوكنا في الحياة. وكما تتأثر أجسادنا بالأجواء والمناخات التي تعيش فيها من حيث الرطوبة والحرارة، أو البرودة والتدفئة، فكذلك الأمر مع النفس لو كان الإنسان يعيش في أجواء الميوعة أو الجدّية، وأحوال الرعب أو الأمان.

ولو تحرّينا اليوم ما تحدثه أماكن اللهو والعبث، وحلبات الرقص والغناء، من ميوعة في نفوسنا ونفوس أبنائنا وبناتنا لظهرت لنا النتائج السيئة التي سيحصل عليها أولادنا ـ والعياذ بالله ـ من فسادٍ وانفلات من قيمنا الإسلامية، ولشعرنا ـ نحن الآباء ـ أننا نساهم بانتشارها ـ بطريقة أو أخرى ـ غير مدركين، أو ربما غير آبهين، لما قد تجره علينا من عواقب وخيمة. ولو أن الغرب، الذي يعيش في هذه الأجواء الصاخبة والغارقة في بحار الموسيقى والغناء، فكَّر وأمعن التفكير، لظهر له أي «خير» جناه لنفسه ولغيره من الناس من تلك الأجواء الانفلاتية!.. ألم يعلم أن استغراق «المطروب» في «طربه» يشل نشاطه الجسدي

والذهني، ويقضي على همته واندفاعه إلى العمل النافع، ويغرق قلبه في الغفلة؟

وإذا كان الغرب لا يعي ذلك، أو هو يعيه ولكن أَفْلَتَ الزمام من يده، وترك لأبنائه «الحرية الشخصية المطلقة» في اختيار السلوك الذي يريدون، فلأنه ليست عنده الروادع والزواجر الدينية الموجودة في إسلامنا، والتي فيها الحكم الصحيح على الحياة باتساقها، وتناغمها، واستقامتها، بحيث تتوافق مع طبيعة الكون بأسره في نظامه واتساقه. فنحن المسلمين لدينا القرآن الكريم، وفيه الآيات البيّنات التي تفتح أبصارنا وبصائرنا على بديع خلق الله من اختلاف الليل والنهار، وتعاقب الفصول والأزمان، وتعاقب حالات النمو والانحلال.. أليس كل ذلك مما يبعث في النفس الإنسانية عوامل النشاط والحركة، واليقظة والسكون، والإقدام والإحجام؟.. ألا يدلّ ذلك دلالة قاطعة على أن هذه النفس مرتبطة بنظام الكون كله، ومتصادقة لا متصادمة معه؟ وهل يجوز أن نخالف نظام وجودنا، وأن نقضي على عوامل نمونا وتكاملنا بإشاعة أجواء ومناخات تغاير مقاييس خلقنا وتكويننا النفسي والعضوي؟!.. ثم إننا نسأل ونتساءل: هل الإنسان الذي يعيش في أجواء ومناخاتٍ غير إسلامية، كمن يعيش في أجواء ومناخات إسلامية حيث يكون العلاج النفسي بالتقوى وأداء العبادات، فيتحقق للإنسان بذلك أمانه النفسي؟

الفصل الخامس عشر

- مجاهدة النفس

مجاهدة النفس هي التي تكسب الإنسان مناعةً نفسية وقوةً في الإرادة، تجعل من هذا الإنسان مخلوقاً جديداً: صادقاً لا يكذب، مستيقناً لا يظن، عفوّاً لا ينتقم، صابراً لا يجزع، مخلصاً لله مجانباً للرياء، حسن الحديث إذا حدّث، حسن الاصغاء إذا استمع.

وهي لعمري صفات الإنسان المؤمن.

وسوف نتكلم أولاً في مجاهدة النفس، ثم عن المناعة النفسية، ثم عن هذه الصفات المثلى التي يتحلى بها من يعمل على مجاهدة نفسه. وهي:

- تحرّي الصدق والإقلاع عن الكذب.
- اعتماد اليقين والابتعاد عن الكثير من الظن.
- التحلّي بالعفو والتخلّي عن الانتقام.
- الاستعانة بالصبر وترك الجزع.
- الإخلاص لله ومجانبة الرياء.
- حسن الحديث.
- حسن الاستماع والإصغاء.

مجاهدة النفس

حساب النفس أو مجاهدتها هو كالجهاد في سبيل الله تعالى سواء بسواء. بل هو الجهاد الأكبر. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]. ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه في عودةٍ لهم من إحدى الغزوات «انتهيتم من الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر» فقالوا له: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟! قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هو جهاد النفس».

والجهاد والمجاهدة: معناهما استفراغ الوُسْع في مدافعة العَدُوِّ.

والجهاد ثلاثة أنواع: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾[2]. وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم».

ومجاهدة النفس هي عامل هام في تربية الإنسان، وتحسين

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الحج: ٧٨.

سلوكه وعلاقاته. قال الإمام الغزالي: «اعلم أن النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتربية والتغذية المناسبة، فكذلك النفس تخلق ناقصة، قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية، والتزكية، وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم». وجعل ابن قيم «. . . رياضة النفس بالتعليم والتأديب والتعويد على الفرح والسرور، والصبر والشكر، والإقدام والشجاعة، والعفو والإحسان، وفعل الخيرات. . فلا تزال النفس ترتاض بذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير هذه الصفات عادات راسخة وملكات ثابتة».

ولئن كان مطلوباً من الإنسان تعويد نفسه وتدريبها على تلك القيم، وهذا ما يقتضي الصبر والمجالدة، والمجاهدة في كل شيء، إلّا أنه تبقى لعوامل الوراثة، وظروف البيئة التي يعيش الإنسان في وسطها، ولا سيما في البيت والمدرسة، تأثيرها على تمكين الإنسان من مجاهدة نفسه.

وأيّاً تكن العوامل أو المسببات فإن الدوافع الذاتية لدى الإنسان هي المعوّل عليه في تكوين مجاهدة النفس، ومدِّها بالمناعة التي تقيها من الوقوع في الأمراض والهواجس المزعجة والخطرة على الصحة النفسية. ولذلك نجد أن القرآن الكريم يؤكد كثيراً على عمل الإنسان وما لديه من استعدادات، فإن هو غلّب استعدادات الخير في نفسه أتاه العون من ربه من حيث لا يحتسب، وأمدَّه بكافة الإمكانيات والوسائل التي تساعده وتقوده في طريق الحق والصواب.

وعلى الإنسان أن يدرك ذاته، وأن يقوم بإرادته واختياره على مجاهدة نفسه، وإلزامها تحمل المسؤوليات، والابتعاد عن الانحرافات، حتى تصبح قادرة على اكتساب الأفكار الصحيحة، وتهذيب المشاعر،

والسيطرة على الانفعالات والميول والرغبات وتوجيهها توجيهاً سليماً يتوافق مع منهج الله تعالى وتكامل الإنسان في حياته. وليس معنى ذلك أن يقهر الإنسان كل شعور أو رغبة أو ميل لديه، بل عليه أن يعمل على إشباع حاجاته العضوية وغرائزه وفقاً للقاعدة الإسلامية: «لا إفراط ولا تفريط». وهذا ما يلبي الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، ويؤمن له السلوك الحسن.

المناعة النفسية

وقد ظهرت في علم النفس أبحاث حول ما يسمى «بالمناعة النفسية». وهذه المناعة هي نظرية قائمة على الفرض، وقابلة للاحتمال بين الصح والخطأ. ويقصد بـ«المناعة النفسية»: «قدرة الإنسان على مواجهة الأزمات والكروب، وتحمل الصعوبات والمصائب، ومقاومة ما ينتج عنها من أفكار ومشاعر الغضب والسخط والعداوة والانتقام، أو مشاعر اليأس والعجز، والانهزامية والتشاؤم».

وأبحاث علم النفس تشبِّه المناعة النفسية بالمناعة الجسدية، فكما أن المناعة في الجسم تنشطه وتقويه وتجعله أكثر قدرة على مقاومة الأمراض واحتمال آلامها، فكذلك المناعة النفسية تحصّن النفس بقدرات تجعلها قادرة على رفض السوء وتقبل الخير.

وبعض الباحثين يرى أن المناعة النفسية تكون على ثلاثة أنواع:

١ ـ مناعة نفسية طبيعية: وتكون موجودة في الأصل في تكوين الإنسان النفسي نتيجة لعوامل الوراثة والبيئة. وهي التي تمنح المرء عادة مناعة شديدة ضد كل الأفكار والمشاعر التي من شأنها إضعاف النفس وإحباط قواها.

٢ ـ مناعة نفسية مكتسبة: وتـأتي من تجـارب الإنسان وخبراته ومعارفه، التي تكون بمثابة مقوّيات نفسية من شأنها تنشيط جهـاز المناعة النفسي وتقويته. وكلما تعرض الإنسان للمشاكل والعوائق فإنها تكون أكثر فائدة في تنمية قدرته على التحمّل أو مجاهدة النفس، واكتساب خبرات وتجارب جديدة من شأنها تنشيط المناعة النفسية لديه.

٣ ـ مناعة نفسية مكتسبة صناعياً: وهي التي يكتسبها الإنسان من تعريض نفسه، بإرادته وطواعيته، لمواقف تثير فيه الاضطرابات أو تبعث لديه الشقاء والقلق، بغية التمكن من السيطرة على انفعالاته النفسية المؤذية أو الجنوحة، واستبدالها بأفكار ومشاعر مفيدة وهادئة.

ومع أن الدوافع والانفعالات غالباً ما تكون خارجة عن فعل الإرادة، إلا أن تغيير الأعمال الإرادية أو تبديلها يمكن أن يؤدي إلى تحسين الأفكار والمشاعر التي لا تقع تحت سيطرة الإرادة. ولذلك يعتبر بعض الباحثين أن عملية إكساب الإنسان مناعة نفسية تعتمد اعتماداً كبيراً على فعل الإرادة، وعلى عزم الإنسان تصحيح طريقته في التفكير، وبذل أقصى ما يستطيعه من جهد لتنمية أفكار السعادة، ومقاومة أفكار الشقاء لديه. لأن غاية الإنسان في هذه الحياة نيل السعادة والابتعاد عن الشقاء.

على الإنسان أن يتحرّى عن الصدق ويقلع عن الكذب.

تحري الصدق والإقلاع عن الكذب

الصدق والكذب يكونان في القول الذي يفوه به الإنسان متى أخبر عن شيء أو التزم بوعد أو غيره. ولكنهما أعمّ في الخبر أو

الإخبار عن غيره من أصناف الكلام. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[2].

والصدق في الاصطلاح هو مطابقة القول والنيّة والمحكي عنه معاً. ومتى فقد أحد هذه الشروط لم يعد صدقاً تاماً، كما لو قال منافق: «محمد رسول الله»، فإن هذا يصح أن يكون صدقاً لكون المخبر عنه كذلك، ويصح أن يكون كذباً لمخالفته ما يضمر المنافق في نفسه وهو عدم الاعتقاد برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[3].

وقد يستعمل الصدق والكذب فيما يختص بالاعتقاد كقولك: صدق ظني، كذب ظني..

والصدق يظهر في القول وفي الفعل معاً. قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾[4] أي يسأل من صدق بلسانه عن صدق فعله تنبيهاً أنه لا يكفي الاعتراف بالحق دون اقترانه بالفعل. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾[5] أي حقق ما أورده قولاً بما قام به فعلاً.

ويعبَّر عن كل فعل فاضل، ظاهراً كان أو باطناً، بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به، نحو قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ

(١) النساء: ١٢٢.
(٢) النساء: ٨٧.
(٣) المنافقون: ١.
(٤) الأحزاب: ٨.
(٥) الزمر: ٣٣.

صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[3] فإنه سؤال من النبي إبراهيم عليه السلام أن يجعله الله تعالى صالحاً بحيث إذا أثنى أحدٌ عليه من بعده لم يكن ذلك الثناء كذباً، بل يكون كما قال الشاعر:

إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ فأنت الذي نُثني وفوق الذي نُثني

وهكذا فإن الصدق يكون بالقول أو بالفعل. وصِدْقُ القولِ هو الإخبار بالحقيقة ويسمى بصدق اللسان. وصدق الفعل هو الإخلاص في العمل بحيث لا يكون أي تناقض بين الظاهر وبين الباطن.

والصِّدِّيق هو من صَدَقَ بقوله واعتقاده وحقَّق صدقه بفعله. قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[4].

والصداقة هي صِدْقُ الاعتقاد في المودّة. قال تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[5].

والشاعر يعرّف الصديق بقوله:

صديقي من يردّ الشرَّ عني ويرمي بالعداوة من رماني
ويحفظني إذا ما غبت عنه وأرجوه لنائبةِ الزمانِ

وتحري الصدق على هذا النحو هو في صميم التعاليم الإسلامية، بل هو من الفضائل التي دعت إليها جميع الأديان

(١) القمر: ٥٥.
(٢) الإسراء: ٨٠.
(٣) الشعراء: ٨٤.
(٤) مريم: ٤١.
(٥) الشعراء: ١٠١.

السماوية.. وهو من الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة التي تبعث الاطمئنان في النفس، وتمنح الإنسان الكرامة في عيشه والمكانة الرفيعة بين أفراد بيئته. ولذلك يهتم المربّون والأهلون، بتعويد أطفالهم الصدق منذ نعومة أظفارهم حتى يشبُّوا وقد اكتسبوا هذه العادة الفاضلة، لأن الصدق يعلي مكانة صاحبه، ويشبع كثيراً من حاجاته النفسية والمجتمعية. وهذا ما يجعل الصادق مقدراً ومحترماً في مجتمعه، بخلاف الكاذب الذي يزدريه الناس، وهو ممقوت حتى من عشيرته ومن أقرب الناس إليه. وَلْنَعِ وصيَّة والد لولده وهو يقول له: «يا بني إياك والكذب، فإنَّ الكذاب إذا قال حقاً لم يصدّق، وإذا عمل خيراً لم يوفَّق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدال على فضيحته بمقاله، فما صحَّ من صدقه نُسِبَ إلى غيره، وما صحَّ من كذِبِ غيره نُسِبَ إليه».

أما في علم النفس فإن المعالجين والأطباء النفسانيين يدعون إلى الصدق في القول والعمل لأنهم يعتبرونه وسيلة ناجعةً في العلاج النفسي، وفي حال وجوده دليلاً على الصحة النفسية، بخلاف الكذب الذي يعتبرونه عاملاً على الوهن النفسي. وهم يعزون الصدق والكذب إلى عمل الإرادة التي تشجع على هذا أو ذاك بحسب الدوافع والانفعالات والغايات التي يراد تحقيقها.

وقد أثبتت الدراسات المتعلقة بالسلوك أنَّ الصدق يؤدي إلى تخفيف القلق والتوتر ويزيل الكآبة، بينما يؤدي عدم الصدق في التعبير عن الانفعالات النفسية إلى ظهور السِّلِّ والسَّرطان. وتستعمل آلات كشف الكذب لأغراض كثيرة، ومنها معرفة تأثير التغيرات الفيزيولوجية التي يحدثها الكذب على الجسم، وما قد تورث هذه التغيرات من اضطرابات عصبية وانفعالات نفسية متعددة.

والله تعالى يحب الصادقين، ويأمر عباده المؤمنين أن يكونوا صادقي القول، لأن في ذلك صلاحاً لأعمالهم وغفراناً لذنوبهم. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1]. بل إن في الصدق بعهد الله تعالى الخيرَ العميم لقوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[2]. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن تأثير الصدق والكذب في النفس فيقول: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة». ويُنبِّه كذلك إلى ما يهدي إليه الصدق، فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق، ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «تحروا الصدق وإن رأيتم الهلكة فيه، فإن فيه النجاة».

على الإنسان أن يجاهد نفسه باعتماد اليقين وتجنب الكثير من الظن.

اليقين والظن

اسم لما يحصل عن علم أو أمارة. ومتى قويت هذه الأمارة أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز ما تدلّ عليه حدَّ التوهم.

ويلاحظ أن القرآن الكريم كان اهتمامه منصبّاً على حث الإنسان على الملاحظة والاستقراء، وتحرّي العلم والمعرفة. ولعلَّ في الآيات الأولى التي تلقاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الملك جبريل عليه السلام ما يدل على أهمية العلم والمعرفة في حياة الإنسان، إذ ابتدأت الرسالة الخاتمة إلى

---

(١) الأحزاب: ٧٠.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

الأرض بالحث على العلم والتعلّم بدليل قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾(١). هذا فضلاً عن تكرار القرآن الكريم الحث على التعقل والتدبر والعلم وما إلى ذلك، من مثل: ﴿أفلا يعقلون﴾، ﴿أفلا يتدبرون﴾، ﴿لقوم يعقلون﴾، ﴿إن كنتم تعقلون﴾، ﴿لعلهم يتفكرون﴾، ﴿لقوم يتفكرون﴾...

وهذا الحث القرآني هو الذي دفع المفكرين المسلمين إلى الإقبال على تحصيل العلوم بعقول نيّرة منفتحة، فأوجدوا من الاجتهادات ما سهل سبل العيش المتوافق مع الإسلام، وما أوجد من العلوم أنفعها وأعمَّها. إلاَّ أنه ويا للأسف، لم تستمر هذه النهضة الفكرية الإسلامية، بل راحت عوامل التقهقر تفعل فعلها في عقول المسلمين ونفوسهم حتى وصل المسلمون إلى عصر الانحطاط. هذا في الوقت الذي أخذ الغرب علومهم وسار عليها، وطوّر العلوم الحياتية الماديّة فانتقل من ظلمات الجهل التي كان يعيش فيها إلى نور المعرفة واستخدام ما توصل إليه من علوم تتعلق بوسائل المعيشة. ثم أعدَّ ما استطاع من قوة لحماية مكتسباته، حتى باتت علومه هي التي تسيطر على العالم، وتوجّه الناس إلى ما يخدم الغرب وأهله.

ومن اهتمامات القرآن تلك نلاحظ أن الظن قد ورد فيه بمعان ثلاثة:

المعنى الأول هو العلم بغير يقين والذي لا يرجح صدقه. ومن قبيل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِى ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾(١). وقوله تعالى:

---

(١) العلق: ٣ ـ ٥.

(٢) الأنعام: ١١٦.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[1].

المعنى الثاني هو العلم بغير يقين والذي يحتمل الخطأ والصواب. فهو إذن افتراض يحتاج إلى أدلة لتأييده أو تفنيده. ويكون الظن بهذا المعنى مماثلاً للفرض العلمي الذي يقتضي التمحيص والتحرّي والتجربة حتى يصبح نظرية علمية، تكون بذاتها قابلة للتعديل أو التغيير. ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2] أي ظن أن الله تعالى لن يضيّق عليه.

والمعنى الثالث هو العلم الذي يرجح صدقه، أو العلم مع اليقين بصدقه. ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[3]. أي الذين يعلمون يقيناً أنهم سوف يلاقون ربهم وأنهم إليه يرجعون. وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾[4] أي اعتقدوا اعتقاداً كانوا فيه في حكم المتيقنين. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[5].

والظن في كثير من الأمور، مذموم. ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى

---

(١) النساء: ١٥٧.
(٢) الأنبياء: ٨٧.
(٣) البقرة: ٤٥ - ٤٦.
(٤) الحشر: ٢.
(٥) البقرة: ٢٤٩.
(٦) يونس: ٣٦.

﴿ ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾[1]. ومثل هذا الظن هو من قبيل التوهم.

الشك

هو تساوي نقيضين بحيث لا يرجح العقل أحدهما على الآخر، وذلك لوجود علامات متساوية عند النقيضين، أو لعدم وجود أية علامة أو دلالة فيهما.

والشك ربما كان في الشيء أي هل هو موجود أو غير موجود؟ وربما كان الشك في جنس الشيء. وربما كان في بعض صفات الشيء الخ.. فهو إذن مما لا يجد الرأي مستقراً يثت فيه، ويعتمد عليه.

واشتقاق الشك قد يكون من: شككت الشيء أي خرقته، كقول الشاعر:

وشككت بالرمح الأصم ثيابَهُ ليس الكريم على القنا بمحرَّمِ

والشك هو نوع من الجهل، وهو أخصّ من الجهل. ولذلك قيل: إن كل شك جهل، وليس كل جهل شكاً. قال تعالى: ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ بَلۡ هُمۡ فِى شَكٍّ يَلۡعَبُونَ ﴾[3].

والفرق بين الشك والريب أن الشك هو ما استوى فيه اعتقادان، أو لم يستويا، ولكن لم ينتهِ أحدهما إلى درجة الظهور، في حين أن الريب هو ما لم يبلغ درجة اليقين، وإن ظهر. ولذلك يقال: شك

(١) القصص: ٣٩.
(٢) فصلت: ٤٥.
(٣) الدخان: ٩.

مريب، ولا يقال ريب مشكوك. فالشك إذن بداية الريب، كما أن العلم بداية اليقين.

الحدس

الحدس في اللغة: الظن والتخمين، والتوهم في معاني الكلام والأمور، والنظر الخفي، والضرب في الأرض على غير هداية، والمضي على غير استقامة، أو على غير طريقة مستمرة..

والحدس، في الاصطلاح، هو سرعة انتقال الذهن للقواعد المرتبة في النفس دفعة واحدة من غير مقصد واختيار، فيحصل المطلوب.

اليقين

اليقين هو القصد الجازم الذي لا يعتريه شك ولا ريب. فيقال: استيقن وأيقن. قال تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[3]، أي ما قتلوا عيسى بن مريم (عليهما السلام) قتلاً تيقّنوه، بل إنهم حكموا بذلك تخميناً ووهماً.

واليقين فوق المعرفة والدراية، ولذلك يقال: علم اليقين، ولا يقال: معرفة اليقين.

---

(١) الجاثية: ٣٢.

(٢) الذاريات: ٢٠.

(٣) النساء: ١٥٧.

والعلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب. ولذلك فإنه ينبغي للعالم إذا أراد الوصول إلى اليقين أن ينتقد علمه، أو أن يفنّده، وأن يحرر نفسه من الأفكار السابقة، وأن لا يقبل أمراً على أنه حق ما لم يعرف أنه حق فعلاً ببداهة العقل. أي أن على العالم أن يتجنّب التسرع والظن والفرض عند إعطائه الحكم، وألّا يدخل في أحكامه إلا ما يبدو لعقله واضحاً ومتميزاً إلى درجة تمنعه من وضعه موضع الشك أو الريب.

على الإنسان أن يتحلّى بالعفو ويتخلّى عن الانتقام

العفو والانتقام

يقال في اللغة: عفا عن ذنبه يعفو عفواً، أي أعرض عن عقوبته وهو يستحقها. وعفا الله تعالى عن فلان: أي محا ذنوبَهُ.

وقد يستعمل «عفا الله عنكم» فيما لم يسبق به ذنب كما تقول لمن تجلّه وتعظّمه: «عفا الله عنك ما صنعت في أمري» أي أصلحك الله وأعزَّك.

والعفو هو المعروف أو الفضل أو خيار الشيء وأجوده، أو أحلُّ المال وأطيبه. والعفُوُّ هو الكثير العفو.

والانتقام هو عكس العفو. تقول: انتقم الله منه أي عاقبَهُ. والمنتقم من أسمائه تعالى وهو البالغ في العقوبة.

والعفو والانتقام من المشاعر التي تنتج عن الحالات التي يواجهها الإنسان في علاقاته مع الآخرين. فقد يتعرض الإنسان للإهانة أو الإيذاء أو الضغط المعنوي وما إلى ذلك.. فتتولد لديه مشاعر القوة والانتقام أو مشاعر القوة مع القدرة على العفو، أو ربما يجد نفسه

عاجزاً عن الدفاع أو اتخاذ موقف مواجهة، فتتولد لديه مشاعر القلق أو الإحباط أو القنوط...

والإنسان عندما يحاول الانتقام ممن أساء إليه فإن النزعة العدوانية تكون قد غلبت عليه، وانفعال الغضب قد أخذ منه كل مأخذ، فيسلك طريق العدوانية تلك، ويعمد إلى الردّ على الفعل السيء بمثله أو ربما بأشدَّ منه. كما يحصل في المجتمعات التي ما تزال عادة الثأر تسيطر على نفوس أبنائها، أو كما هو الحال مع كل إنسان يحسُّ الضعف والمهانة وينتظر الفرصة المؤاتية كي ينقضَّ على من يعتبره مسبباً له الضرر أو الأذى.

والانتقام لا يولد مع الإنسان، ولكن الظروف والأحداث الفردية هي التي تغرسه في الأنفس، كما أن للتربية والعادات أثرها أيضاً في توليد الانتقام وإشاعته، مما يجعل آثاره السيئة تطال المجتمع والأفراد على حد سواء..

والإنسان المدرك لا يجعل لمشاعر الانتقام سبيلاً إلى نفسه حتى تسيطر عليه، وتضعف إرادته، وتذهب برجاحة عقله، بل يحاول، عندما يتعرض لأية إساءة أو أذى، أن يسيطر على نفسه، وأن يكبح جماح غضبه ويمارس ضبط النفس. وهذا لا يتم إلا بعملية إرادية تحوّل مشاعر الكراهية والانتقام إلى مشاعر الصبر والعفو.

وقد يجد الإنسان في نفسه، عندما يعفو عمن أساء إليه، شعوراً بالارتياح أكثر بكثير مما لو استجاب لردّة الفعل العدوانية. وهذا الشعور يقوّي التسامح في نفسه، ويؤمن له مناعة وقدرة على التحكم بهيجان أعصابه. ومن هنا كانت فائدة العفو والتسامح لا يدانيها فائدة فهي تريح نفس الإنسان، وترفع من مقامه بين أترابه، ويكون عزيزاً محترماً

في مجتمعه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً».

وما من انتقام في الواقع إلاَّ وكان فيه أذىً لصاحبه بمثل ما يكون فيه أذى لغيره، وما من عفو إلا وملأ النفس اطمئناناً وأماناً وكان ناتجاً عن تقدير وحكمة بالغين، لأن الحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في نصابها، وإدراك الصواب واتباعه، فهي بذلك خير كثير لأنها تنمُّ عن صواب الرأي وسداده وصحة الأمر وصلاحه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس القوي بالصرعة ولكن القوي من ملك نفسه عند الغضب». ولا يكون هذا الامتلاك للنفس إلا إذا كان لدى الإنسان القدرة على كبح جماح غضبه، وإسكات صوت الانتقام في داخله، والامتناع عن إلحاق الأذى بالمعتدي.

ويمكن أن يظهر العفو بحالات ثلاث:

١ ـ **كظم الغيظ**: الغيظ يتأتى عن الغضب لأن الإساءة تولد غضباً وحنقاً وغيظاً، فتتدخل الإرادة لكبت هذه الانفعالات النفسية بما يسميه القرآن الكريم «كظم الغيظ». قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾. وعندها يحوِّل الإنسان مشاعر الغيظ إلى مشاعر تحمُّل وتقبُّل للأمر، لأنَّ كظم الغيظ ليس حبساً للغضب في النفس وحسب، وإنما هو منع هذا الغضب من الظهور بطريقة عدوانية، أي أن الإنسان يحسّ بالغيظ والحنق، ولكنه يمنع نفسه من الاستجابة لهما، حتى يهدأ هيجانه، وتذهب عنه سَوْرَةُ غضبه.

٢ ـ **الصفح عن الإساءة**: الإنسان يدرك الإساءة ولكنه يحتملها، ثم فوق هذا الاحتمال لا يجعلها تؤثر في مشاعره وتثير انفعالاته وتدفعه إلى رد الإساءة بمثلها. إنه يسيطر على هذه الانفعالات حتى يذيب

معنى الإساءة في نفسه، ويستبدلها بشعور الهدوء والعفو والعزوف عن الانتقام.

ومن الناحية النفسية يعتبر الصفح أفضل من كظم الغيظ، لأن الصفح لا يصاحبه هيجان أو اضطراب نفسي، باعتباره قبولاً بالأمر منذ حدوثه والشعور بأبعاده والتخلص من آثاره.

٣ ـ الإحسان إلى المسيء: وهنا لا يقف الشعور عند حد التغاضي عن الإساءة وقبولها وحسب، بل والعمل على التودد إلى المسيء، وإشعاره بالمحبة وحسن التقرب إليه. وهذا منتهى العفو، وأعلى المشاعر الإنسانية. ولا يبلغ هذه الدرجة الرفيعة من الإحسان إلا الإنسان المؤمن، عندما تكون نفسه صافية، وقلبه سليماً، وفكره ثاقباً، مما يجعل عوامل الرحمة هي الأساس في المعاملة ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وهذا ما يدعو إليه الإسلام، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[1]. هذا هو فضل الإسلام في نشر علاقات المحبة والأمان بين الناس، فلا يقبل بردّ السيئة بالسيئة، بل يربي الإنسان على أن يبادر السيئة بالحسنة، والشر بالخير، والانتقام بالعفو، لأن في ذلك إزالةً للعداوة بين الناس، وتأليفاً للقلوب، وتعاوناً على الخير والبر والتقوى. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يسأل الصحابة قائلاً: «ألا أنبئكم بما يشرف البنيان، ويرفع الدرجات؟» قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تحلم عمن جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك».

---

(١) فصلت: ٣٤.

إنها والله قواعد للناس في التعامل لو اتُّبعت لشاع الأمن والأمان، وانتشر التحابب والسلام، وساد الخير والوفاق ربوعَ الأرض جميعها.

على الإنسان أن يستعين بالصبر ويترك الجزع

الصبر والجزع

الصبر: الإمساك في ضيق، أو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه.

والصبر لفظ عام قد تختلف معانيه بحسب استعماله، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير ويضاده الجزع. وإن كان قتالاً في معركة حربية سُمِّي شجاعة ويضاده الجبن. وإن كان في نائبة مضجرة سُمِّي رحابة الصدر، وضده الضجر. وإن كان في إمساك الكلام سُمِّي كتماناً ويضاده الْمَذْل أو الإفشاء.

وقد سمَّى الله تبارك وتعالى كل ذلك صبراً، ونبَّه عليه بقوله عز وجلّ: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3].. إلى ما هنالك من الآيات القرآنية الكريمة التي تبين معاني الصبر وتأثيره في النفس الإنسانية ولا سيما في قدرتها على تحمل المشاق، ومواجهة المشاكل والنكبات.

وقد عرفه ابن قيم الجوزية على أنه «حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش».

---

(١) الحج: ٣٥.
(٢) البقرة: ١٧٧.
(٣) البقرة: ١٥٣.

وبما أن الصبر بحسب هذا التعريف، يكون «حبس النفس عن الجزع» فإنه يقتضي معرفة ماهية الجزع..

الجزع

الجزع: هو تحوُّل يصرف الإنسان عما هو قائم بصدده ويقطعه عنه، ولكنه أبلغ من الحزن. قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾[1]، أي سواء علينا أمسكنا أنفسنا ونحن نتألم أم حزنّا وضجرنا. وأصل الجزع قطع الحبل من نصفه، أو انقطاع اللون بتغيره، ولذلك قيل للخرز المتلون: جَزْع.

وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[2] فمعناه أن الإنسان متقلِّب المشاعر في كل الأحوال، فإن أصابه فقر كان ضجوراً قليل الصبر، وإن أصابه غِنى بخل وانقطع عن العطاء والبر للمحتاجين، من شدة خوفه على فقدان المال الذي أحرزه. وهكذا يتبين لنا أن الصبر هو بخلاف الجزع، ففي الصبر رضا واحتمال وثقة، بينما في الجزع سخط وتذمر وقلق.

وقد أثبتت بعض الدراسات في علم النفس أنَّ ما يصيب الإنسان من انهيار عصبي أو مرض فسيولوجي في المصائب ليس من شدتها وإنما من عدم الصبر عليها، وعدم القدرة على التفكير بها، وقد يكون ذلك ناشئاً عن شدة الجزع من هذه المصائب.

والمصائب التي قد تحلُّ بالإنسان كثيرة: فَقْد عزيز، خَسارَة

---

(١) إبراهيم: ٢١.

(٢) المعارج: ١٩.

مال، مرض، فشل في عمل، إحباط في تحقيق هدف الخ . . .

والإنسان أمام المصيبة إما أن يجزع ويهلك، وأما أن يصبر وينجو. فالصبر إذن عملية نفسية إراديّة يتم فيها تحويل الأفكار والمشاعر من اليأس والعجز إلى الرضا والتحمل، فتتحول ردة الفعل لديه من اليأس إلى التفاؤل، ومن الخيبة إلى الأمل. وهذا حال المؤمن دائماً الذي أوصاه الله تعالى بالصبر على الشدة لأنها ابتلاء واختبار، مثلما هو الرخاء ابتلاء واختبار للإنسان. فمن صبر على الشدة ولم يبطرْ في النّعماء فهو الإنسانُ المؤمن الصابر. عن أنس أنَّ الرسول ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً عجّل له العقوبة في الدنيا. وإذا أراد بعبد شرّاً أمسك عنه بذنبه حتى يُوافى به يوم القيامة». وعنه أيضاً أن الرسول ﷺ قال: «إنَّ عُظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». وعنه أيضاً أنَّ الرسول ﷺ قال: «قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أخرج أحداً من الدنيا أريدُ أنْ أغفر له حتى أستوفي كلَّ خطيئة في عنقه بسقم في بدنه وإقتار في رزقه».

هذه هي تعاليم الإسلام. إنها حَرِيَّةٌ بتعليم المسلمين الثبات والصبر في البلاء والشدة. وما أكثر النوائب والمتاعب والأعباء في هذه الدنيا، ولكن نفس المؤمن تتقبلها برضا، لأنَّ تصبير النفس على ما تكره، امتثالاً لأمر الله تعالى، فيه استسلام لقضاء الله تعالى وقدره، وشعور بتحمّل البلاء تكفيراً عن الذنوب في الدنيا قبل نيل الثواب في الآخرة. وحال المؤمن دائماً الثقة بربه العزيز، والصبر على ما يحلُّ به سواء كان خيراً أم ضراً. قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إنْ أصابته سراء شكر

فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

ولعلَّ أهم ما في الصبر في حياة المؤمن انتظاره الثواب العظيم في الآخرة لصبره على بلاء الله تعالى له في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

والله سبحانه وتعالى عندما طلب من عباده الصبر والتصبّر فلكي يدرك الإنسان ما وهبه خالقه من طاقات وقوى كامنة فيه. فهو يملك قوى مادية تتمثل في جسمه وفي الطاقة الحيوية التي تحركه وتدفعه إلى إشباع حاجاته العضوية وغرائزه الكامنة في هذه الطاقة. وهو يملك أيضاً قوى معنوية تتمثل في مشاعره وأفكاره وأهدافه، وما ينبثق عنها من سلوك، أو ما تظهر به من صفات ومزايا، وهي أقوى تأثيراً من القوى المادية. كما يملك أخيراً قوى روحية تتمثل في صدق إيمانه، وقوة صلته بربه، وقيامه بالعبادات والطاعات وابتعاده عن المعاصي والذنوب. وهذه القوة الروحية قِوام قواه، وأشدها تأثيراً وفعالية في حياته.

وقد حرص الإسلام على جعل القوى الدافعة للإنسان المسلم قواه الروحية، حتى ولو كانت مظاهرها مادية أو معنوية.. وحتَّم عليه أن يقوم بأعماله كلها، صغيرها وكبيرها، وفق أوامر الله تعالى ونواهيه. ولذلك طلب منه أن يصبر ويصابر إزاء المحن والشدائد بحيث لا يأبه لأي مصيبة إذا كانت في سبيل الله تعالى، ولا يفرح بنعمة إن لم يكن فيها نصيب لله تعالى.

---

(١) البقرة: ١٥٧.

على الإنسان أن يكون مخلصاً، نائياً بنفسه عن الرياء.

الإخلاص وترك الرياء

الريــاء

الرياء تظاهر المرء بغير ما يبطن، ومنه المرائي، أي المموِّه، وهو إظهار الجميل ليُرى مع إبطان القبيح. وقيل: الرياء ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله تعالى فيه، فهو فعل لا تدخل فيه النية الخالصة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ ﴾(١). إنه خطاب من الله تعالى للمؤمنين بألَّا يبطلوا صدقاتهم الطيبة، بالمن والأذى، فالمن في نفس صاحبه الاستعلاء الكاذب، والرغبة في إذلال الآخذ، أو الرغبة في لفت أنظار الناس. والمن على هذا النحو يحوِّل الصدقة أذىً للواهب والآخذ على السواء: أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء، وبما يملأ قلبه من النفاق والرياء، والبعد عن الله. وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد

---

(١) البقرة: ٢٦٤.

والانتقام. وعليه فإن الذي ينفق ماله رياءً، يكون إنفاقه باطلاً، وهو يبطله بيده، بسبب ريائه، وحبه للظهور، والادعاء، مما يبعد عن الإنفاق غايته التي يجب أن تكون مرضاة الله تعالى. ومثل هذا الإنسان الذي ينفق ماله رياء، وكذباً وادعاء، «لا يؤمن بالله واليوم الآخر» فلو كان مؤمناً بالله تعالى، لكان أنفق ماله في سبيله.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[1]. والذين «خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله» هم المشركون عندما خرجوا إلى بدر. فقد جاءهم رجل من قِبَلِ أبي سفيان يخبرهم بأن العير قد نجت وهو عائد بها سالمة إلى مكة. فخرجت قريشٌ بالقيان والدفوف، وفي خروجها بطر ورياء وصلافة وخيلاء، فقال عمرو بن هشام (أبو جهل): «لا والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، فنقيم ثلاثاً، ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا حتى لا تزال العرب تهابنا أبداً». والله تعالى محيط بهم وبما يقولون ويعملون، لا يفوته منهم شيء، ولا يعجزه من قوتهم شيء، فألحق بهم هزيمة الذل والانكسار جزاءَ بطرهم وكبريائهم.

ومن قبيل الرياء المداهنة. يقال: دهن المطرُ الأرض أي بلَّها بللاً يسيراً. ومنه الدُّهن الذي يدهن به الرأس لتليين الشعر وتصفيفه. والإدهان عبارة عن المداراة والملاينة وترك الجدِّ.

قوله تعالى: ﴿ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾[2].

معناه أفأنتم تشكون بهذا الحديث الذي يقال لكم عن البعث،

---

(١) الأنفال: ٤٧. (٢) الواقعة: ٨١.

وإحيائكم مرة ثانية ليكون الحساب؟ أو أنكم تُلِيِّنُونَ مواقفكم وتدارون فيه فلا تصدقونه تصديقاً جازماً؟. والمداهنة قد تظهر أحياناً باللين..

اللين

واللين هو ضد الخشونة. وهو يستعمل في الأجسام، ثم يستعار للخُلُق وغيره من المعاني. فيقال: فلان لين وفلان خشن. وكل واحد منهما يمدح به تارة ويذم به طوراً بحسب اختلاف الواقع والمواقع. فهو لين الخلق أي سمح الأخلاق كريمها، وهو ليّن أي ضعيف، ففيه مدح وذم. وكذلك الحال بالنسبة للخشونة.

لقد أتينا على ذكر ذم المداهنة أي الملاينة في التهاون في أمرٍ من أمور الدين. ونأتي على ذكر اللين الممدوح بقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾(١).

إنها رحمة الله تعالى التي نالت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونالت المسلمين، فجعلته صلى الله عليه وآله وسلم رحيماً بهم، ليناً معهم. وقد كانت حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثالاً حياً في الرحمة واللين مع الناس: ما غضب قط لنفسه، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري. وما من أحد عاشره إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض الله عليه صلى الله عليه وآله وسلم من خلقٍ عظيم ومزايا سامية. وهذا كله رحمة من الله تعالى به وبأمته. إذ لو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت القلوب من حوله، ولا تجمعت حوله المشاعر. وكل ذلك من خلقه العظيم في الرحمة واللين. وفي الآية تأكيد على أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن فظاً، غليظ القلب، بل كان رحوماً، رؤوفاً.

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1]. ويعني بذلك المؤمنين. وفيه إشارة إلى إذعانهم للحق وقبولهم به.

الإخلاص

الإخلاص لغة: ترك الرياء. أو تخليص القلب من الشوائب المكدرة لصفائه كأن تقول: أخلص له الحب.

وقيل: الإخلاص أن لا تطلب لعَملك شاهداً غير الله تعالى (لأنه السميع الشهيد)، وأن تصفِّي عملك من الرياء والمداهنة.

والفرق بين الرياء والإخلاص في أداء العمل يكمن في الدافع لإتقان العمل.. فالمرائي لا يقوم بعمله أو يتقنه إلا لأحد أمرين: إما رغبة في الأجر والثناء، وأما خوفاً من العقاب والذم. فإذا أُعطيَ اجتهد، وإذا مُنِعَ تقاعس. وإذا خاف العقاب نشط، وإن أمن منه تراخى. فيكون الرياء عملية نفسية تتضمن أفكار الكذب ومشاعر النفاق، وعدم الثقة لا بنفسه ولا بالناس. ولذلك يحتاج المرائي دائماً إلى مراقبة من الغير حتى لا يشتط كثيراً ويؤدي شططه إلى الضرر.

أما المخلص فإنه يقوم بعمله، ويؤدي واجبه من تلقاء نفسه، ومن غير أن تكون لديه أفكار مسبقة عن الثواب والعقاب، أو مشاعر من الخوف والأمن: فهو يقوم بعمله لأنه يعطي لأجل العطاء، سواء كان وحيداً أم كانت عيون الرقباء عليه، لأن غايته الإخلاص. وهذا ما يجعل الإخلاص روح العمل ومحركه، وسبيل القائم به إلى التفوق والابتكار فيه.

---

(١) الزمر: ٢٣.

وإنه لمن الشائع في المهن جميعاً أن تكون هنالك رقابة مادية، أو أن يعطى العاملون الثقة ويتركون للضمير أن يكون وازعاً أخلاقياً في أداء الواجب، أو قد يفرض النظام لبعض المهن أن يُقْسِمَ الشخصُ قسماً معيَّناً قبل أن يتسلم مهامه... وقد يفيد ذلك كله مع البعض، ولا يفيد مع البعض الآخر، وهو الأكثر بين الناس. ومن هنا كانت المساوىء التي تنتج عن التخاذل في العمل والتي تضر الأفراد والمجتمعات على حد سواء، حيث لا يوجد الإخلاص التام في الأداء.

أما عندما يكون الإخلاص في النية والعمل، كما في الطاعات، متوجهاً به صاحبه لله تعالى، يكون الإنسان قد عاد إلى أصالة نفسه الزكية وإلى فطرته التي فطره الله تعالى عليها. فلا يعود هنالك من حاجة إلى رقابة، لأن الإنسان يشعر بمراقبة الله تعالى له في كل حين، وفي السر والعلانية، فيخلص في أداء واجباته، وينتظر الثوابَ من الله تعالى في الدنيا والآخرة، دون أن يرائي أو يجامل أحداً على حساب دينه ويقينه.

ولكن كيف تكون المجاملة؟



تأثير الإطراء والمجاملة في النفس

يقال في اللغة: أطرى فلاناً إطراءً: أي أحسن الثناء عليه، وبالغ في مدحه.

وعندما يقال: جامله فذلك يعني أنه أحسن معاملته وعشرته، وعامله بالجميل. من هذه المعاني اللغوية يتبين لنا حسن القول والمعاملة، وما قد ينجم عنهما من علاقات طيبة، يكون لها تأثيرها على نفوسنا. فالحياة تطالعنا كل يوم بوجوهٍ كثيرة، منها ما هو مألوف لدينا، ومعروف نَمَطُهُ وأسلوبه في الحديث أو التعامل، ومنها ما هو طارىء نصادفه بحكم العمل، أو الحاجة، أو الزيارة أو بحكم أي ظرف يمكن أن نلتقي فيه إنساناً لم يسبق لنا أن تعرفنا به من قبل. فنسمع منه حديثاً، أو نعاين منه حركة فيها ما قد يسرّنا أو يغضبنا..

وغالباً ما تقوم الحياة اليومية على المجاملة التي يمكن أن تعتبر فناً قائماً بذاته، لا يستطيع كل إنسان ممارسته بصورة عفوية، بل كثيراً ما يتطلب من صاحبه التفكير مع سرعة البداهة، أو التأني والتروي لكي تأتي المجاملة دقيقة، وقوية، وفاعلة، بحيث يكون لها تأثيرها المقصود.

وقد يكون الإنسان مخلصاً وفياً للغير، فيحبُّ أن يُظهر هذا الإخلاص أو الوفاء بأسلوب لطيف محبب، يُبرر فيه قيمة الشخص عن طريق إظهار حسناته، أو إظهار تأثير الفعل الذي قام به ـ على نفسه أو غيره ـ حسناً كان أو سيئاً. يقول الإمام علي كرم الله وجهه «قولوا: للمحسن أحسنت حتى يزداد إحسانه، وقولوا للمسيء أسأت حتى يكفَّ عن سيئاته».

وقد يحاول الإنسان أن يجامل غيره، إلَّا أن سوءاً في التصرُّف قد يرتدّ عليه بحيث لا يعرف كيف وقع في الخطأ من حيث لا يدري. فكثيراً ما يندم على كلمة تفوه بها، أو ضحكة صدرت عنه، أو إشارة لاحت من يده أو طرف عينه. من هنا كانت أهمية الانتباه في المجاملة حتى تحقق الغاية المرجوة منها.

ولعل أفضل مجاملة هي تلك التي تبرز محاسن الشخصية ومزاياها الفاضلة. سواء أتت هذه المجاملة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة: فالمجاملة المباشرة قد يكون لها وقعها في النفس، وهي تريح المعني بها كثيراً. إلَّا أنَّ المجاملة غير المباشرة قد تكون ذات تأثير أقوى. فبدلاً من أن نقول لفلان: أنت إنسان مخلص في عملك مثلاً، فإننا ننوه بالأعمال التي قام بها والتي تدل على إخلاصه، وصدقه، ولا سيما عندما تكون هذه الأعمال ناتجة عن تحمل مسؤوليات هامة. هنا تبرز المجاملة وكأنها أقوى من الثناء وأشد من المديح؛ أو مثلاً عندما نحاول أن نبرز للشخص ناحية جميلة في شخصيته دون أن نتحدث عنها بالذات.

وللمجاملة آداب يجب مراعاتها. فعلى المجامل أن يتّصف بالأدب الرفيع والتهذيب الجمّ، وحسن استعمال الكلام في مواضعه.

ويروى في هذا الصدد أنَّ أحداً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سأل حمزة عم الرسول أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فأجاب حمزة رضي الله عنه: إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أكبرُ مني، وأنا وُلِدْتُ قبله.

وآداب المجاملة مطلوبة في رجال حاشية الأمراء وذوي السلطان. كذلك يجب أن يتحلَّوا باللطف والإيناس، ورقة الكلمة، وحسن الإجابة.

قيل لأحد المقربين من عبد الملك بن مروان، في مجلس هذا الأخير: أنت أطول من الأمير. فأجاب على الفور: لا! الأمير أطول، وأنا أبسط قامة.

وواضح أن الكلمة الأولى (أطول) جاءت من الطُّول وهو ضد القِصر ويعني امتداد القامة. والثانية: من الطَّوْل وهو القدرة والفضل.

والأمثال على ذوي البديهة السريعة والجواب المهذب كثيرة. يروى أنه كان لأحد وزراء المعتصم ولد ذكي الفؤاد، مهذب اللسان. سأله المعتصم مرة: أرأيت أحسن من هذا الخاتم؟ ومدّ إصبعه ليريه خاتماً ثميناً دقيق الصنع يتختّم به. فأجابه الولد: نعم، الإصبع التي هو فيها.

وتروى كذلك عن هذا الولد روايات كثيرة تدل على سرعة الخاطر، وحسن الأدب في المجالسة. طاف المعتصم يوماً مع وزيره على دار بنيت له حديثاً. وهي آية في الفن الرفيع والتكاليف الباهظة. وكان الولد برفقتهما. ثم ذهبوا جميعاً إلى دار الوزير. وهناك سأل المعتصم هذا الولد عن رأيه قائلاً: ماذا رأيت. دارنا أحسن أم دار أبيك؟ فأجاب: ما دام أمير المؤمنين هنا فدارُ أبي أحسن.

وهذا ما يثبت أنَّ كل من يثير الانتباه إلى ناحية مجهولة في شخصيتنا أو في شخصية محبَّبة لنا يصبح مقرباً كثيراً إلى نفوسنا، ويحظى بتقديرنا وربما بصداقتنا الدائمة.

وتختلف مجاملة الرجل عن مجاملة المرأة لاختلاف الطباع بينهما. ففي حين يسرُّ الرجل بالحديث عن نجاحه في عمله، أو قوة شخصيته، أو ثباته في مواقفه، فإن المرأة يسرها الحديث عن ذوقها الرفيع في انتقاء حاجاتها واختيار الكتب التي تطالعها.

والمجاملة الناجحة لا تتناول المألوف، والأسلوب المتعارف عليه، بل تأتي دائماً بالجديد يُطلق على مسامع الشخص الذي نمدح أو نعاشر. فقد يُسرُّ هذا الشخص ممن يقول له إن مظهره بدون ربطة العنق تُقوّي من ملامح شخصيته، أو إن في عدم حلاقة ذقنه إبرازاً لرجوليته.. وغير ذلك من الملاحظات التي تُشعر بالإطراء أو المجاملة غير المألوفة.

وإذا كانت المجاملة تقرب الناس بعضهم من بعض، وتسهل العلاقات اليومية فيما بينهم، وتوفر أجواءً من اللطف والكياسة، إلاَّ أنها عندما تصبحُ روتينية أو مبالغاً فيها، فغالباً ما يمجّها الذوق، وتبعث الاشمئزاز في النفس، لا سيما عندما تنم عن التصنّع، أو عندما تتحول إلى نوع من الخداع أو المداهنة لتحقيق أغراض شخصية. وهذا ما يتقنه عديدون في هذا العصر، وما يتخذه أفراد كثيرون للوصول إلى غايات معينة، حتى ولو كان في المجاملة إذلال لكرامتهم..

وتنطبق هذه الحالة على الجماعات، كما تنطبق على الأفراد. فلو تأملنا تلك الفئات التي تداهن الطغاة، أو تجامل الظالمين، أو تطري الكاذبين، لوجدنا أنَّ عددها كثير، وأنَّها تعيش في خداع مع

نفسها إرضاءً للآخرين.. هذه الفئات قد تستفيد من مداهنتها التي تجاوز حدَّ الخداع، ولكنها مداهنات تسبِّب الأذى للصادقين والأوفياء. ولعلَّ في مداهنة المتحكمين أو النافذين خير دليل على ذلك. فقد يجتمع بقرب هؤلاء بطانة كاذبة، تزين لهم الأمور، وتمدّهم بنصائح تضرّ بمصالح الشعب. وهذا ما يجعل أصحاب النفوس الزكية تمتلىء غيظاً، ويجعلهم ينفرون من بطانة السوء تلك التي تجامل وتداهن الحكام لنوال الحظوة عندهم، حتى ولو كان ذلك على حساب العقيدة أو حياة بعض الأفراد أو حساب مصالح الأمة بأسرها..

والحياة ملأى بأمثال هؤلاء المداهنين، إذ نجدهم حول الحاكم، وحول مدير المؤسسة، أو رئيس المكتب، أو الوزير، أو صاحب الجاه والثراء الخ. مما نشاهده في واقع الحياة التي نعيش، ولا سيما في هذا العصر، حيث باتت الروابط قائمة على المصالح المادية، والعلاقات تقوم، أكثر ما تقوم، على الممالأة والمجاملة الزائفة، والإطراء الأجوف أكثر بكثير مما تقوم على الروابط الفكرية، والأخوة المخلصة، أو العلاقات الاجتماعية الصادقة، وغيرها من العلاقات الإنسانية.

والقرآن الكريم يحذر من المداهنة أو من الإدهان الذي يعني المداراة، والملاينة وترك الجد. يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1].

إنه تحذير للرسول الكريم بألّا يستمع لأقوال المكذبين، وألّا يأخذ بشيء مما يطرحون عليه، لأنهم كانوا يطلبون منه أن يتخلى عن بعضٍ من دعوته حتى يتبعوا بعضاً آخر منها. وغايتهم من وراء ذلك أن

---

(١) القلم: ٨ ـ ٩.

يحيدوا به عن الدعوة، وعن خط مسارها الصحيح. ومعاذ الله أن يفعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذلك. هذا في الحقيقة ما كان يريده المنافقون والمكذبون. كانوا يعملون جاهدين لعقد صفقات مساومة معه على حساب دينه.. كما يفعلون في الصفقات التجارية وغير التجارية. دون أن يدركوا أن هناك فارقاً كبيراً بين الاعتقاد والتجارة. فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها، لأن التخلي عن القليل منها كالتخلي عنها بكاملها، والعقيدة واحدة، متكاملة الأجزاء، لا يطيع فيها صاحبها أحداً، ولا يتخلى عن اليسير منها أبداً، فكيف إذا كانت العقيدة هي الإسلام، وكان الداعية هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ومع ذلك نزل النهي الإلهي ليكون قاعدة إسلامية ثابتة، تتعاطى مع الإنسان في كل الأزمان والأجيال، وفي كل الأمصار والأقطار، وهي تحذر المسلم من الانصياع للمداهنة، وتدعوه لاتّباع الشدّة في أمور دينه، حتى تستقيم حياته، ويكون له الموقف الصادق، والروابط المخلصة في كل شيء، سواء تعلق ذلك بأمر الدين أو بأمر الدنيا.





الاصغاء والاستماع

الصغو هو الميل. يقال: صغت الشمس صغواً أي مالت للغروب. وأصغيت إليه: ملت بسمعي نحوه. يقول الله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1].

وإصغاء الذين لا يؤمنون بالآخرة يكون باستماعهم لخداع الشياطين من الإنس ومن الجن. فهؤلاء يخدعون بعضهم بعضاً، ويضلون بعضهم بعضاً بارتمائهم في أحضان التمرد، والغواية، ونصب العداء لأولياء الله المؤمنين. وقد ينخدع بهم من لا يؤمنون بالآخرة، فتراهم منجذبين إليهم، معجبين بزخرفهم الباطل، وبسلطانهم الخادع، ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والفساد، وكل ذلك بسبب الإصغاء لشياطين الإنس والجن..

وللإصغاء أهميته في حياة الإنسان، وتأثيره القوي في نفسه. قال الشاعر:

وتراه يصغى للحديث بسمعه ... وبقلبه ولعله أدرى به

---

(١) الأنعام: ١١٣.

وإلى جانب الإصغاء هناك السكوت والإنصات: فالسكوت هو ترك التكلم مع القدرة عليه، ومثله الإنصات ولكن يفترق عنه بأنَّ الإنصات هو سكوت مع استماع. ومن ضمَّ شفتيه يكون ساكتاً، ولا يكون صامتاً إلا إذا طالت مدة الضَّم.

ومن حيث المعاني الفكرية يعتبر السكوت إمساكاً عن قول الحق والباطل، بينما الصمت هو إمساك عن قول الباطل دون الحق. والله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]. ذلك أنَّ الاستماع إلى قرآن الله المبين والإنصات له، فيه قبل كل شيء تمييز بين الحق والباطل، تمهيداً لاتباع الحق وترك الباطل، قولاً وفعلاً. ثم إنه أمرٌ من الله تعالى موجّه إلى الناس، ربهم وخالقهم، يدعوهم إلى الاستماع والإنصات لهذا القرآن عند سماع تلاوته، والميل إليه بأفئدتهم، وتدبّر آياته البيّنات بعقولهم التي فيها شفاء ورحمة للمؤمنين. إن النفس إذا ما استمعت لهذا القرآن وأنصتت، تفتحت أمامها السبل لأن تعيَ وتتأثر وتستجيب، فكان ذلك أرجى أنْ تُرحم في الدنيا والآخرة. وإن الآية الواحدة لتضع أحياناً في النفس ـ حين تستمع لها وتنصت ـ أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤى والإدراك، والطمأنينة والراحة، وتنتقل بها إلى الوعي والمعرفة. وهذا ما لا يدركه إلا من أجاد الاستماع إلى القرآن وأنصت لآياته المبينة..

ولعل الغاية المباشرة من هذا الأمر الإلهي هو حث الإنسان على الإصغاء فعلاً إلى القرآن، والاستماع إلى حقائقه المطلقة، والوقوف

---

(١) الأعراف: ٢٠٤.

بجدٍ وروية على مقاصده البعيدة، وهذا لا يتأتى إلا بفهمه حق الفهم، وإحدى وسائل هذا الفهم الاستماع إليه والإنصات عند قراءته. إذ ما الفائدة من تلاوة القرآن إذا لم يصغ إليه أحد، كما يحصل في كثير من المناسبات العامة والخاصة عند المسلمين، إذ تجد جمعاً كثيراً في المجلس، وهم يتحادثون، ويتناقشون في أمورهم، بينما القارىء يتلو آيات الله تعالى، ولا أحد يستمع أو يصغي!.. أليس هذا ما نراه في مجالس الناس اليوم، وقليل هم الذين تراهم ينصتون خاشعين لقول الله تعالى؟ وأعجب من ذلك أن كثيراً من المسلمين يفتحون المذياع في الصباح عند تلاوة القرآن، وهم يحرصون على هذا الأمر، ولكن تراهم يتركون المذياع وينصرفون إلى تدبير شؤونهم الخاصة دون أي استماع أو إنصات. إنها لعادة سليمة ومستحبة أن يفتتح المسلم نهاره بتلاوة القرآن، بعد الصلاة، فإن لم يتيسر له ذلك شخصياً، فعبر الراديو، لأن البيت الذي لا يذكر فيه الله تعالى يكون مسرحاً للشياطين.. ولكن أليس من الأفضل والأكثر رجاءً لرحمة الله تعالى أن نقرأ القرآن ونتفهم معانيه، وأن نوجه انتباهنا إلى قراءته مستمعين، منصتين، غير منشغلين بأعباء هذه الدنيا وأثقالها.

ولعلَّ هذه الرحمة المرجوة هي ما يريده بنا الله تعالى عندما يأمرنا بالاستماع إلى قرآنه الكريم والانصات له. وقد يظن الإنسان أن الانصات أو الاصغاء أمر سهل، لا، ليس الأمر بهذه البساطة التي نتصورها، فقد أثبتت «دراسة استغرقت شهرين، جرت في أميركا، وتناولت الاتصالات الشخصية لثمانية وستين شخصاً في مختلف الأعمال، أنَّ ٧٥ بالمائة من مواضيع النهار تتم بالاتصال الشفهي بمعدل ٣٠ بالمائة للحديث، و ٤٥ بالمائة للاصغاء والاستماع.. وقد قام أستاذان في إحدى جامعات أميركا طوال سنتين بدراسة وقياس

القدرة على الإصغاء لدى الآلاف من التلامذة. كما قاما بدراسة تلك القدرة لدى العشرات من العاملين في حقل التجارة والمهن الحرة، فكان الشخص المتوسط هو «نصف مصغٍ» حتى عندما يحاول فإنه لا يحفظ إلا حوالي ٥٠ بالمائة مما يسمعه مباشرة بعد سماعه». ولذلك يقول مدير التدريب في أحد المخازن الأميركية الكبرى: «هذه إحدى الصعوبات الكبيرة التي تعترضنا عندما يتولى البيع موظفون لا خبرة لديهم.. يدخل الشاري فيطلب سترة قياسها ٣٨ بكمين قصيرين كتلك التي أبصرها في الواجهة. فيهرع البائع إلى الرف المعين ويتناول سترة قياسها ٣٨ ولكن بكمين طويلين. فيكرر الشاري طلبه مشدداً على الأكمام القصيرة. ويعود البائع ليلبي الطلب.. ومثل هذا التصرّف يكلف مالاً لأنه يهدر الوقت بلا فائدة: وقت الشاري ووقت البائع عدا ما يسببه من فوضى في رفوف السلع، ومن تكدير الشاري. ويمضي مدير التدريب قائلاً: لذا فنحن في الدروس التي نقدمها نشدد على العبارة التالية: «إصغِ قبل أن تتصرف»..

من هنا تبرز أهمية الاصغاء، من حيث كونه مهارة عقلية، وليس مجرد إنصات أو استماع عابر دون أي تفكّر أو جهد عقلي. ولنأخذ مثالاً على ذلك الأستاذ الذي يلقي محاضرته في قاعة الكلية، فقد تجد الطلاب أمامه منصتين، ولكن كم هو عدد من يستوعب منهم ويدرك كل ما يلقيه.. ذلك أن معظم الناس ممن لا يحسنون الاصغاء، سرعان ما ينفذ صبرهم، وتتحول أفكارهم إلى شيء آخر، فإذا عادوا إلى الحديث، أو عاد الطلاب إلى الاستماع للمحاضرة، فإن أشياء كثيرة من الموضوع تكون قد فاتتهم. ولذلك يصبح من الصعب عليهم المتابعة. وقد يصل بهم الحال، نظراً لانشغال أفكارهم بأشياء أخرى بعيدة كل البعد عن الموضوع المعيّن، أن يكونوا حاضرين بأجسامهم

في القاعة، بينما أفكارهم تكون في عالم آخر. . ونتيجة لذلك نجد أن من لا يحسنون الاصغاء عادة يعتبرون الموضوع جافاً، ويكون اهتمامهم به سلبياً، على عكس من يجيدون الاصغاء فإنهم يحاولون أن يجدوا في أي موضوع يطرح على مسامعهم شيئاً جديداً يمكن الانتفاع به. ولذلك فإن الذين ينمّون قدرتهم على الاصغاء يتعلمون كيف يركزون اهتمامهم على الأفكار الهامة والرئيسية، وهذا ما يساعدهم كثيراً على فهم الموضوع بجميع جوانبه، لأن حصر انتباههم بأفكاره الرئيسية تتيح لهم المجال لتذكر الوقائع والتفاصيل ووضعها في أطرها الصحيحة.

وأهمية الاصغاء تبرز ملحة في هذا العصر، عصر السرعة، عصر الراديو، والتلفزيون، والهاتف، بحيث نحتاج أن نقضي معظم أوقاتنا في الاصغاء والاستماع إلى الآخرين أكثر من حاجتنا إلى التكلم والحديث. وذلك الرجل كان حكيماً عندما أوصى ابنه بقوله: «يا بني تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث».



الفصل السادس عشر

- العلاج النفسي



العلاج النفسي

الأمراض النفسية العصابية

قبل البحث في العلاج النفسي لا بد من الإشارة إلى الأمراض النفسية العصابية.

ويطلق لفظ العصاب على الخلل العقلي الناشىء عن الاضطرابات النفسية الوظيفية، كالأفكار الثابتة أو المتسلطة، والمخاوف، والشكوك، والوساوس، وفقدان الذاكرة، والحذر، واضطراب الكلام. وهو مصحوب بألم شديد، وبخلل في التوازن الشعوري والفكري، إلا أنه لا يغير شخصية صاحبه، ولا يفقده هويته ووحدته. ويعرّف العصاب على أنه «اضطراب وظيفي، دينامي ـ انفعالي، وهو نفسي في المنشأ، ويتصف بأعراض عامة تؤدي إلى اضطراب في العلاقات الشخصية وحالة عدم كفاية وعدم سعادة».

وليس لهذا العصاب عند علماء النفس المعاصرين سبب عضوي محدد، وإن كان متصلاً بحياة المريض النفسية.

ويذهب بعض العلماء إلى أن العصاب ينشأ عن صراع داخلي بين النوازع النفسية المختلفة، في حين يقول البعض الآخر إنه ينشأ

عن اضطراب في تطور الوظائف، أو عن توقف

وقد عدد علم النفس الاكلينيكي أو العيادي

نوعاً من أنواع العصاب.

أما الأعراض العامة للشخص العصابي فيمحر

مظاهر:

١ ـ شعور المريض بانقباض داخلي شديد، وضيق مؤلم، يعرف خلالهما أسباب عصابه ولا يجد لها حلاً. ويظهر عليه التوتر العصبي، ولكنه يعيش في حالة الشعور ويحس بالواقع.

٢ ـ معاناة المريض من قلق ظاهري أو خفي، وشعور بعدم الأمان النفسي، والتوتر، والهياج، والمبالغة في ردود الفعل السلوكية، ومحاولة جذب انتباه الآخرين، والاعتماد عليهم. ويخيم عليه الحزن والاكتئاب.

٣ ـ قد يمكن للعصابي أن يساعد نفسه أحياناً ولكنه في الغالب يطلب المساعدة من الآخرين.

٤ ـ العصابي يعاني اضطراباً في تفكيره، وبطأً في فهمه. وتردّداً في الإقدام على تحقيق أهدافه.

٥ ـ العصابي يعاني من بعض نوبات القلق والتوتر، يصاحبها أحياناً اضطراب في الجهاز الهضمي، مع ضغط شديد على الأعصاب.

٦ ـ سلوك العصابي يظهر بالجمود والتكرار عملياً وذهنياً. وقد يتصف، في بعض الأحيان، بالطيش والتسرّع.

٧ ـ يعاني العصابي من الضجر، وسرعة الملل من معظم الأشياء حوله، ومن قصر مدة الانتباه والتركيز.

٨ ـ العصابي أناني الذات، وعلاقاته مع الآخرين تكون مضطربة.

٩ ـ يعاني العصابي من تصورات وهمية ومخاوف لا أساس لها في عالم الواقع.

١٠ ـ العصابي سريع الغضب لأتفه الأسباب، ضعيف الإرادة، وعلاجه عموماً نفساني، وهو قابل للشفاء.

ويختلف العلماء حول تصنيف الأمراض النفسية، حيث يبدأ البعض من منطلق معين، ويرتكز على أمراض معينة، في حين يعتبرها البعض الآخر أمراضاً ثانوية من حيث الأهمية. ولكن جميع العلماء متفقون على أن (العصاب) بشتى أنواعه وفروعه هو رأس الأمراض النفسية.

ويذكر الدكتور مصطفى فهمي أن هنالك «سبعة أنواع رئيسية من الأمراض النفسية، وهي:

١ ـ القلق المرضي العصابي أو (العصاب).

٢ ـ الهستيريا أو العصاب التحوّلي.

٣ ـ الشعور بالضعف والإجهاد بشكل مَرَضي (النورستانيا).

٤ ـ الأعمال القسرية والوساوس.

٥ ـ التجلجة في الكلام.

٦ ـ السلوك السيكوباتي (مضطرب الشخصية).

٧ ـ الانحرافات الجنسية.

ويهمنا أن نتوقف عند آراء بعض علماء النفس أو الباحثين في هذا العلم وجميعها تعترف بأن الأسباب الرئيسية للأمراض العصابية ما زالت غير واضحة، وهي تفسر بنظريات مختلفة، ومدارس متضادة. كما أن البرهان العلمي لأي من هذه النظريات لم يثبت بعد، وهي تتلخص في نظريتين:

١ ـ «النظرية التكوينية التي تعتمد على العوامل البيولوجية الوراثية والفسيولوجية».

٢ ـ «النظرية البيئية».

وأياً تكن النظريات حول أسباب تلك الأمراض أو طرائق علاجها، فإننا نرى أن لا شيء يجدي إلا المعالجة النفسية القائمة على قوة الإيمان والتي يمكن اعتماد منهاج لها من خلال الكتاب والسنة. بحيث تعتمد طرائق العلاج التي قدَّمها القرآن الكريم، وأوضحها الرسول الأمين.

الأمراض العقلية الذهانية

إن الأمراض العقلية كالذُّهان الدوري، والهلوسة الحادة والمزمنة، وانفصام الشخصية، والتخلف العقلي الخَلْقي والاكتسابي، هي أمراض عضوية ناتجة عن خلل في وظيفة الخلايا الدماغية وإن كانت عوارضها فكرية شعورية أو سلوكية. لذلك وجب فصلها عن الأمراض النفسية، ومعالجتها تتم بطرق الطب المعروفة ولا سيما من ذوي الاختصاص. هذا في حين أن علاجات أكثر حالات العُصاب (كعصاب القلق، وعصاب الخوف، وعصاب الوسوسة، والقلق النفسي بمظاهره النفسية والعضوية) إنما تتم بالعلاج النفسي الإيماني، ولا سبيل إلى غيره من العلاجات الأخرى لمن أراد الشفاء.

الهمّ والغمّ والقلق

وحقيقة تواجد الأمراض النفسيّة

وقبل أن نتكلم بالتفصيل عن العلاج النفسيّ في الإسلام، نعرض لبعض الأمراض النفسية كالهمّ والغمّ والقلق.

تأتي الأمراض النفسية نتيجة ضغوط ونزاعات معينة تنشأ عنها صراعات داخلية تؤدي إلى اعتلال النفس. وهذا الاعتلال هو المرض النفسي. والشخص الذي يكون مريضاً نفسياً يكون إدراكه لنفسه وللواقع إدراكاً مختلاً مشوهاً، ويصبح سلوكه غير مألوف، وربما شاذاً في نظر الآخرين. ومن هنا شعوره بالاضطرابات النفسية والآلام الجسدية، فتخيم على حياته ـ بسبب هذا الشعور ـ أجواء القلق والتعاسة، وتضعف قدرته على إصدار الأحكام الصحيحة، وعلى أداء واجباته بفاعلية، وعلى إقامة علاقات سليمة مع الواقع ومع الناس. وكل ذلك نتيجة للصراعات النفسية الدَّفينة التي تتفاعل في كيانه الداخلي وتؤدي إلى معاناته تلك.

وأشد مظاهر هذه المعاناة الكآبةُ التي تخيم على حياته، وتظهر بادية على وجهه وفي تصرفاته. هذه الكآبة غالباً ما يكون مصدرها القلق الذي ينجم عن أوضاع سيئة تكون عادة في تغير دائم: فإذا كان هذا التغير في الأوضاع نحو الحسن أو الأحسن غلب على الإنسان شعور بالاطمئنان وارتاح إلى حاضره وغده، وكانت له السكينة النفسية.

وإذا كان هذا التغير يتجه من سيء إلى أسوأ سادت أجواء القلق نفسه وظهر خلل على تصرفاته. وعندما يستمر القلق لا بد أن تتولد عنه الكآبة، ومع الوقت تحدث الأمراض النفسية، وتتبعها الأمراض البدنية.

ومن المشاعر التي تقضّ مضاجع الإنسان وتقلق باله الغم والهم.

الغم: هو ستر الشيء، ومنه الغمام لأنه يستر ضوء الشمس. والغم في النفس هو ما يستتر في باطنها ويختبىء في ثناياها بما يؤدي إلى إزعاجها واضطرابها. وهو من المشاعر المؤذية لأنها تكون دفينة، فإن خرجت زال الغمّ وتخلصت النفس من أثقاله. قال الله تعالى، في مخاطبة نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾[1] ومعناه: اعزموا على أمر تفعلونه ثم لا يكن أمركم مستتراً، تخفونه، بل أظهروه وجاهروني به، وليكن الموقف واضحاً في نفوسكم، وما تعتزمونه مُقَرَّراً لا لبس فيه ولا غموض، ولا تردد فيه ولا رجعة.

أما الهمّ فهو الحزن الذي يؤثر في الإنسان تأثيراً شديداً حتى لكأنه يذيبه. يقال: رجل همٌّ أي رجل كبير قد همَّه العمر فأذابه. والهمُّ أيضاً ما همَّت به النفس ورغبت القيام به. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾[3]. ويقال: أهمَّني كذا إذا حملني على أن أهمَّ به. قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[4] أي وجماعة قد شغلتهم أنفسهم وحملتهم على الهمّ.

---

(1) يونس: ٧١.
(2) يوسف: ٢٤.
(3) التوبة: ١٣.
(4) آل عمران: ١٥٤.

ويمكن القول إن المرض النفسي يأتي نتيجة تفاعل خاطىء حدث تحت وطأة ضغوط معينة وظروف مؤلمة، تعرَّض لها الشخصُ مما أدى إلى اختلال إدراكه لنفسه ولمحيطه، وإلى اتباعه طرقاً معينة من السلوك ليست قويمة أو مقبولةً من النـاس. ولو أتيحت لهـذا الشخص أجواء ومناخات أكثر ملاءمة، وأكثر توافقاً لما كان وقع تحت وطأة الظروف والملابسات والوقائع والأحداث التي أدت إلى إصابته بالمرض.

القَلق

القلق عدو للنفس الإنسانية

يقال: قلق الشيء أي لم يستقر في مكان أو على حال، فهو قلق كريشة في مهب الريح.

وقَلِقَ: اضطرب وانزعج.

ومعنى القلق النفساني: «الشعور بالضيق أو الانزعاج الذي يسبق الفعل الإرادي». ويكون، حسب ما ذهب إليه بعض الباحثين، على درجتين: درجة الانزعاج وعدم الرضا، ودرجة الجزع والكرب. ويعرَّف القلق في «علم النفس» على أنه «استعداد تلقائي للنفس يجعلها غير راضية بالواقع». فإذا تطلع الإنسان إلى تحسين أوضاعه، فوجد أن ظروف حياته المليئة بالأتعاب والمخاطر تبعده عما يصبو إليه من نوال الراحة أو السعادة، فإنّ ذلك يؤدي به إلى القلق والغمّ. هذا الإنسان في واقعه الصعب ذاك يشبه راكب سفينة مشرفة على الغرق، تتقاذفها الرياح والأمواج في بحرٍ هائج، لا يظهر له شاطىء أمان قد يلتجىء إليه، فتعتريه مشاعر كثيرة أقواها القلق الذي يستبد به، والخوف من الهلاك الذي يتراءى له.

وقس على ذلك مختلف الأحوال التي يمرّ بها الإنسان والتي تكون في غالبها محاطة بالمشاكل والمتاعب. فالتبعات الملقاة على عاتق الإنسان، والمسؤوليات المتعددة التي يحملها على أكتافه، والمستجدات الطارئة التي تعترضه، من غير أن يكون متوقعاً حدوثها.. كل ذلك يجعل الواحد منا مشتت البال، موزع الذهن، متحسراً، على الماضي، متوجساً من المستقبل.. هذا هو القلق بمعناه الحقيقي الذي يبعدنا عن راحة البال، وعن الاستمتاع بمباهج الحياة. ولذلك فإن الملايين من الناس يعتبرون أن ألدَّ عدوٍ لهم هو القلق، من جراء قساوة الحياة، ولا سيما في هذا العصر المادي الذي بات كل شيء فيه مصدر إرهاق للناس، الذين باتوا يخافون من الغد، ويخشون مما يخبئه لهم المجهول..

وبما أن القلق سبب للازعاج الدائم، والاضطراب المستمر، فإن غالبية المصابين بأمراض نفسية يكونون من الذين يعانون من إرهاق عصبي أو عقلي ناجم ـ في معظم الأحيان ـ عن شدة القلق، سواء أكان هذا القلق خوفاً من الأمراض العضوية، أو خوفاً على الزوجة والأبناء من عثرات الزمان، أو حمل هموم الأقارب، أو هموم الوطن مما قد يتهدده من مخاطر.. إلى آخر ما هنالك من مسببات للقلق تفرض على الإنسان فرضاً، دون أن يكون له حيلة في دفعها عنه، فتؤثر في نفسه حتى تجعلها تصاب فعلاً بالاضطراب أو المرض. لا بل إن هذا المرض قد يشتدُّ في النفس فيصاب صاحبه بوسواس السويداء، أو قد تستحوذ عليه تصورات مؤلمة فعلاً، فيحس بالآلام والأوجاع المبرّحة..

ولا يقف تأثير القلق عند حدود النفس بل قد يتعداها إلى الجسد نفسه، فيصاب من جراء ذلك بأمراض فعلية بيولوجية أو عضوية.

وهناك شواهد كثيرة في حياة الناس على أن كثيرين قد أدّت بهم الهموم إلى أن يصابوا بأمراض جسدية لشدة تأثرهم بالحوادث التي تقع لهم أو يصادفونها في حياتهم. وهذا هو سببُ الاعتقاد الشائع القائل بأن القلق هو أهم أسباب الضعف والفشل.

إلَّا أن كثيرين يعارضون هذا الاعتقاد، ويقولون بعكسه تماماً، وهو أن القلق، بدل أن يكون مجلبة للضعف، قد يكون ـ في أحيان كثيرة ـ مصدر قوة، وخاصة عندما يكون للإنسان هدف يريد تحقيقه، كما فعل كثيرون من الرجال العظام الذين أدوا للبشرية خدمات جلى، بينما كانوا في حقيقة حياتهم، مضطربين، قلقين. وقد وعوا ذلك وعملوا على تخليص أنفسهم من القلق، والانعتاق من إرهاقه.

وقد بيَّنت الإحصاءات التي قام بها بعض الباحثين مقدار النسبة في الأمور التي تقلق أغلب الناس، وجاءت النتائج على الشكل التالي:

«٤٠ بالمائة: أشياء لا تحدث مطلقاً.

٢٠ بالمائة: أشياء حصلت في الماضي ولا يمكن تغييرها مهما كان نوع القلق الذي ينشأ من جرائها.

١٢ بالمائة: قلق لا مبرر له بشأن الصحة.

١٠ بالمائة: مخاوف متفرقة.

صفر بالمائة: مخاوف حقيقية مشروعة».

وإذا كنا نعتبر أن الإحصاءات والأرقام لا يمكن أن تدل على حقيقة الواقع، في كثير من الأحيان، فكيف الحال بالنسبة لأمور تكمن في النفس البشرية، ولا يمكن ضبطها أو تحديدها بدقة، لاختلاف

النفوس وكوامنها، ولاختلاف الظروف التي يعيشها الأفـراد ويتأثرون بها إلى درجة كبيرة.

وإذا كانت الظروف المادية القاسية، أو أسباب العيش الصعبة هي أكبر الدوافع للقلق، فإن بالإمكان معالجة هذا الأمر عن طريق القناعة، والاكتفاء بالحد الأدنى من الحاجـات التي تؤمن العيش. وكثيرون هم الذين يعملون، بل ويشقون من أجل الحصول على ما يزيد عن حاجاتهم الضرورية سواء من المأكل أو الملبس أو المسكن، وهم بذلك يرهقون أنفسهم، ويتسببون لها بالقلق، من أجل أمور يمكنهم الاستغناء عنها.

ولعل أفضل علاج للقلق وأنجعه هو العمل، أو تشغيل الفكر بأشياء أخرى غير التي تبعث القلق في النفس. فالعمل من أهم السبل التي تقضي على القلق، ولكل إنسان أن يجرب هذا الدواء الناجع، وعليه أن يقارن بعد ذلك بين أيامه التي يقضيها بالبطالة والفراغ، وأيامه الأخرى التي يصرفها في العمل، ليتحقق من أن العمل هو الذي قضى على القلق لديه، ولا سيما إذا كانت لهذا العمل نتائج مفيدة.

ويبقى، بعد ذلك كله، أن الإنسان المؤمن الصادق، يعلم علم اليقين بأن كل ما يصيبه في حياته ليس من أمره، وإنما هو من أمر ربه وما كتب له في اللوح المحفوظ، ولا يمكن الفرار من المشيئة الإلهية، التي تتصرف، ليس في حياته وحده، أو في حياة الأفراد والجماعات وحسب، بل وفي الكون بأسره. فالحكمة الإلهية بالغة أمرها، وعندما يثق الإنسان المؤمن بحكمة ربّه يرتاح كثيراً، لأنه يطمئن إلى عدالة الله تعالى ورحمته وهداه. وعندها تستقر مشاعره، ويتوكل على ربه حق

التوكل، ويعتمد عليه ـ سبحانه ـ في كل شأن من شؤون دنياه، مهما عظم، وفي كل حاجة مهما كانت ماسّة. فتطمئن نفسه إلى تلك المشاعر، وتنقلب نفسه من نفس قلقة إلى نفس مطمئنة، تتفاءل دائماً بالخير، لأنها متوكلة على ربها سبحانه حق التوكل.

العلاج النفسي في الإسلام

إن العلاج النفسي في الإسلام يقوم على البناء العقائدي للإنسان. فالإسلام هو عقيدة التوحيد التّامة، وهو الاستسلام لله تعالى الواحد الأحد. والعقيدة الإسلامية قوامها ألوهية الله تعالى المطلقة، وربوبيته المطلقة، وعن هذا الأساس تنبثق سائر البناءات الأخرى.

وأول ما يتوجب على الإنسان أن يربط وجوده ومصيره كله بالله تعالى، وأن يجعل الصلة قائمة ومتجددة فيما بينه وبينَ خالقه، دون واسطة من أحد، لأن صلاح النفوس، وطهارة القلوب، وصفاء العقول كلها متوقفة على معرفة حقيقة وجود الله تعالى، والإيمان المطلق بألوهيته وربوبيته، والعمل بكل إخلاص ونيةٍ صادقة في سبيل الله تعالى، ومرضاته. إن ذلك يجعل قلب المؤمن ممتلئاً بحب الله تعالى وحب رسوله الكريم، ويدفعه إلى عبادة ربه والاستدامة على ذكره وخشيته، والالتجاء إليه في السراء والضراء، والتوكل عليه في كل أمر وشأن بعد إعداد العدة وتهيئة الأسباب اللازمة..

وهذا هو الفرق الأساسي بين علاج النفوس في الإسلام، وعلاجات النفس التي يخترعها الغرب والتي تبعد كثيراً عن معرفة

النفس الإنسانية معرفةً حقيقيةً، ولذلك فلا تنفع معها طرق علاجاتهم ووسائل تعليمهم ومختلف أساليبهم. .

ومعرفة ما في النفس من قدرات وميول وطموحات ودوافع، والوقوف على كوامن الضعف والقوة فيها، وتبصيرها بواجباتها وحقوقها وسلوكياتها، والتعامل معها بواقعية وصدق وإخلاص، وتوجيهها إلى عمل ما يزكيها. . كل ذلك يؤدي إلى إبعادها عن كل ما يندسُّ فيها من مفاسد. . .

فأول علاجات النفس يكون بمعرفة هذه النفس، وبعد هذه المعرفة يأتي توجيه النفس إلى الطريق القويم الذي هو طريق الإيمان والعمل الصالح كما يذهب إليه بحق غالبية علماء المسلمين. والإنسان الذي يريد أن ينمي معرفته بنفسه، عليه قبل كل شيء محاسبة هذه النفس في ضوء واقعها وحقيقة تكوينها، أي في ضوء ما يكمن فيها من إمكانات وقدرات، وما هو مطلوب منها من واجبات ومحظورات. ولذلك يجب على الإنسان أن يعامل هذه النفس برقة ولين، وبفهم وحكمة، فلا يقسو عليها كل القسوة، ولا يلين ويتساهل معها كل التساهل.

ومحاسبة النفس على كل صغيرة وكبيرة يجب أن يكون عملاً يومياً مستمراً. فكما يمسك التاجر محاسبة يومية، فيدون كل ما يبيع ويشتري ليكون على بينة من موقعه التجاري، مما يساعده كثيراً في مسار تجارته، فلا يفاجأ يوماً بوقوعه في خسارة لا يمكنه تعويضها. . كذلك الإنسان يجب أن تكون محاسبته لنفسه بالوقوف على جوانب قوتها وضعفها، ومدار سلوكها وتوجهها، فيصلح انحرافها، ويدفعها إلى ما يرضي الله تعالى، ويحاسبها على أخطائها، ويثنيها عن معاصيها،

ويدفعها إلى القيام بواجباتها. . وذلك كله قبل أن يحاسبه الناس في الدنيا، وقبل أن يحاسبه الله تعالى في الآخرة. قال عمر (رض): «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم».

وعند تقويم جهودنا ومحاسبة أنفسنا قد نجد أن التوفيق حالفنا فنشكر الله تعالى ونحمده على ما أعاننا من عمل الخير والصلاح، فنداوم عليه، أو قد نجد أننا مقصرون في بعض الواجبات، ومرتكبون لبعض الهفوات، فنتوب ونرجع عنها لأن في التوبة أسفاً وندماً على ما فعل الإنسان من خطأ أو معصية، وفيها رغبة وإرادة في ترك ذلك، وعزم وإصرار على عدم العودة إليه ثانية. فالتوبة عملية نفسية صحية يتم فيها التخلص من مشاعر الذنوب، وتحويل أفكار العجز والتشاؤم والحط من شأن الذات إلى أفكار ومشاعر كفاءة وتفاؤل وإقبال على الحياة بروح من التقوى والصلاح.

ومن العلاجات التي يتبعها الأطباء النفسيون لدى المجرمين والمضطربين نفسياً تبصيرهم بأخطائهم وذنوبهم بصورة موضوعية، حتى يولِّدوا لديهم القناعة بعدم لوم أنفسهم لوماً شديداً يبقيهم في المرض، وعدم المبالغة في تحقيرها حتى لا يُميتوا فيها بذرة التفاؤل والعودة إلى الحياة الطبيعية، لأنَّ أخطاءهم، مهما كان نوعها، يمكن التخلص منها والإقلاع عنها. .

وهذا ما ذهب إليه الإسلام وشدَّد عليه عندما جعل التوبة من الخطأ، كالصلاة، فرضاً على كل مسلم، ورغَّب في التوبة كثيراً، وذمَّ من يستكثر ذنوبه ويقنط من رحمة الله تعالى. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ

ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أخطأ أحدكم حتى ملأ ما بين السماء والأرض ثم تاب، تاب الله عليه».

فالتوبة الخالصة، التوبة النصوح، هي سبيلنا إلى الخلاص من الذنوب والمعاصي، وهي أحد سبل النجاة من أمراض نفوسنا، لأنها تخلص النفس من التوتر والقلق، ومن الشعور الدائم بالذنب. فهذا الشعور، في حال استمراره، قد يهلك الإنسان هلاكاً نهائياً لأن من شأنه أن يدفع بعض النفوس الضعيفة إلى الانحدار في حمأة الخطيئة، أو قد يتفاعل فيها الصراع وتحتدم المشاعر فتندفع إلى الانتحار، وفي ذلك هلاك في الدنيا والآخرة.

والتوبة من شأنها أن تعالج القلوب المريضة وتشفيها. وهي لا تقف عند حد الكلمات، أو أداء الحركات، بل إنها إخلاص في النية على ترك الخطأ أو المعصية، وإقلاع فوري عن كل منهما، وعزم صادق على عدم الرجوع إليه. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾[2].

والتوبة النصوح تحمل الإنسان على أن يلتمس العذر والمسامحة ممن أساء إليه من بني البشر، وأن يعوضه عن خسارة ألحقها به، أو يزيل عنه الضرر الذي أصابه به. فمعرفة المذنب ما ارتكب، وسعيه لإصلاحه أو التعويض عنه قد يشعره بالرضا، وبراحة القلب، ويدفع عنه الهم والقلق. وأما إذا كان الذنب في حق الله تعالى، فيكفي فيه

---

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦.

تركه، والندم عليه، وعدم العودة إليه، ثم العمل بما يذهب سخط الله تعالى ويحلَّ مكانه رضاه ومرضاته. فهو سبحانه الذي يبدل سيئات المحسن حسناتٍ ويتوب على عباده، ويغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم.

وقد رفع الإسلام من شأن التوابين، وجعل توبتهم الخالصة عملاً تعبدياً يحبه الله تعالى. ولذلك جعل الله تعالى باب التوبة مفتوحاً أمام التائب، مهما تكررت ذنوبه، إذ في كل مرة يتوب المذنب إلى خالقه يكون هنالك إقرار منه بألوهية هذا الخالق، ويقين بأنه الرب الغفور الرحيم الذي يُلجأُ إليه في تقبل التوبة، وترك الذنب. قال ﷺ: «إنَّ عبداً أذنب ذنباً فقال: رب أذنبت ذنباً فاغفر لي. فقال ربه: أَعَلِمَ عبدي أَنَّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخر فاغفره، فقال: أَعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ فغفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت أخر فاغفره لي. فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ به؟ فغفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء ما دامت توبته توبة نصوحاً».

نعم، إن في التوبة إلى الله تعالى والاستعانة به واستغفاره واللجوء إليه، ما يجدد صلة العبد بربه ويجعل الإنسان يستشعر الطمأنينة والأمن بذكر الله تعالى.

العلاج النفسي عند ابن القيم

لقد بحث بعض العلماء المسلمين كثيراً في علاجات النفس الإنسانية من الأدران التي تصيبها. وكانت لابن القيم نظرة ثاقبة في هذا المجال، إذ وضع أبحاثاً قيمة في معالجة النفس الإنسانية معتمداً في

ذلك على الصلة بين العبد وربه، هذه الصلة التي تعتبر الدعامة الأولى لكل علاج من علاجات أمراض النفس. ومن أبرز ما ذهب إليه ابن القيم في هذا المجال النقاط التالية:

ـ تخفيف الآلام بالكلام الطيب: فهو يرى أنّ بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة كما هي الحال في فاتحة الكتاب مثلاً. وفي حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئاً وهو يطيب نفس الإنسان». ومن هدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في علاج المرضى يستنتج ابن القيم أنَّ «تفريح نفس المريض وتطييب قلبه وإدخال ما يسره عليه له تأثير عجيب في شفاء علته.. ومن واقع التجربة الحية يثبت أن الناس شاهدوا كثيراً من المرضى تنتعش قواهم بعيادة من يحبونه ويعظمونه، ورواياتهم له ولطفهم به ومكالمتهم إياه وهذه إحدى فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم».

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان: «يسأل المريض عن شكواه وكيف يجده؟ ويسأله عما يشتهيه، ويضع يده على جبهته وربما وضعها على صدره، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته.. وربما كان يقول للمريض: لا بأس عليك: طهور إن شاء الله تعالى». ثم يعلق ابن القيم قائلاً: «وقد تضمنت العيادة في هذا الحديث عناصر الكلام والدعاء واللمس فضلاً عن وصفة العلاج الخاصة».

ويعتبر ابن القيم أن نجاح العلاج النفسي يتوقف بدرجة كبيرة على شخصية المُعَالِج، وقدرته على إيجاد علاقة حميمة بينه وبين المريض، بحيث يستشعر هذا معه الطمأنينة، ويمنحه الثقة، فيحصل نوع من التفاعل المتبادل بينهما، ويجعل للمعالج تأثيراً لتغيير بعض

الجوانب الشعورية في نفس المريض. وهو يضرب مثالاً على ذلك تأثير الرّقية على الملدوغ حيث يقول: «لو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ولم تقو نفس الراقين على التأثير لم يحصل البرء.. وإن نفس الراقي لتفعل في نفس المرقى فيقع بين نفسيهما فِعْلٌ وانفعال ـ كما بين الداء والدواء ـ فتقوى نفس المرقى بالرقية على ذلك الداء فيدفعه بإذن الله تعالى».

ـ إزالة الألم بالضد: ومن قبيل ذلك اتباع هوى النفس فإنه يؤدي بصاحبه إلى إيذاء نفسه والإضرار بها، «فيتولد ـ من بين إيثارها للداء واجتنابها للدواء ـ أنواع من الأسقام والعلل التي تعيي الأطباء ويتعذّر معها الشفاء».

والإضرار الذي يحصل هنا ينتج عن غفلة قلب الشخص فلا يدرك ما يفعل.. ولذلك يرى ابن القيّم أن اقتراف المعاصي والفساد قد يكون عقاباً للذات وتأنيباً لها للتخفيف من مشاعر الإثم.. أو كما يقول: «إن أهل المعاصي والفساد إذا قضوا منها أوطارهم وسئمتها نفوسهم ارتكبوها وفقاً لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم». كما يحدث مثلاً لمدمني الخمر حينما يتحول الداء عندهم إلى دواء، ومن ثم فلا دواء إلا بمخالفة الهوى طبقاً لقاعدة أنَّ «المرض يُزال بالضد».

ـ الإنابة: إن اللجوء إلى الله تعالى والإنابة إليه، وجعل الأمور كلها بيده، فيه إقرار من العبد بضعفه، وعجزه عن الصمود أمام الشدائد ما لم يتداركه الله تعالى برحمته، ويفيض عليه من رأفته به. وهذا الإيمان من العبد بأنَّ إرادة الله تعالى المطلقة، ومشيئته المهيمنة هي التي تسيّر كل شيء، وتحرك كل أمر، وتقضي بما يقتضي عدل

الله تعالى وقضاؤه، هذا الإدراك الإيماني من شأنه، أن يخفف عن المصاب حدة التوتر والغضب، أو التحسر والألم، ويجلو عن نفسه ما يمكن أن يتولد عن ذلك كله من شعور بالخيبة أو الندم أو الإثم. .

ـ إعطاء المرض دلالة: فكل مصيبة تحل بالإنسان أو شدة تطاله يجب أن تكون ذات دلالة ومعنى في حياة المؤمن. وذلك لاعتقاده بأنه لا يصيبه إلا ما كتب الله تعالى له. ولأن في ذلك حكمة ربانية لا يعرف كنهها: فالمرض ابتلاء، والمحنة امتحان للصبر، والقبول بقضاء الله تعالى وقدره هو في اعتقاد المؤمن أن ذلك في مصلحته، فإن صبر ظفر، وإن قبل نال الرضا والمغفرة. وبالنسبة له: «ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

ـ التماس العوض: وهو يعني أن فقدان الشيء أو امتناعه أو فواته يمكن تعويضه بما يمكن أن يوجد بديلاً عنه من مشاعر إيجابية تقوم مقامه مثل: الصبر على البلية مقابل الثواب، وتحمل مرارة الدنيا مقابل حلاوة الآخرة. . يقول ابن القيم: «على الإنسان أن يروّح قلبه بروح رجاء الخلف من الله» أو كما قال الشاعر:

من كل شيء إذا ضيَّعته عوضٌ وما مِن الله إنْ ضيّعته عـوضُ

ـ العلاج بالتخييل: يلاحظ ابن القيم أنَّ للوهم قوة فعلية في الإصابة بالمرض أو التوقِّي منه.

وهذا صحيح لأن الوهم قد يؤثر في النفس إلى درجةٍ يقع معها الإنسان، في حالات معينة، بالمرض الفعلي. فكثرة التوهم بإصابته بمرض معين يؤدي إلى حصول هذا المرض في جسده، وقد ثبت ذلك في حالات أشخاص عديدين. على أن الثقة بالنفس ـ بالمقابل ـ قد تساعد المريض كثيراً على البرء من سقمه حتى بعد الإصابة به.

ويعوِّل الأطباء النفسانيون كثيراً على زوال الأعراض النفسية والعقلية من خلال إعادة الثقة إلى أنفس المرضى، واطمئنانهم إلى قواهم الذاتية في الشفاء.

ـ الإثارة الانفعالية: يقول ابن القيم: «إن القلب يحصل له من الابتهاج واللـذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم. وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه ويقوِّي نفسه كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسي. فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى».

وهذه الإثارة اعتمدها بعض الأطباء المسلمين، كما يروي ابن أبي أصيبعة، في نفوس مـرضاهم لشفـاء بعض الأمراض النفسيـة المستعصية، بحيث يكون لها وقع الصدمة المفاجئة التي تدفع الداء عن الأنفس.

وهكذا نلاحظ أن ما ذهب إليه ابن القيم لا يعدو كونه وجهات نظر معينة تقوم على انفعالات النفس وتأثرها: إما بصورة ذاتية عن طريق الإيمان الذي يجعل العبد مرتبطاً بخالقه تعالى برابطة الإخلاص القلبي، والتوجه الوجداني وإيكال الأمور جميعها إليه سبحانه بحيث لا يأتيه خير إلَّا وحمده، ولا تأتيه شدة إلا وصبر عليها، وإما بصورة التأثر بالغير عن طريق الإيحاءات التي يولدها في نفسه هذا الغير مثل تأثير المعالج، أو التأسّي أو خلافه.. فيكون ابن القيم قد اعتمد «القلب» أساساً للداء والدواء بما يضفي على نظرياته طابعاً إيجابياً هاماً في شفاء النفس من بعض عللها وعاهاتها.

ولا شك في أن من يعمل بهدي القرآن الكريم، ويقتفي أثر سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم يجد من الزاد ما يغني ويسعد في الدارين. وهذا

القرآن المجيد يحتضن بين دفتيه السبيل **الأقوم** لمعالجة الإنسان، لما فيه من طاقة روحية ذات تأثير بالغ في النفس. ومن يقف على مضامينه يجد ما يهزُّ وجدانه، ويرهفُ أحاسيسه، ويوقظ تفكيره، ويجلو بصره وينير بصيرته، فإذا بالإنسان الذي فعل في نفسه القرآن فعلَهُ يصبح إنساناً آخر، كأنه مولود من جديد.

وإن ابتعاد الناس عن الإسلام والقرآن في جميع المجالات الإنسانية هو الذي يوقعهم في المآزق التي يتخبطون بها لأنهم لم يجدوا بعد طريقاً مستقيماً، ومنهجاً سوياً يحقق لهم ذواتهم وإنسانيتهم، وهم ـ بلا ريب ـ لن يجدوا الطريق المستقيم ولا المنهج السليم إلا بالإسلام. وها هي العلوم الحديثة على اختلافها، ومنها علم النفس، فبرغم ما تبذل من جهود في ميادين التربية والتعليم، لتوجيه أفراد مجتمعاتها وخاصة الناشئة الجديدة منهم، وجعلهم مواطنين صالحين، وبرغم ما تصرف من جهود في مجالات الصحة البدنية والنفسية، فإن جميع تلك الجهود والمحاولات لم تحقق المواطن الصالح والإنسان السعيد، إذ إن الجرائم تزداد يوماً بعد يوم، والانحرافات تسوء أكثر فأكثر..

وفي ميدان العلاج النفسي للاضطرابات الشخصية والأمراض النفسية، وبرغم تنوع النظريات والطرق والأساليب المستعملة، فإن هذه النظريات وغيرها لم تتوصل بعد للقضاء على الأمراض النفسية ولا إلى الوقاية منها. لقد أثبتت دراسات كثيرة أن الذين يتماثلون للشفاء من أعراضهم النفسية بدون علاجات، لا تقل نسبتهم عن الذين يعالجون نفسانياً، بل إن بعض المرضى كانت تسوء أحوالهم بعد العلاج النفسي.

يضاف إلى ذلك عامل هام جداً وهو أن الحياة الداخلية للإنسان، بالإضافة إلى أنها سرٌّ خاص، يُفترض أن يكون لها احترام وقدسية ولا يجوز التعامل معها كسلعة تعرض للمعاينة، والإخضاع للتجربة والاختبار أو التخمين. وإننا نرى من يذهبون إلى العيادات للمعالجة النفسية، يكون عليهم أن يقدموا لمعالجيهم ما في دواخلهم، وأن يطلعوهم على أسرارهم، وقد تكون هذه الأسرار متعلقة بالعلاقات العائلية الحميمة، ولا سيما بين الزوج وزوجته، وهذا مما يحط من قيمة هؤلاء الأزواج عند كشفها للآخرين، فضلاً عن أنها يجب أن تبقى مصونة لدى أصحابها ولا يجوز البوح بها وجعلها مبتذلة بين أيدي الآخرين، فربما اطلع عليها من يستغلها لمآرب شتى، فتكون الكارثة على العائلة بأسرها ومن الجائز أن يسبب ذلك تدميرها.. وهذه واحدة من المساوىء الكبرى التي قد تنجم عن المعالجات النفسية، تلك المعالجات التي باتت وكأنها الخبز اليومي للناس لشدة ما يحيق بهم من القهر والشقاء والتعاسة..

ويبدو أن هنالك اتجاهاً حديثاً بدأ به بعض الباحثين وهو الوقاية من الأمراض النفسية قبل الوقوع فيها، وذلك من خلال الوقوف على الأزمات التي تنشأ من العلاقات في بعض البيئات، ومحاولة إيجاد حلول لهذه الأزمات قبل أن تطغى وتظهر بأعراض السلوك المنحرف. ويبدو أنَّ هذه المحاولات عقيمة الجدوى. ومثالها تدخُّلُ رجال الشرطة في بعض مدن أميركا الكبرى في العلاقات العائلية، كما في حالة التنافر بين الزوجِ وزوجته، أو بين الأب وابنه أو ابنته. فهذه المحاولات لم تؤدِ إلَّا إلى وضع حدٍّ مؤقت للخلاف أو فرض غرامة أو عقوبة معينة ـ في أسوأ الاحتمالات ـ أمّا آثارها النفسية فتبقى وتتفاعل

مما يولد الاضطرابات النفسية والأمراض العصابية. ومن هنا عدم جدوى محاولات الوقاية تلك..

الوقاية والتقوى

يقال في اللغة: وقى وقاية. والوقاية هي حفظ الشيء مما يؤذيه أو يضره. والتقوى: جعل النفس في وقاية مما تخاف. وفي تعريف الشرع: إن التقوى هي حفظ النفس مما يوقع في الإثم وذلك بترك المحظور والمحرم. والغاية منها أنْ يقيَ الإنسان نفسه من غضب الله تعالى وعذابه.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

لقد أتى الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات البيّنات على ذكر المتقين في حالات أربع:

---

(١) آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٨.

أولاً ـ طلب من المؤمنين المتقين أن يحفظوا أنفسهم من إثم كبير وذلك بالتخلي عن الربا لعلهم يفلحون.

ثانياً ـ طلب منهم أيضاً أن يحفظوا أنفسهم من حرِّ النار التي أُعِدّت للكافرين.

ثالثاً ـ طلب منهم أيضاً أن يسرعوا في التوبة قبل فوات الأوان كي ينالوا مغفرة من الله الغفور الرحيم. لأنه إذا قبلت توبتهم ونالوا مغفرة من ربهم فإن جنةً عرضها السماوات والأرض أعدها ـ سبحانه وتعالى ـ لهم، «للمتقين» الذين يحافظون على أنفسهم ويحفظونها من الآثام.

رابعاً ـ عدَّد الله سبحانه وتعالى صفات المتقين بأنهم:

(أ) الذين ينفقون في السراء والضراء.

(ب) الذين يكظمون الغيظ.

(جـ) الذين يعفون عن الناس.

(د) الذين إذا فعلوا فاحشةً، ذكروا الله تعالى كثيراً واستغفروا لذنوبهم، كي يذهب عنهم الفاحشة، ويخلصهم من الضعف الذي يعتري نفوسهم.

(هـ) الذين إذا كرروا الذنب ـ بسبب ضعفهم، ووقوعهم في الفتنة والتجربة ـ لم يصرّوا على فعلتهم.

(و) الذين يعلمون جيداً أنه لا ملجأ من الله تعالى إلَّا إليه، ويوقنون حق اليقين أن الاستمرار بالمعصية استسلام للشيطان، عدو الإنسان المبين، وخاصة المؤمنين من بني البشر.

ويبين الله سبحانه وتعالى أن كل ما تقدم من وعد ووعيد ـ في الآيات الكريمة ـ إنما هو هدى وموعظة للمتقين، لأن هؤلاء وحدهم هم العاملون على حفظ أنفسهم من ارتكاب الآثام. وإذا وقعوا في بلاء المحنة والشدة بالإسراف على أنفسهم في غوايات الدنيا فإنهم لا يلبثون أن يتخلوا عن لذائذ المعصية الفانية التي مهما طال أمدها لا تساوي القليل القليل من سخط العزيز الجبَّار، ولا تغني عن القليل القليل من رضا الودود الغفَّار.

ولدى تدبّر بعض الذي جاء في هذه الآيات المبينة تظهر لنا أهميتها في حياة الناس، وتظهر كذلك ضرورة التوقف عندها، والتأمل بها ملياً نظراً لفوائدها العظيمة.

﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾..

يحضُّ القرآن الكريم المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى. ووجوه هذا الإنفاق في الإسلام واضحة المعالم إنْ بالنسبة للزكاة والصدقة، وإن بالنسبة للجهاد في سبيل الله المنعم الوهاب. والإنفاق من ذوي النفوس الطيبة يرتقي إلى درجة السخاء. قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في حقهم: «الجنة دار الأسخياء». وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد عن النار». فالذين ينفقون بسخاء في جميع الأحوال، إن في السراء أو في الضراء، ويظلون مثابرين على البذل، لا تبطرهم السراء فتلهيهم، ولا تضجرهم الضرّاء فتنسيهم، هؤلاء هم المتقون المحسنون. والله تعالى يحب المحسنين.

«والكاظمين الغيظ﴾..

فهم لا ينتقمون ممن يدخل عليهم الضرر، بل يصبرون على ذلك. والكاظم أو الكظم هو من امتلأ غضباً ولم ينتقم. قال رسول

الله ﷺ: «من كظم غيظه وهو قادر على إنفاذه ملأه الله يوم القيامة رضا».

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾..

الفاحشة من الكبائر، وظلم النفس من الصغائر. وفي الكبائر والصغائر إثم أو ذنب يستدعي التوبة والإقلاع.

﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾...

فقالوا في استغفارهم: «اللهم اغفر لنا ذنوبنا فإنا تبنا نادمين عليها، مقلعين عنها». أو قالوا أيَّ دعاء فيه تضرع إلى الله سبحانه وتعالى بطلب التوبة والمغفرة.

﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾...

لم يقيموا على المعصية، ولم يواظبوا عليها ولم يَلزموها، بل كرهوها كرهاً شديداً حتى عافتها أنفسهم.

﴿وهم يعلمون﴾...

أن الله تعالى وحده الذي يملك المغفرة لذنوبهم، وهو وحده الذي يعلم بأحوالهم، وما خلقهم عليه من ضعف، إلَّا أنَّ فضلهم هو في الانتصار على هذا الضعف والتخلص من مساوئه، للولوج إلى باب التوبة، والدخول في الطاعات والعبادات، وكل ما يرضي الله تعالى الغفور الرحيم. بل وهذا العلم بالذات هو رحمة من الله تعالى، لأن مشيئته المطلقة التي تهيمن على الكون كله، بما فيه، قد تلطفت بهؤلاء العباد فجعلتهم يدركون قدرة الله تعالى في تغيير الأحوال، ولطفه الذي يشفي العليل، فطمعوا في رضوان الله تعالى، وكانت لهم هذه المغفرة.

﴿ونعم أجر العاملين﴾ . . .

إن ما وصفه الله الكريم الوهاب من الجنات وأنواع الثواب والمغفرة إنما يهدف في الأساس إلى ستر الذنوب ومحوها حتى تصير كأنها لم ترتكب، وذلك بزوال العار بها، ودفع العقوبة عليها. والله تعالى هو المتفضّل بذلك لأن إسقاط العقاب عند التوبة تفضُّلٌ منه. وأما استحقاق الثواب بالتوبة فواجب لا محالة عقلاً، لأنه لو لم يكن مستحقاً بالتوبة لكان التكليف بها غير مجدٍ لما فيها من المشقة، فضلاً عن أنَّ وعْدَ الله تعالى محققُ الغاية، فهو سبحانه يَعِدُ التائبين المستغفرين بالعفو عنهم وبإثابتهم على الرجوع إليه سبحانه، وبإبدال سيئاتهم التي ارتكبوها حسنات في حال كانت توبتهم نصوحاً.

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ . . .

الفرق بين البيان والهدى، أن البيان إظهار المعنى للغير كائناً من كان، والهدى بيان لطريق الرشد من طريق الغي. ﴿وموعظة للمتقين﴾ هي تخصيص من الله تعالى لهذه الفئة من عباده، مع كون البيان والهدى والموعظة هي للناس كافة. والتخصيص مقصود، لأن المتقين هم وحدهم الذين يقدرون على الانتفاع به، والاهتداء بهداه، والاتعاظ بمواعظه. ولو كان الناس جميعهم عاملين كما يعمل المتقون لما كان هنالك حاجة لتخصيص هؤلاء بالموعظة.

وهكذا فإن التقوى تقضي أن يكون الإنسان دائم التوجه إلى الله تعالى في كل ما يقوم به ابتغاء مرضاته وثوابه. وهذا يدفع الإنسان دائماً إلى تحسين ذاته، وتنمية قدراته ومعلوماته، ليؤدي عمله دائماً على أحسن وجه. إن التقوى بهذا المعنى تصبح طاقة موجِّهة للإنسان نحو السلوك الأفضل والأحسن، ونحو نمو الذات ورقيها، ونحو تجنب

السلوك السيء والمنحرف والشاذ. وقد وصف الإمام علي عليه السلام المتقين، فقال:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى ـ خَلَقَ الْخَلْقَ، حِينَ خَلَقَهُمْ، غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ. وَلَوْلاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ: شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً. يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ

القِدَاحِ[1] يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا[2]!.

وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ القَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ. إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً. حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى. يَمْزُجُ الحِلْمَ بِالعِلْمِ، وَالقَوْلَ بِالعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً[3] أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ[4]، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ

---

(١) السهام.

(٢) مازجهم خلل.

(٣) قليلاً.

(٤) حصيناً.

لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحْشُهُ[1]، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي المَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لاَ يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي البَاطِلِ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ».

وهكذا يتبين لنا أن التقوى هي أحد الأجواء التي يعيش المسلم المؤمن في ظلالها كي يقيَ نفسه من العثرات، ويحميَها من السيئات، ويدفعَها إلى التطهّر والتزكية. فهي إذن أهم وسيلة للوقاية من الأمراض النفسية، أو من الاضطرابات العصبية التي قد يتعرض لها الإنسان في الحياة.

والإسلام يشدد على التقوى، لا بوصفها وسيلة ناجعة لتلك الوقاية وحسب، بل لأن لها تأثيرها أيضاً على الصحة النفسية بوجه عام. فهي علاج قرآني ونبوي من أجل نفس الإنسان، يبعد بها عن الأطباء والمشعوذين، وعن العيادات والمختبرات.. فالإنسان عندما يتبع هذا العلاج إنما يحتاج إلى نفسه فقط، وذلك بالرجوع إلى

---

(١) القبيح من القول.

هذه النفس ومكاشفتها ومصارحتها على حقيقتها، ثم وضع مساوئها وعوراتها على مشرحة منهجه الديني وهو كفيل بمعالجتها وشفائها.

وهذا ما أخذت تهتم به بعض الاتجاهات الحديثة لدى علماء النفس بتأكيدها على أهمية الدين في الصحة النفسية وفي علاج الأمراض النفسية، بعدما ظهرت أهمية الدين وما يمدّ به الإنسان من طاقة روحية تعينه على مواجهة مشاق الحياة، وتجنبه كثيراً من الصراعات النفسية وما ينجم عنها من قلقٍ واكتئاب وشقاء.

ومن علماء النفس المحدثين الذين نادوا بأهمية الدين في العلاج النفسي عالم النفس الأميركي (وليم جيمس)، فقد قال: «إنَّ أعظم علاج للقلق، ولا شك، هو الإيمان... والإيمان يعتبر من القوى التي لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش. وفقدُهُ نذيرٌ بالعجز عن معاناة الحياة.. إن بيننا وبين الله ـ تعالى ـ رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه ـ تعالى ـ تحققت كل أمنياتنا وآمالنا»..

ويحاول (جيمس) أن يعطي مثالاً حسياً على أهميـة الإيمان وتأثيره في أعماق النفس فيقول: «إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق ولا تقلق أمنه، وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله ـ تعالى ـ خليق بألَّا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة. فالرجل المتدين حقاً عصيٌّ على القلق، محتفظ أبداً باتزانه، مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف».

وعن أهمية الدين في مواجهة مشاكل الحياة كلها يقول المحلل النفسي (كارل يولج): «استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة، وعالجت مئات كثيرة من المرضى... فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في

النصف الثاني من عمرهم - أي جاوزوا الخامسة والثلاثين - من لم تكن مشكلته في أساسها هي افتقاره إلى وجهة نظر دينيـة في الحياة. وأستطيع أن أقول: إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض لأنه فقد ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها، ولم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة».

وهنالك كثير أيضاً من المحللين النفسيين، ومن المفكرين في الغرب الذين يرجعون أزمة الإنسان المعاصر، ولا سيما الإنسان الأوروبي والأميركي، إلى افتقاره للقيم الدينية والغذاء الروحي الذي يمدّه به الدين، ويعتبرون أن العلاج الوحيد لتخليص الإنسان من هذه الأزمة القاتلة لا يكون إلا بالرجوع إلى الدين.

والدين الإسلامي، وبخاصة من خلال القرآن المبين وسنّة الرسول الكريم، يفيض ببيان العلاجات للنفس الإنسانية. وهو يملي على الإنسان أن يعيش في مناخات وأجواء دينية. ويطلب من الإنسان المسلم أن يضع نفسه دائماً في مناخاته وأجوائه الإسلامية إن أراد صون نفسه، وحفظ مجتمعه، وانفتاحه على مختلف القيم الإنسانية.



الفصل السّابع عشر

الأمانُ النفسي

الأمانُ النفسي

هنالك فرق بين الأمن والأمان. الأمن تحققه دولة قوية وحازمة، أما الأمان فلا يحققه إلا الإيمان الذي يبعث في النفس الاطمئنان اليومي. وما ذلك إلا لأن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى يثبت في نفس الإنسان منذ الصغر، ويكسبه مناعة ووقاية من الإصابة بالأمراض النفسية. فشعور المؤمن بسكينة النفس وطمأنينتها هو الباعث الأكبر على صحة هذه النفس. ولا يتوفر هذا الشعور إلا بالإيمان الصادق، والتوجه المخلص إلى الله العلي القدير، فيطمئن المؤمن إلى أن ربه تعالى معه دائماً، وهو يرعاه ويحفظه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

والنفس عندما تطمئن إلى خالقها وبارئها تصبح في انعتاق كلي من كل سوء قد يشوبها، ومن كل أمر قد يؤذيها، وهي ترنو دائماً إلى لقاء ربها والرجوع إليه، غير هيابة ولا وجلة من أي شيء، حتى من الموت، فهي لا تخافه لأنها تجد فيه عتبة الولوج إلى باب الآخرة حيث

---

(١) الرعد: ٢٨.

حياة الطمأنينة الخالدة. ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[1].

وعن أنس أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له».

وعن عبيد الله بن مُحصَّن الخِطْمي أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أصبح آمناً في سربه، معافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

في هذا الحديث الشريف ثلاثة أمور هامة: شعور الإنسان بالأمان في جماعته، والعافية في جسده بخلوِّه من الأمراض، وقناعته بالاكتفاء بقدر ما يؤمن الإشباع لحاجاته الضرورية وغرائزه الفطرية.. وهي مقومات أساسية للصحة النفسية لأنها من أهم العوامل على بعث السعادة والاطمئنان في النفوس.

فالأمان النفسي لا يكون إلّا بالإيمان المطلق بحقيقة وجود الله تعالى وما يُبنى على هذا الإيمان من مناهج وفرائض..

ومن هذه المناهج:

الشورى

التشاور والمشاورة والمشورة تأتي بمعنى واحد وهو استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض. وهو مأخوذ من قولهم: شرت

---

(١) الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه، لأن معنى الشور: اجتناء العسل. والمشورة هي استخراج الرأي من المستشار لأنها تُجتنى منه..

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من رجل شاور أحداً إلاّ هدي إلى رشد».

وقديماً قيل: المشورة فيها بركة.

وقد نصح أحدُهم بقوله: إيَّاكَ ومشُورةَ رجلين: رجلٍ أكلَ الدهر من جسمهِ كما أكلَ من عقله، وشابٍّ مغرورٍ بنفسهِ قليلِ التجاربِ في غيره.

وقال الشاعر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة   يوماً وإن كنت من أهل المشورات

تلك بعض المعاني التي تدل على أهمية الشورى في حياة الأفراد، لما فيها من نصح وإرشاد، ولما تقوم عليه من تبادل في الرأي، وانفتاح في الأفكار، وتحديد في الاتجاه بعد سبر المسالك واجتياز النتوءات وملء الثغرات...

والشورى في حياة الأمم أهم بكثير مما هي في حياة الأفراد، لأنها ترسم طريق الجماعة في العيش، والعمل، والحكم ومختلف الشؤون العامة.

والأنظمة السياسية الحديثة، تدَّعي قيامها على «مفهوم الشورى» بما يسمونه «الديموقراطية»، وتزعم بأنها تأخذ بآراء الشعوب لتحديد الاتجاهات، واتخاذ القرارات المصيرية الهامة بالوسائل المعروفة، وأساليب الحكم المتبعة. ولكن هناك شك في أن تكون هذه

الديموقراطيات قد حققت أهدافها، أو أنها كانت تقوم فعلاً على الاستجابة لآراء الشعوب وتحقيق أمالها كما تدّعي..

أما الإسلام كنظام للحياة فإن من أهم دعائمه الأساسية: الشورى..

وقد اعتمد رسول الله ﷺ الشورى وسيلة لتقرير كثير من الأمور الهامة في حياة الجماعة الإسلامية، وفي ترسيخ قاعدة الحكم الإسلامي، وذلك امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1].

لقد نزل قول الله تعالى ﴿وشاورهم في الأمر﴾ بعد معركة أحد، التي حملت آلاماً وخسائر وتضحيات كثيرة للمسلمين. ومعروف أنهم عند التهيؤ للخروج إلى هذه المعركة، نشأ اتجاهان في الرأي: فالشيوخ والعقلاء، وكانوا هم القلّة، يريدون البقاء في المدينة محتمين بها، حتى إذا هاجم العدو قاتلوه على أبوابها، والشبان المتحمسون وهم الكثرة يريدون الخروج وملاقاة العدو. فنزل الرسول ﷺ على رأي الأكثرية، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وإذا عزمت فتوكل على الله﴾ وتعليماً وإرشاداً للمسلمين بأنه إذا اعترضهم أمرٌ جللٌ أو واجهتهم عقبة كأداء عليهم بالعمل بالشورى أي بالسير مع الأكثرية.

ولكن لما كان الرأي لم يؤخذ بالإجماع فقد استغلَّ المنافقون هذا التباين في الرأي فعاد عبد الله بن أبي بن سلول ـ رأس النفاق في المدينة ـ بثلث الجيش.. وهذا الحادث وحده ضخم ومن شأنه أن يؤدي إلى زعزعة الثقة بالنفوس، إلَّا أنه حصل ما هو أدهى منه وأمرُّ أثناء المعركة، وذلك عندما خالف الرماة أمر قائدهم ـ رسول الله ﷺ ـ

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

وحدث ما حدث من هزيمة للمسلمين!... فكان لا بد وأن تأتي الأحداث بتلك النتائج على المسلمين..

وكان من حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو رأس الدولة وقلبها، وقائد الجيش، ألّا يعمل بقاعدة الشورى بعد ذلك. ولكنه أمضاها سنّةً قائمة، امتثالاً لأمر الله تعالى الذي شاء إقرار هذه القاعدة القويمة بقوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. وأهمية هذا الإقرار فيما يحمل من تعليم للجماعة وتربية للأمة، لأن الإسلام يريد أن ينشىء أمة جديدة، ويعدها لقيادة البشرية، والأساس الصحيح لذلك هو الشورى.. ولذلك نجد أن الشورى هي من أهم دعائم النظام الإسلامي. أما شكل الشورى والوسيلة التي تتحقق بها، فهذه أمور قابلة للتعديل والتطوير وفق أوضاع الأمة، وظروف حياتها. وكل شكل، وكل وسيلة لا تخالف الشريعة الإسلامية، وتتم بها حقيقة الشورى ـ لا ظاهرها ـ فهي من الإسلام.

وعندما تتم حقيقة الشورى ترتاح نفس الجماعة، وترتاح نفس الفرد، حتى ولو أتت النتائج لغير صالحها أو لغير صالحه ـ كما حدث في معركة أحد ـ إلّا أنه وفقاً للقاعدة يبقى نظام الشورى، واتباعه بوسائل مشروعة وواعية خيراً للأمة وصالحها العام. والله تعالى يريد منا أن نسير على النهج الإسلامي الصحيح، ولذلك يأمرنا باتباع الشورى، ويخصّ منا بالذكر المخلصين الطائعين الذين يصفهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾[1].

﴿الذين استجابوا لربهم﴾.. وأول استجابة لهم إقامة الصلاة..

---

(١) الشورى: ٣٨.

ألا ترى يا أخي المسلم أن نداء الأذان: حيَّ على الصلاة، عندما يكرره المؤذن إنما يدعوك للإقبال على الصلاة؟ وماذا يكون عليك إلَّا الاستجابة، فتقوم متطهِّراً، مقبلاً على الاستجابة لربك الكريم.. إنها استجابة المؤمن لإقامة الصلة الوثيقة، والرابطة المتينة التي تشد العبد إلى ربه، وتدفعه لاستجابته في كل أمر ونهي..

والاستجابة الثانية عندما يأتي موعد الحج، وتكون لك الاستطاعة أيها المسلم لزيارة بيت الله الحرام، لتؤدي المناسك التي دلَّك عليها رسولك الكريم. إنها استجابة لأمر ربك وهو يقول عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1]. وتتجلى هذه الاستجابة بأروع صورها الحسية عند الطواف بالبيت العتيق، والحجاج يهتفون من الأعماق: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك».

إنها تلبية بعد تلبية، واستجابة لنداء الحج تلو استجابة.. بل هي استجابة من المؤمنين لربهم وهو يدعوهم لإقامة الشعائر التي فرضها عليهم، تحقيقاً لمصالحهم الفردية والجماعية، وخاصة خلع الثوب الذي تكون أذياله قد ابتلَّت بزيف الدنيا ومتاعها، واستبداله بلباس التوبة والانصراف إلى الطاعة لنيل ثواب الآخرة..

والاستجابة الثالثة من المؤمن لأمر ربه في صيامه شهر رمضان المبارك لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[2].. ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ هو أمر جازم من ربك أيها المسلم لكي تستجيب وتصوم كلما حلَّ شهر رمضان. فمن صام كان مؤمناً

---

(١) الحج: ٢٧.

(١) البقرة: ١٨٥.

مستجيباً لأمر الله العلي العظيم، ونالَ بركات هذا الشهر وعظيم جزائه.

والاستجابة الرابعة من المؤمن لأمر ربه هي إيتاؤه الزكاة. لقوله تعالى: ﴿وآتوا الزكاة﴾. فمن أنفق الزكاة بحقها كان مستجيباً لله تعالى مع ما في هذه الاستجابة من تطهير للنفس، وإنماء للمال، وتوثيق للروابط بين المسلم وأخيه المسلم..

وفي تلك الاستجابات إزالة للعوائق بين نفوس المؤمنين وربهم. وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق الشهوات ونزواتها، فأما حين تتخلّص من هذه العوائق فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً، موصولاً، وحينئذٍ تستجيب طائعة، مختارة، وتقيم الصلة بينها وبين ربها على قاعدة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وتبرز الاستجابة، بعد ذلك كله، من الذين يجعلون: «أمرهم شورى بينهم».. وهؤلاء يتشاورون في أي أمر، وفي أي شأن. ويقررون ما يهديهم الله إليه من خلال البحث والنقاش، والرؤية السليمة، وإعداد الوسائل المتاحة وغير ذلك.. فهم لا يعملون منفردين، ولا يقررون متنابذين، بل همهم وفاق واتفاق، ومصلحة الجماعة، ومصلحة الفرد على السواء..

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب خاص، ولا مرسوماً في إطار محدد، بل هو متروك للتقدير والملاءمة في كل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية وأفرادها..

والأحكام الإسلامية في حقيقتها ليست أشكالاً جامدة، وليست نصوصاً حرفية، إنما هي قبل كل شيء بمثابة روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلوب، وتكييف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة.

وليس هذا كلاماً مرسلاً ـ كما يبدو لأول وهلة ـ لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية. فهذه العقيدة ـ في أصولها الاعتقادية البحتة، وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها ـ تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية في الكيان البشري. ولكي تكون التربية الإسلامية جامعة، شاملة، لا تترك أي شيء له تأثير على حياة الإنسان المسلم، تأتي حكمة الله تعالى البالغة لكي تبين لنا أثر المشورة حتى في تربية الطفل الصغير، وفي أيام رضاعته بالذات. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ﴾[١].

هنا تتجلى الرعاية الربانية، والحكمة الإلهية السنية. فقد وضع الله تعالى التراضي بين الوالد والوالدة بمساواة التشاور. فقال تعالى ﴿عن تراض منهما﴾ من الأب والأم ﴿وتشاور﴾، يعني عن اتفاق منهما ومشاورة، وإنما شرط تشاورهما مصلحة الولد، لأن على الوالدة المطلقة واجباً تجاه طفلها الرضيع، واجباً يفرضه الله تعالى عليها، ولا يتركها لفطرتها وعاطفتها التي قد تفسدها المشكلات العائلية، فيقع الغرم على الصغير. فالله تعالى أولى بالناس وأبرُّ بهم حتى من والديهم بل ومن أنفسهم. ولذلك كان التوجيه الرباني أن تكون الرضاعة لمدة حولين كاملين هي الواجب الأول الملقى على عاتق الأم تجاه رضيعها. وها هي البحوث الصحية والنفسية في أواخر القرن

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

العشرين تثبت أن فترة الرضاعة لمدة عـامين، وخاصـة من الأم، ضرورية لنمو الطفل نمواً سليماً من الوجهتين الصحية والنفسية..

أما من حيث العلاقة بين الأم والأب في فترة الرضاعة، فكلاهما شريك في التبعة، وكلاهما مسؤول تجاه هذا الصغير الرضيع: هي تمـدّه بالحليب والحضـانة والـرعايـة، وأبوه يمـدّها بـالغذاء والكسـاء، وكل منهما يؤدي واجبه في حدود طاقته: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾. ولا ينبغي أن يتخـذ أحد الـوالـدين من الـطفـل سببـاً لمضـارة الآخـر ﴿لا تضـار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾. فلا يستغل الأب عواطف الأم وحنانها ليُرغمها على أن تقبل إرضاعه بلا مقابل. ولا تستغل هي عطف الأب على ابنه وحبه له لتثقل كاهله بمطالبها.

كما أن الواجبات الملقاة على عاتق الوالد تنتقل إلى وارثه في حال الوفاة ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾. فهو مكلف أن يقدّم للأم المرضع غذاءً وكساءً بالمعروف والحسنى، تحقيقاً للتكافل العائلي الذي يتحقق جانبـه بالإرث، ويتحقق جـانبه الآخـر باحتمـال تبعة المورث. وهكذا لا يضيع الطفل إن مات والده، فحقه مكفول، وحق أمه كذلك، في جميع الحالات.

فإن رأى الأب والأم، أو الأم والوارث فطام الطفل قبل انتهاء العامين، لأنهما يريان مصلحة للطفل في ذلك الفطام، لسبب صحي أو سواه، فلا جناح عليهما إذا تم هذا بالرضـا بينهما وبالتشاور في مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته، والمفروض عليهما حمايته من الله الرؤوف الرحيم.

العبادات

كلنا يعرف أن أجيالاً من الناس قد تعلمت بطرق وأساليب تربوية

مختلفة. والكل يعلم أن الناشئة الصغار، كثيراً ما يتبع معهم المربون أسلوب التكرار لتعليمهم الحروف والكلمات ومن ثم الجمل. وقد أثبتت الدراسات أن هذه الطريقة من شأنها أن تعلم الصغار بسرعة ملموسة.. ثم إن المهارة في أي عمل أو صنعة لا تكتسب إلا من خلال التجربة والممارسة..

وإذا كانت علاقات الناس ببعضهم بعضاً تقوم على الحركة، فإن هذه الحركة تعني أنماط السلوك التي يعيشها الناس، لأن السلوك هو مجرد الممارسة الفعلية للأفكار والمشاعر بصرف النظر عن حسنها أو قبحها...

والإسلام قد اتبع الطريقة العملية، والممارسة الفعلية للأفكار التي يعتنقها أتباعه. والغاية من ذلك غرس هذه الأفكار في نفوسهم حتى يأتي سلوكهم منسجماً مع أفكارهم. ولذلك نجد في الإسلام عبادات عديدة، ولكل منها خصائصه في تربية الإنسان المسلم وتكوين شخصيته.

والعبادات منها فرائض من الله تعالى وهي أركان في الإسلام: كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ومنها ما لا يدخل في مفهوم الأركان ولكنه لا يقل عنها فائدةً وخيراً للإنسان كالصبر والتوبة، وذكر الله تعالى..

الصلاة

إنها الصلة بين العبد وربه، صلة الطاعة والاستسلام والخشوع والتضرع، ورابطة الثقة والاطمئنان والشفاء.. إنها الصلة المتينة المباشرة بين المخلوق والخالق، الصلة التي يبرهن بها المخلوق عن

عبوديته للخالق العظيم. فهي إذن صلة قدسية، يقف فيها العبد بين يدي ربه العزيز وهو على أهبة الاستعداد، وبكامل القوى الجسدية والمدارك الفكرية، غير غافل عما يقول، عالِماً بما يصدر عنه، لأنه خاضع لذي العزة والجلال، وقائم في حضرة الغفور المتعال.

ولو أردنا أن نعبّر عن أهمية الصلاة فما علينا إلاَّ أن ننطلق من واقع حياتنا البشرية، فنرى كم نستعدّ ونتهيأ هنداماً، ولياقة، وكم نكون على درجة كبيرة من الانتباه والحذر عندما نذهب إلى صاحب شأنٍ، أو نكون عند صاحب سلطان. إننا نتدارك كل نبرة تصدر عنا، وكل إشارة تبدر منا. جلوسنا، وقوفنا، كلامنا.. كل ذلك ينمّ عن التهيّب، والتأدّب، والاحترام.. فإن كان هذا شأننا مع أناسٍ أمثالنا، ولكونهم فقط من أصحاب النفوذ والسلطان الأرضي، فكيف يجب أن يكون شأننا ونحن بين يدي الله العزيز الجبار: خالقنا وخالق كل شيء، صاحب السلطان المطلق القادر على كل شيء، وهو العلي العظيم..

لا مجال، أصلاً، للمقارنة بين مخلوق وخالق.. بين التوجّه إلى الله عز وجل، والتوجه إلى إنسانٍ ضعيف مسكين، مهما كان له من الحول والطول.. لا مقارنة أبداً.. ولكنه تذكير فقط، وعودة بالنفس إلى واقعها الذي تعايش ، فلعلَّ في ذلك ما يفيد اقتناعاً واهتداءً إلى الحكم السليم..

وفي العودة إلى الصلاة، الصلة الأوثق والأمتن بين العبد وربه، على هذا العبد أن يكون مكتملاً مظهراً وجوهراً، وعيه لخالقه، وشعوره لبارئه، وخشوعه لرازقه، وإنابته لمدبره، وروحه لباعثها، ونفسه لمسوِّيها.. وكم في هذه الصلاة، وهي بهذه المعاني، من انعتاق كلي، وطلاقٍ ـ ولو ظرفي ـ لهموم الحياة ومشكلاتها، وانصراف تام إلى

نورانية تبعث في النفس هدوءاً، وفي العقل طلاقة، وفي البدن استرخاءً. فأي علاج أعظم من هذه الصلاة للخلاص من كل هموم القلب، وأتعاب النفس.. وعندما تكرر الصلاة على فترات، في الليل وفي النهار، فإن أوقات الاسترخاء والراحة والاطمئنان تزداد، وهذا أقصى ما يتمناه الإنسان، عندما يجد في حياته أوقاتاً يزيح فيها عن كاهله أثقال هذه الحياة وأتعابها، ويعيش في حالة من الانعتاق التام من كلّ ما يعيق تكامله الإنساني..

والصلاة بمفهومها الحقيقي هي أيضاً دعاء لله تعالى، يتوخى منه الإنسان، بالإضافة إلى العبادة الخالصة، غايات كثيرة ترمي كلها إلى منفعته وخيره. وربنا تعالى يستحثنا لدعائه حتى نجابَ على الدعاء. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(1). ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(2).

وهكذا فإن المؤمن يكل الأمر إلى الله تعالى بدعائه. والله تعالى يستجيب لعباده المؤمنين الصادقين، وحتى مجرد التوجه إلى الله تعالى بالدعاء فيه أمل بالاستجابة. وهذا كله في مصلحة الإنسان المصلّي، الذي يقيم الصلاة وملء جوارحه ثقة بالله العزيز الحكيم. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(3). والرسول الأعظم نفسه كان يلجأ إلى الصلاة كلما حَزَبَهُ أمرٌ أو اعترضته مشكلة أهمّته. فعن حذيفة قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا حزبه أمر صلى». وكان يقول لبلال عندما يحين وقت الصلاة: «يا بلال أرحنا بالصلاة». وعن أبي قتادة أن

---

(1) غافر: 60.

(2) البقرة: 186.

(3) البقرة: 45.

النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: «إني افترضت على أمتك خمس صلوات، وعهدت عندي عهداً أنه من جاء يحافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندي»».

وقد وردت أحاديث كثيرة حول أوقات معينة يثاب المرء على الصلاة فيها بمغفرة الذنوب، وبدخول الجنة. ومن هذه الأوقات: الفجر، العصر، الضحى، الجمعة، ليلة القدر، ليالي رمضان (قيام رمضان) وليلة النصف من شعبان.

وعلى الجملة، فإن للصلاة فوائد كثيرة: فهي تبعث في النفس الهدوء والطمأنينة، وتخلص الإنسان من الشعور بالذنب، وتقضي على الخوف والقلق، وتمدّ الإنسان بطاقة روحية هائلة تساعد على شفائه من أمراضه البدنية والنفسية، وتزوده بالحيوية والنشاط وبقدرة كبيرة تمكنه من القيام بجليل الأعمال، وتنور القلب وتهيؤه لتلقي النفحات الإلهيـة.

قال ابن قيم الجوزية في فوائد الصلاة: «وأما الصلاة فشأنها في تفريح القلب وتقويته، وشرحِه وابتهاجِه ولذتِه، أكبر شأن. وفيها من اتصال القلب والروح بالله وقربه، والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظَّه منها، واشتغاله عن التعلق بالمخلوقات وملابستهم ومجاورتهم، وانجذاب قوى قلبه إلى ربه وفاطره، وراحته من عدوه - حالة الصلاة - ما صارت به من أكثر الأدوية والمفرِّحات، والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة. وأما القلوب العليلة، فهي كالأبدان العليلة: لا تناسبها الأغذية الفاضلة. فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلب، ومَطْرَدة للداء عن الجسد،

ومنورة للقلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة».

الصيام

الصوم في الأصل الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو مشرباً أو مشياً أو كلاماً. ولذلك قيل للفرس الممسك عن العلف أو السير: صائم.

قال الشاعر:

خيل صيام وأخرى غير صائمة

والصوم بمعنى الإمساك عن الكلام هو ما جاء على لسان مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1].

وأما الصوم الوارد في الآية ١٨٥ من سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، هذا الصوم لا يعني فقط الإمساك عن تناول الطعام والشراب، وإنما أيضاً الإمساك أو الامتناع عن كل فعل حرام، وعن كل قول مكروه، وعن كل نية سوء.. فهو صوم جامع للناس في أنفسهم وحقوقهم، بل وهو دافع لكل خير وصلاح لبني آدم. وهذا ما هو مطلوب من المسلمين ممارسته خلال شهر رمضان المبارك من كل سنة، علَّ في مجاهدة أنفسهم خلال هذا

---

(١) مريم: ٢٦.

الشهر ما يسوّيها ويجعلها أقرب للاستجابة إلى الله تعالى ـ فعلاً وقولاً ـ طوال أشهر السنة الأخرى، بحيث تصوم الأنفس عن الشهوات والنزوات، وتقلع عن الشوائب والزلات، فيعمر الإيمان القلوب، وترتاح الأنفس وتطيب. .

وهكذا فإن الصوم فريضةٌ فرضها الله تعالى لخير الإنسان. يقول تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1]. هذه أولى بشائر الصيام: اتقاء المعاصي والابتعاد عن الشهوات، والسيطرة على الدوافع والانفعالات، وتقوية الإرادة في مغالبة أهواء النفس. وفي الصيام امتناع عن الطعام والشراب، وإحساس بالجوع والعطش، مما يحمل على مشاركة الجائعين والمساكين حرمانهم، ومما يزيد عرى التكافل والتضامن بين أبناء المجتمع، ويقوّي الإحساس بالمسؤولية الجماعية.

وللصيام فوائد بدنية ونفسية أخرى كثيرة. فالامتناع عن الطعام والشراب ينقي الدم ويريح المعدة، ويقوي مختلف أعضاء البدن، وكل ذلك مفيد للصحة البدنية. ثم إن الصبر على الجوع والعطش يعوّد الإنسان على احتمال المشقات، ومتاعب الحياة، وتحمل الآلام، فتقوى لديه العزيمة، والثقة بالنفس، وصلابة الإرادة. وكل ذلك يُعدّ من الفوائد النفسية.

وأهم فوائد الصيام شعور المؤمن بأدائه طاعة من طاعات الله تعالى، وأنه موعود بجزاء عظيم على هذه الطاعة. ففي الحديث

---

(١) البقرة: ١٨٣.

الشريف كما رواه البخاري: «الصيام جُنَّة (مانع من المعاصي). فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث، ولا يجهل، فإن قاتلَهُ امرؤ أو شاتمه فليقل: إني صائم، مرتين. والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». وعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن الله عزَّ وجلَّ قال: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به والحسنة بعشرة أمثالها».

وفي فضائل شهر رمضان المبارك خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الخطبة المباركة، فقال:

أيها الناس لقد أقبَلَ إليكُمْ شهرُ رمضان بالبركة والرحمة والمغفرة، شهرُهُ أبْركُ الشهور وأيامُه أفضلُ الأيام ولياليه أفضلُ الليالي وساعاتُهُ أفضلُ الساعاتِ. وقد دُعيتُمْ فيه إلى ضيافةِ الله، وجُعِلتُم فيه من أهل كرامتِهِ، أنفاسُكم فيه تسبيحٌ، ونومكم فيه عِبادَةٌ، وعملكم فيه مقبولٌ، ودعاؤكم فيه مُستجابٌ. فاسْألوا الله ربَّكُمْ بنِيّاتٍ صادقةٍ وقلوبٍ طاهرةٍ أن يوفّقكم لصيامِهِ وتلاوةِ كتابه، فالشقيُّ من حُرِمَ غُفران الله فيه. فاذكروا بجوعكم وعطشكم جوعَ يوم القيامة وعطشِهِ، وتصدّقوا على فقرائِكُمْ ومساكينكم، ووقّروا كبارَكُمْ وارحموا صِغارَكم وصِلُوا أرحامَكُمْ وغُضّوا عمّا لا يَحلُّ النظرُ إليه أبصارَكُمْ، وعما لا يَحلُّ الاستماعُ إليه أسماعكُمْ. وتحنّنوا على أيتام الناس يتحنّنِ الله على أيتامِكُمْ. وتوبوا إلى الله من ذنوبكم. وارفعوا إليه أيديَكم بالدعاء في أوقاتِ صلواتِكم فإنها أفضلُ الساعات ينظُرُ الله عبادَهُ فيها بالرحمة، ويجيبُهُمْ إذا ناجَوْهُ، ويُلبيهم إذا نادَوْهُ، ويستجيبُ لهم إذا دعَوْهُ.

أيها الناس، من حَسُنَ في هذا الشهر خُلقُهُ كان له جوازٌ على الصراط يوم تزِلُّ فيه الأقدامُ. ومَن خفَّفَ فيه عما ملكتْ يمينُهُ خفّفَ

اللهُ حسابَهُ. ومن كَفَّ فيه شَرَّهُ كفَّ اللهُ عنه غَضبَهُ يومَ يلقاهُ. من وصَلَ فيه رحِمَهُ وصَلَهُ اللهُ برحمتِهِ يوم يلقاهُ. ومن تطوَّع فيه بصلاةٍ كُتِبَ له براءة من النار. ومن أدّى فيه فرضاً كان له ثوابُ مَنْ أدَّى سبعينَ فريضةً فيما سِواهُ من الشهور. ومن كثَّرَ فيه من الصلاة ثقّل اللهُ ميزانَهُ يومَ تخِفُّ الموازينُ. ومن تلا فيه آيةً من القرآن كان له أجرُ من خَتَمَ القرآنَ في غيرِهِ.

ألا إنَّ أبوابَ الجنةِ مُفتّحةٌ فيه فاسْألوا ربَّكم أنْ لا يغلِقَها عنكم، وأبوابَ النار مُغلقةٌ فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطينَ مغلولةٌ فاسألوا ربكم أن لا يُسلّطها عليكم.

الزكاة

أصل الزكاة النمو الحاصل من بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية.

يقال: زكا الزرع يزكو: إذا حصل منه نموٌّ وبركة. قال الله تعالى: ﴿ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا ﴾(١) إشارة إلى ما يكون حلالاً ولا يُستوخم عُقباه. ومنه الزكاة التي يخرجها الإنسان المؤمن من أمواله وينفقها على مستحقيها من أصحاب الحق فيها امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾(٢).

والزكاة قسم معلوم من مال المسلم يؤديه لبيت مال المسلمين أو ينفقه على المعوزين والمحتاجين كل عام. فهي بذلك مساعدة الأغنياء للفقراء، ومشاركة بين أبناء المجتمع الواحد، مما يقرب الناس إلى بعضهم بعضاً، ويحافظ على كرامتهم، ويؤالف بين قلوبهم.

---

(١) الكهف: ١٩.

(٢) المعارج: ٢٤ ـ ٢٥.

والزكاة من ناحية الغني شعور بالتخلي عن الطمع والبخل والشح، وتخفيف من حب الذات والأثرة. وهي من ناحية المحتاج شعور بالحدب عليه، ومدِّ يد العون له، مما ينمي حب الآخرين في نفسه، ويبعد عنه قلق التفاوت الطبقي، والتمايز المجتمعي. فالزكاة إذن مشاعر تآلف ومحبة بالانتماء إلى الجماعة.

والزكاة هي صدقة مفروضة، وهي ككل صدقة تطهِّر النفس وتزكيها، بحيث يستحق الإنسان عليها الأوصاف المحمودة في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة.

وترمي الزكاة إلى تحرّي ما فيه الطهارة، وينسب ذلك تارة إلى العبد لكونه مكتسباً للطهر نحو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1] وتارة ينسب إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾[2] وتارة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكونه واسطة في وصول ذلك إلى الناس نحو: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3].

وزكاة النفس وطهارتها تكون بارتقائها وسموها، بحبها للخير والبركة، باندفاعها في الخلق القويم، بهدوئها واطمئنانها، برضاها وسعادتها.. هذا ما تفعله الزكاة، أو أية صدقة، في النفس الإنسانية حيث تحقق نوعاً من الشعور بالسعادة والرضا، وبحب الخير والصلاح. وعن أنس (رض) أن رجلاً من تميم سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف ينفق ماله، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «تخرج الزكاة من مالك فإنها طُهرةٌ تطهّرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين والجار والسائل».

الحج

أصل الحج: القصد للزيارة. وقد خصّ في تعارف الشرع:

---

(١) الشمس: ٩. (٢) النساء: ٤٩. (٣) التوبة: ١٠٣.

قصد بيت الله الحرام إقامة للنسك. ويوم الحج الأكبر هو يوم النحر، ويوم الحج الأصغر هو يوم عرفة والعمرة.

والحج هو أحد أركان الإسلام الذي حفظ للكعبة الشريفة حرمتها وبركتها، بل وزادها رفعةً ومقاماً بأن جعلها قبلة للمسلمين، وجَعَلَ زيارتها فريضة على كل مسلم استطاع سبيلاً لذلك. ولم تنحصر أو تقتصر نظرة الإسلام بالحج إلى بيت الله الحرام على أنه فريضة وحسب، بل جعل قوام هذه الزيارة الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وعمادها الطهارة في القلوب، والإخلاص في النية، وترك مشاغل الدنيا وأعراضها.

والحج بمفهومه الديني الحقيقي، يرمي إلى محاسبة كل فرد لنفسه محاسبة دقيقة على ما أتاه في ماضي أيامه من خير أو شر، من نفع أو ضرر، ومن طاعة أو معصية، فيتعهد أمام خالقه، وفي جوار بيته الحرام، أن يزيد في طاعته، ويقلع عن معصيته.. ومثل هذا التعهد، أمام الله العظيم، يسمو بالنفس إلى معارج الرقي والكمال، ويفسح للمؤمن في حياة هادئة، هانئة، بعيدة عن أي اضطراب أو قلق أو تعاسة..

هذا فضلاً عن أن الحج يُشعِرُ جميع المؤمنين بالمساواة التامة، فيرى الفقير نفسه بجانب الغني، والمحكوم بقرب الحاكم، والمسود أمام السيد. لا فرق بين شخصٍ وآخر إلَّا بمقدار ما في نفسه من شعور الإجلال والإخلاص لله تعالى.. وفي ذلك ما فيه أيضاً من مشاعر بإنسانية الإنسان قد تكون من أهم العوامل على بعث الراحة في نفسه، وتخليصها من كثير من العقد والأمراض الدفينة.

ومن الناحية البدنية قد يكون في أيام الحج تعب ومشقة، ولكن

يجد الحجيج في هذا التعب لذةً. وقد يتحدثون عن تلك الأيام طويلاً بعد العودة إلى الديار، فتشيع بين الناس مشاعر الإيمان، والتعاطف، والتآخي بين جميع أبناء البشر ومن جميع البلدان والأقطار، لأنهم يتلاقون جميعاً على نفس الأهداف، وعلى نفس المنهاج والسبيل القويم..

يقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ هذا النهي فيه كبح للشهوات، وضبط للمشاعر.. وهو يُطَهِّر النفس ويهذبها، ويعوِّدها السلوك القويم.

عن الحسن بن علي (رضي الله عنهما) أنَّ رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني جبان، وإني ضعيف. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هلمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه: إلى الحج».

وعن عبد الله بن مسعود (رض) أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة. وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»..

هذا الشعور الذي يخلفه الحج في نفس المسلم من غفران ذنوبه يجعله آمناً مطمئناً، مرتاحاً من هموم الدنيا، وراجياً عطاء الله الكريم من بركات الآخرة.

---

(١) البقرة: ١٩٧.

تلاوة القرآن وذكر الله تعالى:

إن من أفضل أنواع الذكر تلاوة القرآن. والمواظبة على تلاوة القرآن الكريم فيها شفاء للنفس، ومن أصدق من الله تعالى وهو يقول لنا بأن في القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾(٣).

شفاء القرآن يختصُّ به المؤمنون، وحسب هؤلاء فضلاً أن يكون لهم مثل هذا الشفاء من كتاب أُنْزِلَ من عند الله تعالى هدى ورحمة.. إنَّ رحمة الله سبحانه تغشى من يقرأ القرآن بفهمٍ، وتوجه صادق إلى الله تعالى، وتحف به ملائكة السماء فتنزل السكينة على نفسه، ويطمئن بها قلبه.

وقراءة القرآن فيها غفران للذنوب، ومضاعفة للحسنات، وتقوِّي الرجاء في دخول الجنة، وفي ذلك علاجات هامة لاطمئنان النفس. عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه». وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول «ألم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

يقول ابن تيمية في أثر القرآن في شفاء النفس من أمراضها: «والقرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات

---

(١) الإسراء: ٨٢.

(٢) يونس: ٥٧.

(٣) فصلت: ٤٤.

والشهوات، ففيه من البيِّنات ما يميز الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث ترى الأشياء على ما هي عليه. وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه، ويعزف عما يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد، مبغضاً للغيّ، بعد أن كان مريداً للغيّ، مبغضاً للرشاد. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي. ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن مما ينميه ويقويه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن».

ويقصد ابن تيمية بهذا الترابط ما بين القلب والبدن، أن شفاء النفس لا بد أن ينعكس خيراً على البدن، كما أن شفاء البدن لا بد أن ينعكس خيراً على النفس.

وروى ابن ماجة في سننه من حديث علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خير الدواء القرآن».

ولا ينحصر ذكر الله تعالى بتلاوة القرآن فحسب بل كل تسبيح أو استغفار أو دعاء هو أيضاً من الذكر. والذكر يجعل القلوب مطمئنة لقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1].

والمسلم الذي يذكر الله تعالى كثيراً، في كل حين، وعلى أي حالٍ كان، يشعر بأن الله تعالى قريب منه، وأنه في رعايته وحمايته،

---

(١) الرعد: ٢٨.

مما يبعث في نفسه مشاعر الأمان والاطمئنان والسعادة. قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[1]. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «عليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فإنه نور في الأرض وذكر لك في السماء».

ومن يعرض عن هذا الذكر العظيم يتوعده الله تعالى بمعيشة قاسية، شديدة الوطأة عليه. يقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2].

وذكر الله تعالى من أكبر العبادات لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[3]. وفي الواقع فإن جميع العبادات هي ذكر لله تعالى. فالاستغفار والدعاء، والحمد، والشكر، والتسبيح.. كل ذلك ذكر. ولكن تبقى الصلاة من أعظم وأجلّ السبل لانصراف العبد إلى ذكر ربه، لأنها ترتبط بعبودية هذا العبد للرب العظيم، وبألوهيته سبحانه وتعالى على جميع المخلوقات. يقول تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[4].

التوبة

الإنسان مخلوق ضعيف، والحياة مليئة بالإغراءات والغوايات، ولذلك كثيراً ما يقع الإنسان فريسة لمتع الدنيا ولذائذها فيرتكب المعاصي والذنوب، لفترة من العمر، لا يلبث بعدها أن يعيَ تلك الأخطاء الضارة، فيعود إلى ربه تائباً منيباً، مستغفراً، راجياً القبول والرضا.

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) العنكبوت: ٤٥.

(٤) طه: ١٤.

والمعاصي والذنوب تُحدث في نفس الإنسان ـ ولا سيما المؤمن ـ مشاعر القلق والكآبة والندم والحسرة وغيرها، مما يشكل أعراضاً لأمراض نفسية كثيرة. من هنا فائدة الإقلاع عن المعاصي والذنوب، واللجوء إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة. وفي ذلك إصلاح لنفس الإنسان، واستبدال للمشاعر الضارة بمشاعر نافعة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[2].

فالمؤمن الذي يتوب توبة نصوحاً، ويلتجىء إلى الله تعالى، يجده ـ سبحانه ـ قريباً منه، يغفر الذنوب كلها، ويتوب على عباده، لأنه عليم بضعفهم، حكيم في صنعه وخلقه لهم.

وعلى التائب ألّا يتحسر.

الندم والحسرة

الندم أو الندامة: التحسر من تغيّر الرأي في أمر فات وانقضى. جاء في الآية الكريمة: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[3]. وأصل الندم من منادمة الحزن للنادم أي ملازمة الحزن له. وقيل: الشريبان (شاربا الخمر) نديمان وذلك لما يعقب أحوالهما من الندامة على فعليهما.

---

(١) الزمر: ٥٣.
(٢) النساء: ١٧.
(٣) المائدة: ٣١.

والحسرة: هي الغم على ما فات والندم عليه. كأنما ينحسر عن الفاعل الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، أو انحسرت قواه من فرط غمٍّ، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرَطَ منه. قال الله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾(٢).

والمقصود أولئك الذين يتخذون في الدنيا ﴿من دون الله أنداداً﴾.. وجميع هذه الأنداد شرك بالله تعالى إذا ذكرت إلى جانب اسم الله سبحانه، أو إذا أشركها المرء في قلبه مع حبِّ الله عز وجل.

ولكن أولئك الذين اتخذوا من دون الله أنداداً، فظلموا الحق وظلموا أنفسهم، ترى ماذا يفعلون يوم الجزاء الأكبر؟ إن القرآن الكريم يوضح لنا حالهم يوم القيامة إذ يتبرأ منهم الأنداد، وتتقطع كل صلة بين التابعين والمتبوعين، ويسقط كل ادعاء وكل تشوف للمتبوعين، ويعجز جميعهم عن وقاية أنفسهم من العذاب... عندها يندم ويتحسر التابعون ـ المشركون والكافرون ـ يندمون ندماً عظيماً، والله تعالى يريهم أعمالهم التي كانت خداعاً لأنفسهم، وخداعاً من الأنداد لهم.. فيتحسرون ويتلاومون، ويتمنون العودة إلى هذه الدنيا لينبذوا عباداتهم القديمة، ولكن أنَّى لهم ذلك وقد حقت عليهم كلمة العذاب فأدخلوا في النار وما هم بخارجين منها أبداً. تلك هي الحسرات الكبرى فهل ينفع معها لوم أو ندم؟

والندم له تأثيره في النفس لأنه يعبر عن حالة انفعالية تنشأ عن

---

(١) الزمر: ٥٦.
(٢) البقرة: ١٦٧.

الشعور بالذنب، أو التقصير، أو الأسف على الفعل الذي أورثه الندم. ولعل مهمة الندم الأساسية تكمن في إدراك الإنسان للسوء الذي ارتكب وعزمه على تجنبه أو الإفلات منه مستقبلاً. وهذا فضل عظيم للإنسان بالعودة إلى تقويم نفسه حتى لا يظل سادراً في المعاصي والذنوب. ولذلك أقسم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بالنفس اللوامة تقديراً لها في عدم الانصياع وترك صاحبها يقودها إلى التهلكة. قال سبحانه وتعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(1).

إن هذا القسم من رب العالمين مع العدول عنه (بِ لا) أوقعُ في النفس من القَسم المباشر. وهذا الوقع هو المقصود حتى يكون تأثيره في النفس أقوى.

وقد جاءت في النفس اللوّامة تفسيرات مأثورة وأقوال متنوعة. قال الحسن البصري: «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه. ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن التاجر يمضي قُدُماً يعاتب نفسه».

وعن الحسن عليه السلام: «ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة».

وعن عكرمة وسعيد بن جبير (رضي الله عنهما): «هي التي تلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا؟».

وعن مجاهد: «هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه».

وأول ندم صدر من الإنسان كان من أبوينا آدم وحواء (عليهما

---

(1) القيامة: ١ ـ ٢.

السلام) عندما أزلهما الشيطان وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عن الاقتراب منها. وعندما شعرا بالندم توجها إلى الله تعالى بهذه الضراعة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

وبعدهما سارت الحياة بالإنسان، وكثرت أخطاؤه، وكثر لومه لنفسه وندمه على ما قدَّم، وبقي الإنسان على هذه الحال من اللوم والندم وما يزال.

---

(١) الأعراف: ٢٣.



الفصل الثامن عشر

- السعادة النفسية



السَّعادة النفسيَّة

إنَّ علم النفس الحديث لم يُعر للسعادة اهتماماً في أبحاثه ونظرياته، بل انصبت جهوده على السبل التي تجعل الإنسان سعيداً، فوضع كثيراً من المناهج والبرامج التي من شأنها تنمية مشاعر السعادة، وتخفيف مشاعر القلق والشقاء في حياة الإنسان. ومن الدوافع التي يستعملها هذا العلم في تحقيق سعادة الفرد دفعه إلى الانشغال بأعباء الآخرين والعمل على إسعادهم. ذلك أن حب الناس، والعمل لأجل تحقيق خيرهم ونفعهم، وتقديم كل ما من شأنه إشعارهم بأهميتهم في الحياة هي من الأمور التي تحبب الآخرين إلى نفس الإنسان وتدفعهم إلى محبته أيضاً. ولذلك قيل: حب الناس إكسير السعادة في الحياة. وإن أسعد الناس من يسعى لإسعاد هؤلاء الناس. كما قيل أيضاً: إن المساعدة آتية من السعادة، لأن المساعدة هي المعاونة فيما يظن به سعادة.

والسعادة هي هدف كلّ إنسانٍ في هذه الحياة. قد يرى كثيرون أن السعادة تتحقق في التمتّع بالملذات والانغماس في الشهوات. وما هذه اللذائذ والشهوات، في حقيقتها، إلاّ متعةُ آنيّة تزول بسرعة، مخلّفةً

وراءها في النفس الإرهاق والألم. وأشدّها مرارةً تلك التي يمارسها الإنسان بطرقٍ غير مألوفة بين الناس الذين يعيش معهم، وأكثرها إيلاماً ما يأتيه منها بصورةٍ غير مشروعةٍ كارتكاب المحرّمات والموبقات..

لقد دلّنا الخالق سبحانه وتعالى على أنّ المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا، وأنّ بعض سعادة الإنسان فيهما، لأن طبيعة الإنسان مجبولة على حبهما والتعلّق بهما.

فلو أن الإنسان سعى لتحصيل المال الحلال بالطرق المشروعة، وأنفقه في السبل التي ترضي الله سبحانه، لوفّر له ذلك السعادة الماديّة والنفسيّة.

ولو أن الإنسان عمل على تربية أبنائه تربيةً صالحةً قائمة على حبّ الله والعمل بما وصّى به سبحانه، لكان قد أرضى الله ورسوله.

ولو استجاب هؤلاء الأبناء لله تعالى بالطاعة والعمل بوصاياه لكانوا بذلك سعادةً لوالديهم في حياتهم وذكراً حسناً لهم بعد مماتهم. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «يموت الإنسان إلّا من ثلاث: حسنة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وفي الآخرة يكون هؤلاء الأبناء الصالحون عَرْفاً طيّباً لوالديهم. وهذا ما بشّر به رسول الرحمة صلّى الله عليه وآله وسلم بقوله: «الولد الصالح ريحانةٌ من رياحين الجنة».

والسعادة بعد ذلك كلّه هي ما يبعث الاطمئنان في النفس، والراحة في القلب، والقناعة في العيش.

كـان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم يدعو ربّه قائلاً: «اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك».

وكفى بهذا القول الشريف من الرسول الكريم ﷺ تعريفاً بالسعادة ومقياساً لها.

والحقيقة أن السعادة لا توجد إلَّا بالإيمان العقلي الذي يعتبر أكبر عامل نفساني لتحقيق السعادة، ذلك لأن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، واليقين بألوهيته وربوبيته المطلقة يجعلان الإنسان يدرك بأن كل أمر، صغير أو كبير، هو بيد الله تعالى، ولا شيء في الكون كله إلا ويسير وفق ما يشاء الله تعالى ويقدر. وعندما يركن الإنسان ـ بهذا التوجه ـ إلى رعاية الله ربه، وإلى محبته ـ سبحانه ـ لعباده، والمؤمنين من هؤلاء العباد خاصة.. وعندما يطمئن الإنسان إلى أن الله ـ جل وعلا ـ رحيم، حكيم، يدبّر كل شيء وكل أمر، فإن ذلك كله يؤمن له الراحة والأمان النفسي، ويجعله يشعر بالسعادة وهو متصل بربه الحكيم، وخالقه العظيم. فالإيمان الصادق هو العامل الأول والأخير في تحقيق السعادة.

إلَّا أن هنالك عوامل أخرى بعد الإيمان لا بد منها لتحقيق الأهداف التي من أجلها خلق الإنسان. فوجود الإنسان على هذه الأرض كما شاء الله تعالى، كان لاستخلافه عليها والقيام بعمارتها، وهذا يتطلب من الإنسان العمل المخلص الذي يستتبع العبادة المخلصة ومن بعدها عمارة الأرض. ولا تكون عمارة الأرض إلا بتكاتف جهود البشر جميعهم وتعاونهم على البر والتقوى، وليس على الإثم والعدوان. فالبر والتقوى يؤلفان القلوب، ويوطدان دعائم التعاون وروابط الإخلاص، في حين أن الإثم والعدوان يشحنان القلوب بالكراهية، ويملآن النفوس بالحقد، ويدفعان إلى الاستغلال والظلم والفساد. فلا يمكن أن تتأتى السعادة إذن إلَّا بالتعاون على ما فيه خير الإنسان، وهذه السعادة هي التي تحقق للإنسان كماله الإنساني.

ولكن تبقى أعظم سعادة وأجلها شأناً هي السعادة التي يرومها الإنسان العاقل وأساسها رضوان الله تعالى والفوز بالجنة، والمؤمن دائماً يدعو الله الرحيم الكريم فيقول: «اللهم ارزقنا رضاك والجنة».

وما من إنسان عاقل مؤمن يبتغي السعادة الحقيقية إلا وسعى للجنة سعيها كي يفوز بها حيث السعادة الدائمة لقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ﴾[1].

ويقابل السعادة الشقاء (في الدنيا وفي الآخرة). والشقاء في الآخرة معروف، عقباه النار، ولذلك فهو أشد مقتاً بكثير من شقاء الدنيا. وما من أحدٍ من الناس إلَّا ويكون إماشقياً أو سعيداً في الآخرة لقوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[2]. والإنسان هو الذي يعود إليه مناط السعادة بالفوز بالجنة، أو الشقاء الدائم في الجحيم.

وبعض الأمور التي يتحقق، من وراء القيام بها، قسطٌ كبير من السعادة هي:

- التفاؤل والتخلي عن التشاؤم.
- التواضع وترك الكبر.
- الرحمة والرأفة.
- العمل بصحة التوكل على الله تعالى.

التفاؤل والتخلي عن التشاؤم

التفاؤل شعور حسن بحصول خير، أو تمنٍّ في النفس ينزع نحو

---

(١) هود: ١٠٨. (٢) هود: ١٠٥.

الخير، مثل حصول ربح في التجارة، أو نيل ترقية في الوظيفة، أو توقع النجاح في امتحان، أو الفوز في مباراة.. فهو إذن شعور يميل إلى حدوث خير في المستقبل.

والتفاؤل في اللغة هو ضد الطِيَرَة كأن يرى أحدهم شيئاً فيحسّ بالارتياح لرؤيته، أو أن يسمع كلاماً فيستبشر به بركة أو رجاءً. فإذا سمع المريض قولاً طيباً مثل: يا شافي، يا سالم، توقع الشفاء والسلامة، أو سمع من يقول: يا واجد، إذا كان يكدّ في طلب شيء، فيتوقع حصوله عليه.. وكل واحد يقول: تفاءلت بكذا.. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يُحِبُّ الفأل الحسن، وقد قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

والتفاؤل يصاحبه الرجاء، وهو الطمع فيما يمكن حصوله. ويراد منه أيضاً الأمل. والرجاء أيضاً توقع الخير ممن بيده الخير. وفي المشاعر يقال عن الرجاء بأنه تعلق القلب بحصول أمر محبوب في المستقبل.

وتتلاقى هذه المعاني: التفاؤل، الرجاء، الأمل، على أمر جامع وهو حب الخير وتوقع حصوله. وكل ما يفيد الإنسان هو خير له لأن فيه صلاحه. ولذلك تقول: خيرية الفعل وتعني صلاحه، وتقول خيرية النفس وتعني تزكيتها، وتقول خيرية العلم وتعني منفعته..

وضد هذه المعاني وبخاصة ضد التفاؤل: التشاؤم. وهو من الشؤم أو الشوم الذي هو الشر. والمشْأَمة ضدّ الميمنة، والشؤم ضد اليُمْن، أي ضدّ السعة والبركة واليسار.

وتشاءَمَ: ترقب الشر. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾[1] أي أصحاب الشؤم والشر. وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ﴾[2]. والتطيّر هو عادة جاهلية إذ كانوا يتطيّرون بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها، (فالسانح هو ما والاك ميامنة بأن يمرَّ عن يسارك إلى يمينك؛ والبارح ما يمرّ عن يمينك إلى يسارك)؛ فكانوا ينفّرون الظباء أي الغزلان، والطير، فإن أخذت طريقها ذات اليمين (من اليُمن) تبرّكوا بها ومضوا في قضاء حاجاتهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن ذلك وتشاءموا بها. فلما جاء الإسلام أبطل ذلك ونفاه، وأخبر أنه لا تأثير له في نفع أو ضرر.

وقد جاء النهي عاماً عن التشاؤم بأي شيء. عن عروة بن عامر (رض) قال: ذُكرتِ الطِيَرَةُ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسناتِ إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلّا بك». وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تردُّ مسلماً» معناه أن الإنسان المسلم إذا عزم على أمر توكل على الله تعالى فيه، وحينئذٍ لا ترده طيرة ولا غيرها لأنه يعلم علم اليقين أن الأمر كله بيد الله تعالى.

وقد فسَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم «الفأل» بأنه «كلمة صالحة»، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا طيرة، وخيرها الفأل». قيل يا رسول الله: وما الفأل؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

وهكذا يتبين لنا أن التفاؤل والتشاؤم يحصلان نتيجة أفكار قد تراود الإنسان بالخير أو الشر، أو مشاعر تنبعث في نفسه فيتوسم البركة أو يتوقع السوء..

---

(١) الواقعة: ٩.

(٢) الأعراف: ١٣١.

ومما لا شك فيه أن الإنسان يجب أن ينزع من نفسه كل ما يتعلق بالشؤم أو الشر. ويكون ذلك بفعل الإرادة التي يجعلها تقوى على بواعث هذا الشؤم، وتستبدل به بواعث الأمل والرجاء أو أماني الرضا والسعـادة.

والمتفائل لديه مناعة نفسية ضد الأمراض أو الاضطرابات النفسية، وذلك بما يحصّن به نفسه من أفكار ومشاعر خيّرة. وعلماء النفس متفقون على أن الإنسان، ورغم مشاكل الحياة الكثيرة التي تعترضه، مدفوع بألَّا يدع مشاعر القلق والاضطراب واليأس تسيطر عليه. وهم يدعونه للتفاؤل بصورة مستمرة وفي أي موقف صعب يقفه.

وقد اعتمد الأميركيون لطرد التشاؤم من النفس على ما يسمونه «قانون الاحتمالات» وهو يعني بأن يضع الشخص لكل مشكلة عدة احتمالات لحلها، وأن يتوقع حدوث أسوأ هذه الاحتمالات، ثم يكون مستعداً لمواجهته بثقة وعقلانية.

ولكن هنالك مشاكل عديدة تتخبط فيها المتجمعات اليوم. وهي لا تدخل تحت مفهوم التشاؤم أو التفاؤل، لأن وقوعها يكون ناجماً عن المساوىء والمفاسد المنتشرة في هذه المجتمعات، والتي بدأت آثارها تظهر على الصحة البدنية والنفسية. ولعلَّ أبرز مثال على ذلك هو مرض «الإيدز» الذي هو آخذ بالانتشار في مجتمعات الغرب بصورة طردية، حيث بات عشرات الآلاف مصابين به، وقد بدأ ينتقل إلى سائر المجتمعات الأخرى في العالم بسبب اختلاطها بالغرب، ووقوعهـا فريسة في أحضان مساوئه ومفاسده.

ولو أخذنا الإسلام كنظام للحياة لـوجدنـا فيه من المقـومات والوسائل ما يحول دون انتشار الفساد في الأرض. فهو يعالج مختلف

مشاكل الحياة المجتمعية والاقتصادية والسياسية في ضوء كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم، حيث نجد الحلول الكافية لتلك المشاكل مهما تعقدت أو تشابكت. وأهم العلاجات التي يقدمها الإسلام إعادة الإيمان إلى النفوس وإقامة الصلة الوثيقة بين الإنسان وربه. فالإسلام عندما يحرم مثلاً الزنى بين الرجل والمرأة، واللواط بين الرجل والرجل، والسحاق بين المرأة والمرأة أو غيرها من المفاسد، فإنه يحول، ولا شك، دون انتشار الأمراض الناجمة عن العلاقات الجنسية غير الطبيعية وغير الشرعية ومنها مرض «الإيدز» أو غيره.. وقس على ذلك مختلف المشاكل التي يمكن أن يواجهها الإنسان، إذ لا توجد مشكلة إلَّا ولها حلّ جذري في الإسلام. ولذلك كان الإيمان الصادق من أهم الموانع التي تحول دون وقوع الإنسان في السوء أو الشر. وهذا الإيمان يجعل احتمالات ارتكابه للحرام أقل بكثير من إنسان آخر غير مؤمن، أو لا يقيم صلة وثيقة بينه وبين ربه تعالى..

ومما يزيد المؤمن اطمئناناً ما يجد في القرآن الكريم من قواعد لضبط السلوك، وفي رأسها الثقة بعدالة الله تعالى في تصريف أمور العباد إلى ما فيه خيرهم، ثم تزكية نفسه وتطهيرها من الأدران والمفاسد، فيقوده ذلك إلى المنهج القويم، والصراط المستقيم.. ولا مجال، بعد ذلك، إلى مشاعر وأفكار تشاؤمية، فالراحة في النفس تبعث دائماً الرجاء، والأمل، والطمأنينة، ما دام القلب مرتاحاً إلى رحمة الله تعالى ومحبته لعباده.

ثم إن التفاؤل، إذا ما أرادَ الإنسان الأخذ به، يجب أن يكون مقروناً بالعمل الصالح.

ولو أخذ الإنسان بما يذهب إليه علم النفس ويحث فيه على

مشاعر التفاؤل، والابتعاد عن التشاؤم، فلا أقل من أن تكون مشاعر هذا الإنسان التفاؤلية قائمة على الإيمان الصادق كما أشرنا إليه، مكررين القول بأن مثل هذا الإيمان يقوي الجوارح على الإخلاص في العمل، وتحمل المسؤولية، وعلى مواجهة مصاعب الحياة بعد تهيئة الأسباب لها. ثم إن هذا الإيمان يضع حدّاً للاستكبار في قلب الإنسان فيظهر التواضع في جميع أقواله وأفعاله، وهذا كله من دواعي الراحة البدنية والنفسية.

التواضع وترك الكبر

الكبــر

هو الحالة التي يتخصص بها إنسانٌ من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى هذا الإنسان نفسه أكبر من غيره. وأعظم الكبر: التكبر على أوامر الله تعالى بالامتناع عن قبول الحق الذي يدعونا إليه والإذعان له بالعبادة.

والاستكبار يقال على وجهين:

أحدهما أن يتحرى الإنسان، ويطلب أن يصير كبيراً، وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، وهو محمود.

والثاني أن يتشبّع فيظهر من نفسه ما ليس فيه، وهذا مذموم. ولذلك كان الكبر أو التعالي على الناس واحتقارهم حالة انفعالية مكروهة ومحرَّمة، وصفة خلقية قبيحة ومذمومة. وقد جاء في القرآن الكريم عن إبليس اللعين أنه: ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾[1]. وقال تعالى عن

---

(١) البقرة: ٣٤.

بني إسـرائيـل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾[1] وهو خطاب موجَّه لبني يهود بأنه كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه أنفسكم تعاظمتم وأنفتم من قبول قوله الذي يهديكم إلى الحق، وذلك لأنه جاء بما لا تهوى أنفسكم. وإن محاولة إخضاع الرسل والشرائع للهوى الطارىء، والنزوة المتقلبة، هي ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانعدمت فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته.

ويصف الله تعالى المستكبرين بالمجرمين، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[2]. لقد نبَّه ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿فاستكبروا﴾ على تكبّرهم، وإعجابهم بأنفسهم، وصرفها عن الإصغاء إلى الرسول. وأمّا قوله تعالى: ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ فيعني أن الذي حملهم على ذلك التكبر هو ما تقدم من جرمهم، وأن ذلك لم يكن شيئاً حدث منهم من جديد، بل كان ذلك دأبهم من قبل.

وقال الله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[3].

فقول الله تعالى ﴿إلٓهكم إلٓه واحد﴾ يعني أنه سبحانه تفرَّد بالوحدانية، وتعزَّز بالقدرة، فلا شريك له ولا نظير لا في ذاته ولا في صفاته. ومن صفاته الدَّالة على الوحدانية: الخلق في هذه الحياة، والبعث في الآخرة. فالذين لا يؤمنون بيوم البعث والحساب، تكون قلوبهم منكرة، جاحدة للوحدانية وهم متكبرون عن الإيمان به،

---

(١) البقرة: ٨٧.
(٢) الأعراف: ١٣٣.
(٣) النحل: ٢٢ و٢٣.

والإذعان له. وسواء أَظَهَرَ ذلك من هؤلاء الناس أم لم يظهر فالله سبحانه وتعالى يعلم ما يسرون في أنفسهم وما يعلنون على ألسنتهم من إنكار لوحدانيته تعالى واستكبارهم عن هذا الحق. وهو سبحانه لا يحب هؤلاء المستكبرين ولذلك سوف يعاقبهم بما يستحقون على استكبارهم..

والكبرياء: هي الترفُّعُ عن الانقياد. قال الله تعالى عن فرعون وقومه بردهم على موسى وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]. أي لكما الانقياد في الأرض. والكبرياء لا يستحقها غير الله عزَّ وجَلَّ، لأنه قال في كتابه المجيد: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول عن الله العلي العظيم: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحدٍ منهما قصَمْتُهُ ولا أبالي».

وهكذا يتبين أن الكِبْر من أمراض القلب الخطيرة لأنه يشتط بصاحبه عن الحق. والمتكبر: هو من أتباع الشيطان، الذي كان أول من تكبَّر برفضه السجود لآدم، والاستعلاء عليه وذلك عندما أجابَ ربه: ﴿أنا خير منه﴾. ولقد عرَّف النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكِبْرَ بأنه: «بطر الحق وغمص الناس». «وبطر الحق»: معناه ردّه وعدم القبول به. «وغمص الناس» ـ بالصاد ـ أو غمط الناس ـ بالطاء ـ معناه احتقارهم. وأيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْرٍ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان». فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال» (وهذا يعني أنه تعالى

---

(١) يونس: ٧٨.

(٢) الجاثية: ٣٧.

صاحب الكمال المطلق المنزَّه عن النقائص، ولذلك فهو يحب ـ سبحانه ـ الجمال).

وقد ذمَّ القرآن الكريم الاختيال والتفاخر والعجب بالنفس. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1]. وكذلك ذمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الزهو والعجب بالنفس، فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة».

الغــرور

يقال: غررت فلاناً أي أصبت غُرَّته ونلت منه ما أريده. والغُرّ هو الأثر الظاهر من الشيء، ومنه غِرَّة الفرس. وغِرار السيف أي حده.

ومعنى الغِرَّة: الغفلة في اليقظة. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾[3] معناه لا يعدون بعضهم بعضاً إلاَّ باطلاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[4] معناه لا يأخذكم الغرور بالله تعالى في حلمه وإمهاله. والغرور هو الشيطان. والغرور أيضاً هو كل ما يغر الإنسان من مال وبنين وجاه وشهوة. ومعظم غرور الشيطان بهذه الأمور الأربعة: أي في المال، والبنين، والجاه، والشهوة..

---

(١) لقمان: ١٨.

(٢) الانفطار: ٦.

(٣) فاطر: ٤٠

(٤) فاطر: ٥.

التواضع

التواضع في اللغة هو التذلل والتخشع. وهو نقيض العجب والافتخار، لأنه يفرض على صاحبه معرفة عيوب نفسه التي تعتورها، وأن يعلم بأنّ الفضائل ومكارم الأخلاق موزعة بين البشر بدرجات متفاوتة، ولا يظهر الإنسان بفضائله إلّا قياساً على فضائل غيره.

أما العجب أو الإعجاب بالنفس فهو ظن كاذب يزيّن للإنسان صفاتٍ لا تتوفر فيه، وكذلك الافتخار فهو مباهاة بأشياء لا تكون في الإنسان أو خارجة عنه، ومن تباهى بما هو خارج عنه فإنما يتباهى بما لا يملك..

والتواضع هو ضد ذلك كله. إلّا أن هنالك تواضعاً كاذباً وهو التملّق والتظاهر من الإنسان بما ليس فيه لكي يمدحه الناس.

والمتواضع عن حق هو الإنسان الذي يعرف مزاياه كما يعرف عيوبه، ولذا فهو لا يدّعي أموراً لا يملكها، ولا يفاخر بما لا يملك، ولا يزهو ويعجب بنفسه، ولا يتكبر ويستعلي على الآخرين، وحتى أنّ حديثه مع الناس يكون فيه دماثة وأدب ولطف.

وإن من واجب الإنسان المسلم أن يكون متواضعاً في حياته، لأن التواضع سمة أخلاقية رفيعة أمر الله تعالى بها من عليائه. فعن عياض النجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في خطبة له: «إن الله تعالى أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد».

وعن الذي يفاخر بماله وسلطانه قال الشاعر:

تواضعْ تكنْ كالنجم لاحَ لناظرٍ ... على صفحاتِ الماءِ وهو رفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخَانِ يعلو بنفسهِ ... إلى طبقاتِ الجوِّ وهو وضيعُ

وعن الذي يزهو بعلمه القليل، قال الشاعر أيضاً:

إذا زادَ علمُ المرءِ قلَّ ادعـاؤُهُ وإنْ قلَّ علمُ المرءِ أُعجبَ وادَّعى
ألم ترَ أنَّ الغصن يشمخُ فارِغاً وإنْ ثمراً أَعْطى انحنى متواضعاً

ومن كان مؤمناً متواضعاً كانت الرحمةُ والرأفةُ من بعضِ صفاته.

الرحمة والرأفة

الرحمة في اللغة هي رقة القلب وتقتضي الإحسان إلى المرحوم. أو هي الرِّقة مجرَّدةً عن الإحسان، أو الإحسان مجرداً عن الرقة. نحو رحم الله تعالى فلاناً، فرحمة الله تعالى له إحسان، ولذلك فإن الرحمة الربانية هي إحسان مجرد من أية رقة، وهي إنعام منه ـ سبحانه ـ وإفضال. أما من جانب الناس لبعضهم بعضاً فهي الرقة والتعطّف.

وجاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذاكراً عن ربه: «أنه لما خلق الرَّحِمَ قال له: أنا الرحمان وأنت الرَّحِمُ، شققت اسمك من اسمي، فمن وصلك وصلته، ومن قطعك بتَتُّهُ». وذلك إشارة إلى أن الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ركّز في الطباع الرقة، وتفرَّد ـ عز وجل ـ بالإحسان. والرحمان: من أسماء الله الحسنى، ولا يطلق إلا عليه جلَّ وعلا، من حيث إن معناه لا يصلح إلاَّ له ـ سبحانه ـ لأن رحمته وسعت كل شيء. والرحيم: هو الذي كثرت رحمته، وهو في الأصل اسم لله تعالى، ويمكن أن يطلق صفة على غيره سبحانه. ومن ذلك قوله تعالى في صفة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. وقيل: إن الله تعالى هو

---

(١) التوبة: ١٢٨.

رحمان الدنيا ورحيم الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وذلك أن إحسانه في الدنيا يعمُّ جميع الخلق من مؤمنين وكافرين، وفي الآخرة يختص هذا الإحسان الإلّهي بالمؤمنين وحدهم. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[2]، وفي هذه الآية تنبيه إلى أن الرحمة الربانية الواسعة هي في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين.

والله تعالى هو الرحمان الرحيم، هو الرحمان البالغ في الرحمة، أي البالغ غايتها التي يقصر عنها كل من سواه، والعاطف على جميع خلقه بالرزق: المؤمن منهم والكافر. وهو الرحيم، الرفيق بالمؤمنين خاصة، يستر عليهم ذنوبهم في العاجل، ويرحمهم في الآجل.

وقد فرَّق بعض العلماء بين الرحمة والرأفة، فقالوا: «إنَّ الرحمة إيصال المسرّة إلى المرء، والرأفة دفع المضرَّة عنه». وقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3] يفسِّر بأن رأفته ـ سبحانه ـ دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد.

ويختلف الشعور بالرحمة باختلاف المثل العليا التي يتصورها الناس، فإذا كانت تلك المثل مبنية على القوى المادية كانت الرحمة منقطعة، وإذا كانت مبنية على القوى الروحية كانت الرحمة أثبت وأوسع. ولا تنقلب الرحمة إلى محبة حقيقية إلَّا حينما يعدّ الإنسان المؤمن نفسه أخاً لكل مؤمن.

وهذا دليل على أن النفس الإنسانية إنما تنعم بفضل زائد من الله

---

(١) البقرة: ١٨٢.

(٢) الأعراف: ١٥٦.

(٣) آل عمران: ٣٠.

تعالى عليها وهو يهبها الرحمة والرأفة. وحريٌّ بالإنسان أن يهيء نفسه لكي يكون رحوماً، رؤوفاً، فيجد في مشاعر الرحمة والرأفة مجالات رحبة من المحبة للآخرين، والعطف عليهم، ولا سيما المحتاجين والفقراء، وذوي المصائب والعاهات، مما يولِّد في نفسه مشاعر الرضا والراحة وحب الخير والتفاني.

ومن نعم الله تعالى علينا أن أودع فينا هذه القلوب حتى نملأها بالمشاعر الإنسانية الطيبة من المحبة والرأفة والرحمة فنصونها ونبقيها سليمةً معافاة، بدل أن نعبّئها بالبغضاء والكراهية، والحسد والطمع، وكل ما يضر بالنفس ويوقعها في العلل والأمراض النفسية والجسدية.

العمل بصحة التوكل على الله تعالى

التوكل هو ثقة النفس بالله تعالى. والمتوكل هو الواثق بما عند الله جلَّ شأنه، والمعتمد عليه وحده سبحانه. يقول تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٢).

والتوكل لا يعني أبداً عدم العمل، والقعود عن السعي في الرزق والكسب، وترك الأسباب وعدم الإعداد والتهيؤ للقيام بكل ما هو مطلوب من الإنسان في دينه ودنياه.. فهذا كله ليس من التوكل في شيء كما يتوهم كثيرون، بل هو بالأحرى «تواكل» أو تقاعس وتخاذل، واعتماد على الله ـ سبحانه ـ في غير محله، وفي غير ما يريده تعالى منا نحن بني آدم. فهو ـ سبحانه ـ لا يحب التواكل، لأنه ما خلقنا لنقعد

---

(١) آل عمران: ١٢٢.

(٢) إبراهيم: ١٢.

بلا سعي ولا عمل، ولا لنترك الحياة تسير بنا ونحن لاهون، سادرون عن غاياتها ومطالبها.

كذلك فإن الله تعالى لا يريد منا أن نعتمد على غيرنا في جلب رزقنا، ومدّنا بما يبعدنا عن إنسانيتنا. ولا يطلب منا سبحانه أن ننتظر بأن يأتينا طعامنا من السماء ونحن قاعدون، ساكنون، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، ولا تنزل طعاماً جاهزاً، بل إن السماء تمدنا بأسباب الحياة عندما ينزل الله تعالى منها الماء، لنقوم نحن بعد ذلك بحرث الأرض وغرسها، وبذل العرق والجهد حتى نحصل على القوت، وعلى الطعام المهيَّأ للعيش.

والعمل هو قوام الحياة، والله تعالى من عليائه يأمر رسوله الكريم بأن يدعو للعمل. يقول تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] . وهذا العمل الذي يشرف الإنسان، لا يستقيم في حقيقته لدى المؤمن، بل ولا يجد فيه الخيرَ ما لم يصاحبه التوكل على الله تعالى. وصحة هذا التوكل تكون بربط الأسباب بالمسببات، ومن ثم ترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى. فالتاجر مثلاً يعرض بضاعته في متجره بشكل يجذب الزبائن، ويقوم بكل ما تفرضه عليه مهنته من أساليب حتى يحقق النجاح الذي يتوخاه. وهو بذلك يكون قد قام بواجبات مهنته وأداها حقها كامل الأداء، ثم يترك الأمر لله تعالى، لاعتقاده بأن التوفيق في نهاية الأمر هو دائماً وأبداً من الله تعالى. وكذلك الصانع فهو يفتح المصنع ويجهزه بالآليات والمعدات اللازمة، ويؤمن المواد الأولية لصناعته، ويأتي بالأيدي العاملة، ويستخدم الإدارة الرشيدة، وبعدها يتوكل على الله تعالى ويرجوه أن

---

(١) التوبة: ١٠٥.

يوفقه في عمله، ويكتب له النجاح في صناعته.. ومثل ذلك الفلاح يحرث الأرض، ويغرس البذور والشتول، ويوفر كل الإمكانيات لنماء حرثه، ثم يترك النتائج لتدبير الله تعالى الذي يحيي الغرس، ويبعث النماء، وينشر الخير ويحلّ البركة..

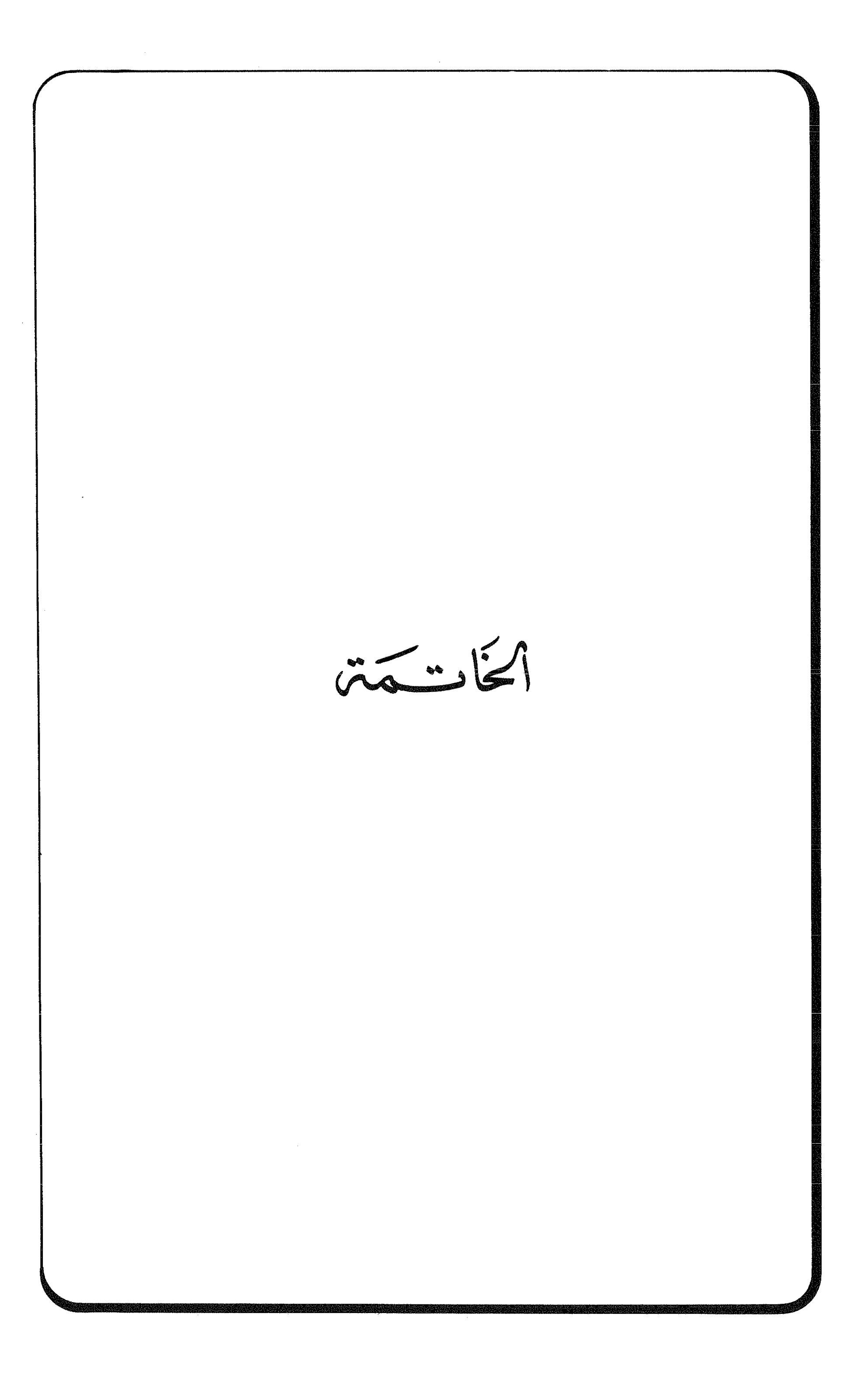
هذه الأمثلة وغيرها من الحياة تثبت لنا أن العمل موكول إلى الإنسان نفسه، وأنّ الرزق عطاءٌ من عند الله تعالى. فهو سبحانه يسوق لكل إنسان ما قسمه له من رزق، وما كتب له من شأن..

وأساس التوكل وعماده: أن نكل الأمور بنتائجها إلى الله العلي القدير، على أن نهيء نحن جميع الأسباب التي تُوصلنا إلى النتائج التي نرجوها ونعمل لأجلها، ولكن مع اعتقادنا المطلق بأن الأسباب كلها، وأياً كان نوعها أو شأنها، ليست هي التي تعطي أو تمنع، بل الذي يعطي ويمنع هو الله سبحانه وتعالى وحده.

روي عن عمر بن الخطاب (رض) أنه قال: «سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وسلم يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». ومعنى هذا القول أن الطيور ومنذ الصباح الباكر، تطير من أوكارها ضامرة البطون من الجوع إلى أماكن تجد فيها طعامها، وهي ترجع آخر النهار ممتلئة البطون. وما يشدُّ الانتباه في قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وسلم تعبيره «تغدو» و«تروح». فلو لم تفعل الطيور ذلك، وبقيت بلا غداة ولا رواح لماتت في أماكنها، ولكنها سعت إلى تحصيل قوتها فهداها الله سبحانه وتعالى إلى مواطنه.

وما على الإنسان إلاَّ أن ينهج هذا النهج، فيعمل ويسعى من جانبه، ثم يتوكل بعد ذلك على الله تعالى حتى يرزقه. ولا يجوز لإنسان أن يقول: أنا أعمل أكثر من فلان، ورزقه أكثر من رزقي،

ومقامه أعلى من مقامي. أو أن يقول: أنا أعمل أقل من فلان وأكسب أكثر منه بكثير!... ولا يقول إنسانٌ ذلك إذا كان معتقداً بأن الرازق هو الله تعالى، وأنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب. أما لماذا؟ وكيف؟ فهذا ما لا شأن لنا به، إنها الحكمة الإلّهية تعطي من تشاء بغير حساب، وليس لعبد أن يعترض على ما يشاء ربه، لأن المطلوب منه العمل أولاً والتوكل ثانياً، وليس الكسل والتواكل. وليكن لكل عبد ثقة صادقة بربه تعالى، فهو كريم، حكيم، خلق كل شيء بمقدار، وقسَّم بين الناس الأرزاق والأقدار وفقاً لعلمه الواسع، وحكمته البالغة. وإذا ربط المؤمن بين الأسباب والمسببات وترك النتائج لتدبير الله تعالى يكون قد حقق السعادة الكبرى في حياته، وعند وفاته، وعند لقاء ربه.



الخاتمة



الخاتمة

بعد أن توضحّت لنا معالم النفس البشرية على ضوء الكتاب والسنة، وبقدر ما وفقنا الله ـ سبحانه ـ لأن نستقي من هذين المصدرين الرئيسيين، وفيهما معين متدفق لا ينضب ولا ينفد لكل المعارف الإنسانية.. وبقدر ما مكّننا ـ سبحانه ـ من الوقوف على التجارب والخبرات الإنسانية في أبحاثها لمعرفة النفس.. بعد ذلك كله نرى لزاماً علينا أن نضعك أيها الإنسان أمام الحقيقة التي يجب ألَّا تغرب عنك ألا وهي: أي اختيار ترتضيه لنفسك، وأي موقف تقفه في هذه الحياة الفانية؟

أنت أيها الإنسان ماذا تريد؟

أتريد الدنيا مكتفياً بزخرفها، صارفاً نظرك عن الآخرة ونعيمها؟

أم تريد نيل الدنيا ـ بمادياتها ومعنوياتها ـ كي تبتغي بها الدار الآخرة امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؟[1].

---

(١) القصص: ٧٧.

خيارات ومواقف

إن الخيارات والمواقف هي التي تبرز حقاً الرجال العظام والنساء العظيمات.. وهل برز الإنسان إلا بما اختار وبما كان له من موقف، سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أم امرأة؟ إننا نجد موسى عليه السلام وهو الذي قد تربى في قصر فرعون نفسه، يحدد موقفه منه، ومن طغيانه باختياره هدى الله تعالى على ذلك الطغيان، ونصرته للحق على الباطل، والعدل على الظلم، غير آبهٍ لتعيير فرعون له، كما يخبرنا بذلك رب العالمين بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾(١).. وكذلك امرأة فرعون، السيدة آسيا نفسها، فقد حدَّدت موقفها عندما جابهت زوجَها بإيمانها، غير آبهة للعذاب الشديد ينزله بها، مختارةً طاعة الله تعالى، راجيةً منه ـ سبحانه ـ أن ينجِّيها من فرعون وعمله وقومه الظالمين. يقول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

هذان موقفان واختياران من إنسانين عظيمين، وقفا فيهما بجانب الحق بعدما اختارا الإيمان بالله العلي العظيم. وعلى كل إنسان أن يختار بين الدنيا وحدها بزخرفها، وبين الدنيا والآخرة معاً. ولكل إنسانٍ من اختياره نصيب.

خيار من يريد الدنيا

إن الذين اختاروا الحياة الدنيا، وصرفوا النظر عن الآخرة، يقول

---

(١) الشعراء: ١٨.

(٢) التحريم: ١١.

الله تعالى فيهم: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾[1].

من الناس من تبهره الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها وزينتها، فيطلب من ربه أن ينيله إياها. ولكن هؤلاء الناس لم يتفكروا في عمرهم المحدود، وأجلهم الآتي، وأن هنالك حساباً ينتظرهم وعليه يتوقف مصيرهم. إنهم ينسون ذلك كله، ويعيشون لهذه الدنيا، حتى إذا كان يوم الدينونة لا يكون لهم أي نصيب في الآخرة من النعيم.

والله سبحانه وتعالى يعطي من يريد الحياة الدنيا، ويوفي له أعماله، ولا يبخسه منها شيئاً. ولكن ماذا وراء ذلك كله؟ يقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

هذا ما نراه في هذه الدنيا: أناس ملأوا وجودهم أعمالاً، وأمجاداً، ومُدّت لهم أسباب القوة حتى لكأن كل ما يرغبون فيه متاح لهم! ولكن مهما اتسعت أعمالهم وتشعبت، ومهما كثر ما صنعوا وتعاظم، فإن كل ما أوتوه في الدنيا كان باطلاً، وحبط ما صنعوا (حَبِطَ: من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض). وهو بيان حسّي، وصورة معبِّرة عن أعمال طلاب الدنيا التي هي في حقيقتها بمثابة أمراض مؤدية إلى هلاكهم في الآخرة، لأنه ليس لهم هنالك إلا النار يصلونها وبئس المصير.

وقد يأخذ المؤمنَ العجبُ مما يحصل عليه هؤلاء الناس الذين

---

(١) البقرة: ٢٠٠.

(٢) هود: ١٥ ـ ١٦.

يريدون الدنيا، ولكن الرسول ﷺ يزيل هذا العجبَ من النفوس عندما يوضح لنا مصير الأعمال سواء في الدنيا أو في الآخرة. يقول الرسول ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة. أما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل به لله تعالى في الدنيا حتى إذا مضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها».

نعم، فالمؤمن أعماله الحسنة محسوبة له في الدنيا، وهو أيضاً يجزى بها في الآخرة ثواباً عظيماً. أما الكافر وإن أعطي في هذه الدنيا، فإن عطاءه يبقى محصوراً فيها، وينال الجزاءَ الذي يستحق هنا في حياته العاجلة، حتى إذا كان في الآخرة فلا حسنة له هناك يجزى بها، ويكافأ عليها.

والذين ينعم الله تعالى عليهم في الحياة الدنيا ينسون أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي خلقهم، وهو الذي أمدَّهم وشدَّ قواهم حتى نالوا ما نالوا فيها. وحبهم للحياة العاجلة يدفعهم لأن ينسوا يوم القيامة، فينشطون في هذه الحياة وليس همهم إلَّاها، ويقطعون كل صلة بينهم وبين الله تعالى، ولو شاءَ سبحانه لأهلكهم جميعاً بفعالهم، وبدَّلهم بأناس آخرين غيرهم. يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾(١).

هذا هو موقف من يريد الدنيا ويعمل لها. لقد ألهاه التكاثر، وجمع الثروات، وغرَّته الدنيا بزينتها وزخرفها، فانغمس في متاعها الزائف الزائل، ونسيَ الله تعالى خالقه ورازقه، ونسيَ معه الآخرة ويوم الحساب، فحق عليه يوم القيامة العذاب في النار.

---

(١) الإنسان: ٢٧ ـ ٢٨.

وبعض الناس لم يَروْا من الحياة الدنيـا إلاّ المتعة واللهـو، فانصرفوا إلى ذلك ونسُوا أن للدنيا وجهاً آخر، فهي دار ممرٍّ إلى دار مقرّ، وأن إتيانهم العمل الصالح فيها يقربهم من الله في الآخرة. نسوا ذلك كله وغفلوا عنه، وفيهم قال الله تعالى فهؤلاء لا ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾(١).

خيار من يريد الدنيا والآخرة معاً

إن من الناس من يطلب الحسنة في الدارين: الدنيا والآخرة. أي أن هؤلاء يريدون نصيبهم من الدنيا ولكن من غير أن ينسوا نصيبهم في الآخرة. والله ـ سبحانه ـ يعطيهم مما طلبوا ومن أجله عملوا. وهم يكونون بما أعطاهم ربهم واختار لهم راضين قانعين، لأنهم يعلمون أنَّ الله تعالى سريع الحساب، لا يبطىء في العطاء، كما لا يبطىء في المنع. ويكون جلُّ اهتمامهم الوقاية من عذاب النار. ولذلك هم يدعون ربهم قائلين: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٢).

هؤلاء الناس يَزِنُونَ الأمور بموازينها الحقة ويعملون وفق المنهج الذي يوفِّق ما بين الدنيا والآخرة، فلا يتركون واحدة على حساب الأخرى، ولا يصرفون أنظارهم واهتماماتهم لواحدة دون الأخـرى، ولذلك يكون نصيبهم وفق ما يعملون وما يسعون له. والله سبحانه وتعالى، لمـا يتّصف به من صفات الألوهية والربوبية وما ينبثق عنهما من صفات العظمة والحكمة والقدرة، يترك للإنسان مجال الاختيار

---

(١) الروم: ٧.

(٢) البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

واسعاً، كما تدل عليه الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

هذا هو التقدير الإلّهي. فالله تعالى الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً يُعلي من شأن هذا الإنسان الذي خلقه وكرَّمه بالمزايا الإنسانية، عندما يطلق لإرادته حرية الاختيار، فإن أراد ثوابَ الدنيا أناله منها، وإن أرادَ ثواب الآخرة أناله منها.. ولكن هذا الإحسان، الذي يتفضل به الله تعالى على عباده، سواء في الدنيا أو في الآخرة، إنما يستحق الحمد والشكر، وبمقدار ما يكون الإنسان حامداً لربه، شكوراً لخالقه، بقدر ما يجزى على أعماله وعلى شكره. والإنسان المؤمن يكون دائماً وأبداً حامداً، شكوراً، لأنه يعلم أن كل ما في الوجود هو فضل من الله تعالى وإحسان منه لعباده، وخلائقه، فكان حريًّا بالعبد المؤمن أن يعترف بالفضل، وأن يشكر صاحب المنّة والفضل.

وتبرز العدالة الإلّهية وهي تنصب ميزان الحق على اختيار الإنسان، ويبرز القرآن المجيد محدداً مصائر الناس على أساس اختياراتهم، حتى لا يكون لأحد منهم عذر: فلا جدال، ولا لوم أو رضاً إلاَّ على ما كان له من موقف واختيار. يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2]. تلك هي مشيئة الله تعالى، فمن يريد العاجلة

---

(١) آل عمران: ١٤٥.
(٢) الإسراء: ١٨ ـ ١٧.

ـ هذه الدنيا ـ فإن الله تعالى يعجل له نصيبه فيها، بالقدر الذي يشاء، ولمن يشاء من الناس. وأما من أراد الآخرة وسعى لها سعيها، ـ الذي هو المحك والمعيار ـ فإن عليه القيام بهذا السعي لأنه كما تنال الدنيا بالعمل لها، فكذلك الآخرة لها أعمالها التي لا تنال إلَّا بها.

والعمل أو السعي للآخرة إنما يكون في هذه الدنيا، وذلك بأن يعرف الإنسان بأن الآخرة لا يمكن الفوز بنعيمها ونيل ثوابها إلَّا إذا نهض الإنسان بتبعاتها من عمل صالح، وتعامل طيب مع الآخرين، واعتراف بألوهية الله تعالى وربوبيته، وإقامة الطاعات والعبادات، والابتعاد عن النواهي والمحرمات... أي بقول مختصر أن يقيم سعيه كله على الإيمان الحق. وهذا الإيمان ليس كلمة تقال في اللسان، وتتحرك بها الشفتان، بل هو ما وقر في القلب وصدقه العمل. فسعي الإنسان للآخرة يجب أن يقوم على هذا الأساس المتين: على صدق إيمانه، وحسن أعماله..

والله سبحانه وتعالى يمدّ كلاً من الفريقين بالعطاء. يمدُّ لمن يريد من طلاب العاجلة وبقدر ما يشاء، ويمدُّ لمن يريد الآخرة ويسعى لها سعيها. وليس لأحد الاعتراض على عطاء الله تعالى، لأن عطاءه ليس محظوراً. ولكن هيهات بين عطاءٍ في الأرض يبقى محدوداً مهما كبر، ويفضي بالمعطى له إلى جهنم لأنه أراد العاجلة وعمل لها فقط، وبين عطاء يفيض بالبركة والخير والرضا والرحمة، ويملأ قلب صاحبه إيماناً وامتناناً وشكراً وعرفاناً... هنا إذن التفاوت. ففي الأرض تفاوت في الأرزاق، والمراكز، ولكنه يبقى تفاوتاً ضيقاً، وتبقى معه الأرض كلها لا تزن جناح بعوضة بالنسبة للآخرة. أما التفاوت الأعظم، والأكرم فهو الذي يرقى به الإنسان إلى درجة عالية في الآخرة، كما يوجهنا إليه

رب العالمين بقوله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[1].

إنه توجيه رباني للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم: انظر يا محمد كيف فضلنا بعض الناس على بعض في الحياة الدنيا: منهم أغنياء وفقراء، ومنهم مرضى وأصحاء، وبعضهم قادة ومعظمهم جنود، وبعضهم حكام وأكثرهم محكومون. ولكن هذا التفاوت، لا يقاس، ولا يقارن بالتفاوت في الآخرة، لأن درجات الآخرة أعلى، ومراتبها أفضل، ودرجاتها مستحقة للأفراد على قدر أعمالهم، وقدر سعيهم لها، مما يفرض أن يكون السعي للآخرة أكثر بكثير، وبكثير جداً، من السعي للدنيا. وقد روي أن ما بين أعلى درجات الجنة وأسفلها مثل ما بين السماء والأرض.

إذن على الإنسان أن يختار الدنيا ويعمل من أجلها، فيتقرر مصيره في الآخرة على هذا الاختيار والعمل الذي قام به، أو أن يختار الآخرة ويسعى لها سعيها، فيتقرر مصيره أيضاً على أساس اختياره وعمله. والقرآن الكريم يبّين بكل وضوح موقف كل من الفريقين في الدنيا، والمصير الذي ينتظره في الآخرة. يقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[2].

والرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يبين أن أحسن الاختيار هو العمل للدنيا والآخرة معاً. يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس خيركم من عمل لدنياه دون آخرته ولا من عمل لآخرته وترك دنياه وإنما خيركم من عمل لهذه وهذه».

---

(١) الإسراء: ٢١.

(٢) النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

ونجد في الحياة أن الناس الذين يخافون مقام ربهم، وينهون النفس عن الهوى، هم المؤمنون المتقون. فهم أخلص الناس عبادة، وطاعة، وشكراً، وهم أكثر الناس عطاءَ رحمةٍ في الدنيا، وثوابَ نعيمٍ في الآخرة. وأمير المؤمنين علي عليه السلام عرَّف حقيقة مقام المتقين فقال عنهم: «اعلموا عباد الله أن المتقين رضوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلَّغ والمتجر الرابح».

وهكذا يتبين المنهج الرباني متكاملاً في تقويم الإنسان قيمةً وعملاً ومصيراً، وذلك على أساس اختيار الإنسان وموقفه في هذه الحياة.. ويتحدد سلوك الإنسان وفقاً لأفكاره ومشاعره في الاختيار، فمن اختار الحياة الدنيا كان له موقف معين من الذين اختاروا الآخرة، بحيث لا يلتقي معهم لا في فكر ولا في شعور، وبالتالي يكون موقفه وسلوكه مختلفاً تماماً عن مواقفهم وسلوكهم. وكذلك الحال بالنسبة لمن اختار الحياة الآخرة، فهو لا يلتقي أبداً مع من اختار الحياة الدنيا في أي شيء.. وحتى إن التقت مواقفهم حول مسألة معينة، فإنه يكون التقاء ظاهرياً لا يلبث أن يتبدّد ويحصل التباعد بينهم.

من هنا كانت علاقات الناس قائمة على أساس مواقفهم وخياراتهم، فمن توحدت مواقفهم وخياراتهم قامت بينهم علائق وثيقة، وروابط متينة فالتقوا على نفس المنهج، وسعوا إلى نفس الأهداف، وجمعتهم نفس الأفكار والمشاعر. أما من كانت مواقفهم متغايرة فإن العلاقات بينهم تتجاذبها المطامع والأهواء والغايات، وتتفسخ الروابط

حتى بين أقرب المقربين لبعضهم البعض. وفي القرآن الكريم الأمثال الدالة على ذاك التفسّخ والتضارب في المواقف والاتجاهات. فامرأة نوح عليه السلام، وامرأة لوط عليه السلام اختلف خيارهما عن خيار زوجيهما، فكل واحدة منهما آثرت الكفر على الإيمان، واتخذت موقفاً في الحياة مغايراً لموقف زوجها. وكذلك كان موقف ابن نوح عليه السلام من أبيه فضلَّ عن الحق الذي يدعو إليه أبوه، ولذلك وصفه الله تعالى بأنه ﴿عمل غير صالح﴾. . وكذلك نجد موقف آزر من ابنه إبراهيم عليه السلام إذ لم يقف إلى جانبه وقد أسلمه قومه الكافرون إلى النار. . . ومثله موقف أبي لهب اللعين من ابن أخيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان أكثر الحاقدين عليه، وأشدهم حرباً على دعوته، بين الأقربين من أبناء عشيرته.

ولا يقتصر انطباق هذه الأمور على حياة الأفراد من البشر، بل يتعدّاه إلى حياة الشعوب والجماعات. فلا عجب ـ في أواخر القرن العشرين ـ أنْ نرى الاهتراء والتفسُّخ والتآكل، تصيب الأنظمة الشيوعية والمسمّاة بـ «الاشتراكية». فإذا بها تتهاوى واحداً بعد الآخر. وما بقي منها ممسكاً بزمام السلطة، فإنه لم يتيسّر له ذلك إلا باللجوء إلى القهر والشدة ليحمي مواقعه ويلهي عنه شعبه. وهو اليوم آخذ في التخبّط ولاحق بغيره لا محالة، طال الزمن، أو قَصُر.

هذه هي الأنظمة التي تذرَّعت بحمل اسم «الاشتراكية» لتقبض على زمام الشعوب المستضعفة الرازحة تحت نير الرأسمالية الغاشمة. فلاذت بها واحتمت، وعقدت عليها الأمل والرجاء، معتقدة، أنها من خلال حكّامها، ستفوز بشيء من الحرية والرخاء وبحبوحة العيش.

ولكن هذه الاشتراكية ظهرت على حقيقتها، فإذا هي، عند التطبيق، رأسماليةٌ بوجه آخر، وظلٌّ لاستعمار الشعوب المستضعفة وتقييدها روحيّاً ومادياً.

لَمْ تجد الجماعات والشعوب في ظلِّ الرأسمالية، ولا في ظلِّ الاشتراكية أي نوع من الطمأنينة والرفاهية في العيش، بل وجدت نفسها غارقة في لجج الظلم، وراحت تعاني من الفقر والتعاسة والقلق الدائم والهمّ المقيم.

فكيف يكون الخلاص؟

أين نحن من نظام متكامل، يعيش الإنسان في ظلِّه آمناً مطمئناً ترعاه دولة كريمة عادلة، تعرف قدر الإنسان، وتُحِلُّه في المرتبة اللائقة به؟

أو أين يكون الخلاص؟

نظام الإسلام وحده فيه الخلاص

فمهما ذهب العقل البشري بعيداً في البحث والتنقيب وإعمال الفكر، فلن يجد غير نظام الإسلام حلًّا لمشكلات البشر. إنّ نظام الإسلام وحده، هو الذي يعيد لهذا الإنسان اعتباره، ويبدِّلُه من بعد خوفه وقلقه أمناً وطمأنينة، ومن بعد فقره المدقع غنىً في المال والنفس، ومن بعد الظلم الذي نزل به عدلاً ومساواة.

لقد غُيِّب الإسلام عن مسرح استلام زمام مقاليد الحكم، فترةً من الزمن، ربما أرادها الله سبحانه امتحاناً للمؤمنين، وصهراً لنفوسهم كي يغيروا ما فيها ليغيِّر الله سبحانه ما بهم...

وما أن لاحت بوادر الصحوة الإسلامية، حتى راحت النظم الدنْيَوية من رأسمالية واشتراكية، تتهاوى بأصحابها والقيِّمين عليها. كما تتهاوى مفاهيمها كذلك، في عقول الناس وقلوبهم.. ولن يجد أبناء البشر إلاّ في الإسلام، الدينَ الحقَّ، والملاذَ للشعوب المنهكة، الذي يأخذ بيدها إلى ما فيه الخير والطمأنينة والسعادة الحقيقية.

أجل! ما من نظام يصلح لبني الإنسان إلّا نظام الإسلام. إنّه النور الربّاني الهادي، يضيء لهم شعاب هذه الحياة، ويملأ قلوبهم بالإيمان، والرّاحة، ويسهّل أمامهم سبل العيش الكريم...

هو الدِّين القيِّم الذي ارتضاه سبحانه لعباده، وبعث به نبيَّه المصطفى مبشّراً وهادياً ونذيراً... وهو سبحانه الذي تكفّل بإتمام نشره وبغلبته على كلٍّ ما عداه من الأديان والنظم... والله بالغ أمره... لقد قضى بذلك ولا رادّ لقضائه. ولن تطفىء نورَه الإلٰهيَّ الغامرَ نفخةٌ من أفواه الكفّار المشركين...

هذا عهد من الله سبحانه على نفسه... ومَنْ أوفى بعهده من الله سبحانه؟

قال تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

وهذا من عجيب بيان القرآن الكريم في تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم، لأنَّ الْفَمَ يؤثر في النّور الضعيف دون القَبَسِ العظيم. ﴿ويأبى الله إلّا أن يتم نوره﴾... ولا يرضى الله تعالى إلّا أنْ يظهِر أمر الإسلام وحجته الدامِغَة...

قال المقداد بن الأسود:

سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر إلّا أدخله الله كلمة الإسلام، إمّا بعزٍّ عزيز، وإما بذلّ

(١) التوبة: ٣٢ ـ ٣٣.

ذليل، فهو إما يُعزهم فيجعلهم من أهله فيعزّوا به، وإما يذلهم فيدينون له».

﴿ولو كره المشركون﴾ أي فإن الله تعالى يظهره رغماً عنهم...

لقد حسب أولئك الذين حكموا الناس بالظلم، وتحكَّموا فيهم بالجور، أنَّهم قد استولوا على العقول فأقنعوها بعدالة أنظمتهم وأنهم قد سيطروا على المصائر فلا خلاص للرعيَّة من حكمهم...

أجل! لقد اعتقدوا بأبدية أنظمتهم... ولكن الله سبحانه رؤوف بعباده، حافظ لدينه الذي ينظم حياتهم ومعادهم. ويبعث الفرج بأمره سبحانه من قلب الضيق، وينشر نوره الربّاني فيعمّ الكون، فيغدو دينه الحق هو الخلاص لبني البشر في دنياهم وآخرتهم.

وتثبيتاً لقضائه سبحانه بغلبة هذا الدين الحنيف وظهوره على كل ما يريده الكفّار والمشركون لإطفاء نوره، وما يعملون له لطمس هداه...

وتوكيداً لعظمة آياته البيِّنات واحتوائها كل شاردة وواردة في شأن هذا الخلق...

وإظهاراً لسحر البيان والبلاغة في كل كلمة مفردة أو تركيب من القرآن الكريم جاءت الآية في سورة الصف، التي يبدو ظاهرها، بلفظة الآية السابقة في سورة التوبة. قال عزّ من قائل:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1].

---

(١) الصف: ٨ ـ ٩.

إنّها لآية عظيمة كغيرها، من كتاب الله الكريم. . . فهي ـ بتكرار ألفاظٍ منها مع غيرها، وتنويعٍ في استعمال الفعل أو المصدر، أو اختلاف في التوكيد وأدواته ـ تبعث الثقة في نفوس المؤمنين، وتقوّي من عقيدتهم، وتشد من عزائمهم، وتؤكد لهم أن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين. . . والله سبحانه بالغُ أَمْرِهِ، والعاقبةُ للمتّقين. . .

وخلاصة القول: إنَّ الإنسان إما أن يريد الدنيا وإما أن يريد الآخرة.

ونيل الدنيا يمكن أن يكون بالسعي المشكور أو بالعمل الصالح ومجاهدة النفس ضد الضلال والفساد. . أو أن يكون بالسعي غير المشكور أو بالعمل الطالح، واتباع أهواء النفس. .

وقد تنال الدنيا، أحياناً، بلا عمل أو جهد، فمن يكون آباؤهم حكّاماً أو أثرياء قد يرثون أحياناً الثروات الطائلة من حيث لا يحتسبون. .

أما نيل الآخرة فلا يكون إلَّا لمن عمل لها وسعى لها سعيها. والسعي للآخرة يكون في هذه الدنيا، فأعمالنا الصالحة فيها تجاه ربنا، وتجاه أنفسنا، وتجاه الناس، هي الزاد الذي نحمله، والمؤونة التي ندخرها لتكون لنا الجنة هي المأوى. والاعتقاد بغير ذلك يخالف التربية الربانية لنا، ويجعلنا ننحرف عن المنهج الصحيح والصراط المستقيم.

ولذلك كان العجب العجاب من هؤلاء الذي يدعون الزهد في الحياة، ويظنون أن قيامهم على العبادات فقط، بلا عمل يؤدونه لصالح الإنسان، هو الذي يوصلهم إلى الآخرة. لا، إن الله تعالى يحب الإنسان العامل صاحب النية الصادقة، لأنه ـ سبحانه ـ خلقه للعمل في هذه الدنيا، وعلى عمله هنا يتوقف مصيره في الآخرة. فمن قعد بلا

عملٍ كما أراد الله تعالى منا، فكيف يمكن أن يحظى بثواب الآخرة؟

والحديث الشريف يقدم لنا الحجة والبرهان، وهو يزن نوايا الإنسان في تحديد مواقفه وخياراته من الدنيا والآخرة. يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من كانت نيته الدنيا فرَّق الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت نيته الآخرة جمع الله عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

ونفس الإنسان هي وعاء نواياه. والنفس الإنسانية، كما يدلنا عليها نهج القرآن قد تكون نفساً أمارة بالسوء، أو نفساً مطمئنة، أو نفساً لوّامة، وبذلك يقدم القرآن الكريم نماذج حية عن الإنسان بما تدفعه إليه نفسه من مواقف واختيارات.

ونختم تلك النماذج بالإنسان نفسه كما بدأناها بالخلق والنفس الإنسانية..

الإنسان

لقد خلق الله تعالى الإنسان، وحباه بخصائص هي من أعظم نعمه تعالى على هذا المخلوق. ولعلَّ أسمى هذه النعم وأجلَّها شأناً، في وجوده، ملكة العقل الذي به الإدراك والعلم، ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلها﴾. فكان خليقاً بالإنسان، وبسبب خاصية العقل وحدها أن يؤمن بحقيقة وجود الله تعالى، وبملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر. وكان حريّاً به أن يدرك فيض النعم الربانية التي ساد بها على سائر المخلوقات الأرضية، وأروعُها وأعمقُها أصالةً في تكوينه البشري نعمةُ البيان وما تشتمل عليه من النطق، والعلم، والمعرفة، وما تحتوي في

مضامينها من معاني الأفكار والمشاعر، وكل ما يميز الإنسان بتكوينه الجسدي والنفسي والروحاني.

ومن يتسنَّ له الاطلاع على التعاليم السماوية إلى بني البشر يدركْ تمام الإدراك أهمية هذا البيان في إيصال تلك التعاليم إلى الناس. ولكن تعاليم الله تعالى وكما وردت في الكتب السماوية من أمثال الزبور والتوراة والأنجيل لم تعد موجودة بصورة كاملة، أو لم يعد ميسوراً ـ على الأقل ـ الاطلاع عليها كما تنزلت على حقيقتها، وذلك لما لحقها من التحريف والإدخال، والحذف، والإخفاء.. لغايات وعللٍ شتى هي من صنع بني البشر..

وبقي القرآن وحده، كتاباً صافياً، خالصاً لم تشبه شائبةٌ، ولم يدخل عليه أيُّ غريب عنه، ولم يعتوره أيُّ نقص أو إدخال، لأنه كتاب محفوظ من الله الذي أنزله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]. والذكر هو القرآن الكريم، وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد أنزل هذا الكتاب ومن جملة أهدافه السامية أن يهديَ الناس إلى عقيدة التوحيد القائمة على أن «لا إله إلا الله» وحده لا شريك له، وعلى أنه ربٌّ واحد لجميع العالمين، فلا أرباب دينية أو دنيوية غيره جلَّ وعلا إلا وكانت من اختراع الناس وأوهامهم، وعلى أنه الكتاب الذي يقدم منهج الله تعالى في العبادة والمعاملات، والذي يربط ما بين الأرض والسماء، كما يربط ما بين الدنيا والآخرة..

ولذلك، ولأن القرآن الكريم كتاب الله المبين، ليس فيه إلاَّ قول الله تعالى العليم الحكيم، فقد بقي وحده محفوظاً. وهو في متناول كل

---

(١) الحجر: ٩.

الناس يستطيعون الإمساك به، وتلاوته، والاستماع إليه في كل حين، وفي أي بقعة من بقاع الدنيا.. ولكن برغم سهولة تناوله فإن تدبر آياته، وفهم معانيها لا يتيّسران لكل إنسان، ما لم يكن هذا الإنسان متمتعاً بقوة البيان الفكري واللغوي والشعوري والإيماني...

القرآن والبيان في حياة الإنسان

وتبرز أهمية القرآن والبيان معاً في حياة الإنسان بقول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾(١).

وحيال هذا القول الإلٰهيّ لا يسع الإنسان إلَّا أن يشعر في الأعماق، وأن يدرك بالعقل، بأن الوجود كله بما فيه وجود الإنسان، ووجود الحياة، ووجود الكون كله، من خلق الرحمان. وهذا ما يوحي بلطف الخالق تعالى بما خلق، وبرحمته الواسعة التي تطال كل من وما في السماوات والأرض، بحيث وسعت كل شيء، فلا يُحرَم من هذه الرحمة أي شيء في الكون بأسره..

ومن رحمة الله الواسعة بالإنسان أن علَّمه القرآن لكي يعلم أنه مستخلف من الله تعالى في الأرض، وأنه كريم حقاً على الله خالقه ومدبره فأمده بالمكرمات الجزيلة، ومنها مكرمة العلم الذي به يقرأ القرآن، ويقف على آفاقه في الخلق ونظمه وقوانينه وسننه التي جعلها الله مطابقة لكل نوع من أنواع هذا الخلق، فلا يحيا ولا يكون له وجود بدونها..

وهكذا جعلَ الرحمانُ رحمته مقرونةً بتعليم القرآن، فكلما ازداد

---

(١) الرحمن: ١ ـ ٤.

الإنسانُ علماً بهذا القرآن كان ذلك سبيلاً لتحوطه الرحمة الإلهية، وترتقي به إلى مشارف الإنسانية العليا.

وبعد أن يبّين القرآن الكريم ارتباط الرحمة بتعليم القرآن، يعطف على حقيقة ثابتة وهي خلق الإنسان وتعليمه البيان. ولن نتوقف عند خلق الإنسان لأننا بحثناه من قبل. ولكن تستوقفنا الخارقة الكبرى، والسر الأعظم ألا وهو تعليم الإنسان البيان. ﴿خلق الإنسان. علَّمه البيان﴾. فما هو البيان؟! إنه هذا النطق، الذي يتميز به الإنسان عن سائر مخلوقات الأرض. فنحن نرى الإنسان ينطق (يتكلم)، ويعبّر، ويتفاهم ويتجاوب مع الآخرين فهو يبيِّن... ولكننا بحكم الألفة ننسى عظمة هذه الهبة، وروعة هذه الخارقة التي لولاها لما كانت هنالك إنسانية الإنسان. وعظمة القرآن أنه يردنا إلى هذه الهبة الربانية، وكأنه يوقظنا من غفلتنا عنها، لنعود وندرك أهمية النطق، وأهمية العقل، فنقدّر عندئذٍ قيمة هذه الهبة في حياتنا، إذ لولا النطق، ولولا العقل، لما أمكن الإنسان أن يسمو في معارج الرقي والتقدم، ولا أمكنه أن يعمر الأرض، ولا أن يتحلّى بمزايا الإيمان والأخلاق والفضائل..

من هنا كان ربط القرآن بين حقيقة خلق الإنسان وحقيقة تعليمه البيان. وكلتاهما من الرحمان، ومن صنعه وتقديره. فهو خالق الإنسان، وهو ـ سبحانه ـ معلمه البيان.. وقد قدَّم تعليم القرآن على خلق الإنسان، لأنه لا يمكن أن يتحقق في هذا الكائن الحي، معنى الإنسان، إلا بعد تعلّمه القرآن. ولا يتأتى له تعلّم القرآن إلاّ بالبيان. وهكذا شاءَ الله تعالى واقتضت حكمته السنية أنْ علّم الإنسان البيان، وذلك منذ أن خلق آدم عليه السلام وعلَّمه الأسماء كلها، أي مسميات الأشياء وخواصها، والحقائق الأساسية التي يدرك فيها معاني خلقه ووجوده، والغاية من جعله أباً للبشرية.

تعليم الإنسان البيان

ما هي الأدوات والوسائل التي خلقها الله تعالى في الإنسان كي يعلّمه البيان؟.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[1]. واضح من النص القرآني أن الله تعالى عندما يخرجنا من بطون أمهاتنا لا نكون نعلم شيئاً.

ولكن ألا يكون خلقنا مكتملاً فيه السمع والأبصار والأفئدة؟ وهذه أليست هي الأعضاء أو الوسائل التي بها نتعرف إلى الوجود كله، وندرك ما نقدر على إدراكه من علم ومعرفة في خضم هذا الوجود الكبير؟.

ولو وقفنا على جانب واحدٍ من جوانب خلقنا المتعلق بجهاز النطق، وهو الذي يعبّر عن حقيقة البيان، لوجدنا أن تكوين هذا الجهاز وحده عجيبة من عجائب الله تعالى في صنعه. فاللسان، والشفتان، والفك، والأسنان، والحنجرة، والقصبة الهوائية، والشُّعَب والرئتان، كلها تشترك في عملية إخراج الصوت الآلية التي هي حلقة في سلسلة البيان. وهي على تنوعها ودقائق تركيبها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكي الآلي في هذه العملية المعقدة، المتعلقة بعد ذلك بالحواس الخمس، وبالأعصاب والدماغ، ثم بالعقل الذي يفكر، ويعطي الأحكام على الوقائع والأحداث.

العقل هو الذي يصدر الأحكام، نعم. وتتكفل الأعصاب بإيصال

---

(١) النحل: ٧٨.

هذه الأحكام عن طريق اللفظ المطلوب. واللفظ ذاته مما علَّمه الله تعالى للإنسان الأول (آدم عليه السلام) وعرَّفه معناه. فكيف يجري الترابط ما بين العقل والأعصاب والأجهزة الصوتية حتى يتم اللفظ؟ يبدأ ذلك عندما تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها، ليمر من الشّعب، إلى القصبة الهوائية، إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة (التي لا تقاس إليها أوتار أية آلة موسيقية صنعها الإنسان، ولا مجموعة من الآلات الموسيقية المختلفة الأنغام). وفي الحنجرة يُحدِث الهواء صوتاً يتشكل حسبما يريده العقل: عالياً أو خافتاً. سريعاً أو بطيئاً. خشناً أو ناعماً. حاداً أو رخيماً. إلى آخر أشكال الصوت وصفاته. وهو يتشكَّل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة. وفي اللسان خاصة يمرُّ كل حرف بمنطقة منه ذاتِ إيقاع معين، يتم فيه الضغط، ليصوّت الحرف بجرسٍ معين. ويحصل ذلك كله من أجل لفظ واحد. ومن الألفاظ تتكون العبارة الواحدة، والعبارات وما وراءها من موضوع أو حدث وأفكار ومشاعر سابقة ولاحقة.. وكل منها يشكل عالماً قائماً بذاته، ينشأ في كيان هذا الإنسان الكريم بصنع من الرحمان الرحيم، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله ربِّ العالمينَ.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن

القرآن هو إمام البيان، فلا عجب أن يكون الأمرُ الإلهي الأول لخاتم النبيين محمد بن عبد اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرأ قرآناً مبيناً يتنزَّل به جبرائيل الأمين عليه السلام وذلك بقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. . . إنه ربط واضح ما بين خلق الإنسان وتعليمه البيان. وأول قراءة كان على محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلوَها هي باسم ربه الذي خلق. وهذا يعني أن يقرأ محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن ـ الذي يسمع ـ باسم ربه. فهو خالقه، وباعثه رسولاً للناس كافة، وأن يدعوه باسمه جلَّ جلاله، فيقول: الله ربي، والله خالقي. ومن هذا الأمر الإلهي نعرف أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفَ نفسه بفعله الدالِّ عليه، فقال ﴿الذي خلق﴾. فالخلق إذن مما اختصَّ الله تعالى به نفسَهُ، ولا يقدر غير الله الخالق على الخلق. ولذلك كانت جميع الكائنات مخلوقة على مقتضى حكمة الخالق العظيم، ووفقاً لمشيئته السنية بإخراجها من العدم إلى الوجود، وبكمال قدرته لأنه على كل شيء قدير.

وقد خصَّ الله تعالى من مخلوقاته بالذكر ـ في الآيات التي يأمر محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقراءتها ـ «الإنسان» بقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من علق﴾. . وتخصيص الإنسان بالذكر هنا تشريفاً له على سائر الكائنات بملكة القراءة والعلم، مع بيان نظام خلقه من علق، أي من دم جامد بعد النطفة، بما يشير إلى أن خلقه الذي هو في الغاية القصوى من المهانة، إنما يبلغ بعد اكتماله، وصيرورته بشراً سوياً، أسمى مبالغ الكمال حيث يكون قادراً على النطق والتمييز، مفرغاً في قالب من الجبلّة البشرية المكتملة.

ثم أمر سبحانه وتعالى نبيَّه المبعوث بأن يقرأ ثانية: ﴿إقرأ وربك الأكرم﴾. أي اقرأ وربك هو الأعظم كرماً بما يبعثك به، وبما تكرَّم به من قبل على سائر النبيين والمرسلين، وبما يتفضَّل به على عباده من كرم العطاء والنعم التي لا تعد ولا تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

لَاتُحْصُوهَآ ﴾[1]. وهو ـ سبحانه ـ عندما يولي عباده نعَمهُ الفياضة فإنما يكون ذلك إما بأن يُعطيهم إياها مباشرة، وإما بأن يسهل لهم الأسباب والسبل إلى نيلها. وهذا منتهى الكرم الذي لا يمكن بلوغ مداه في التقدير البشري لما فيه من فضل وعطاء ورحمة.

أهمية العلم في حياة الإنسان

ومن هذا الكرم الرباني أنه ـ سبحانه ـ ﴿هو الذي علَّم بالقلم﴾.. أي علم الإنسان البيان، وما يرتبط به من إدراك وتفكير، وما يظهر به من أفعال ونتائج. والأداة لهذا التعليم هي «القلم»، الذي به تجري القراءة والكتابة، والبيان الناطق، والبيان الفاعل..

وحتى نقف على مدلول هذا النص القرآني يجب أن نشير إلى أن القلم ـ كما هو معروف ـ كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً في حياة الإنسان. كما لا بد أن نشير إلى أن حقيقة القلم لم تكن يومَ تنزَّل القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الوضوح الذي نلمسه اليوم، ونعرف أثره في حياة البشرية. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم قيمة «القلم»، فيدلُّ عليه منذ أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية، وفي أول قرآن يحمله جبريل الأمين عليه السلام إلى خاتم النبيين. هذا مع أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعثه الله تعالى ليحمل رسالة الإسلام بتمامها وكمالها، لم يكن كاتباً بالقلم، فما كان إذن لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يبرز هذه الحقيقة المتعلقة بقيمة القلم، منذ اللحظة الأولى، لو كان هو الذي يقول هذا القرآن..

فالقلم إذن من أكبر النعم على الإنسان وأجلّها. وذلك لما فيه

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

من وجوه الانتفاع الكثيرة التي يمكن أن يحققها الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ومن أجل آخرته.

والقلم، بالمعنى الذي يريده القرآن الكريم، هو كناية عن مجمل العلم الإنساني، والمعرفة الإنسانية، وما يقدر أن يصل إليه الإنسان من علوم ومعارف على مدار الزمان. قال قتادة: «القلم نعمة من الله عظيمة، لولاه لم يقم دين، ولم يصِحَّ عيش».

وبواسطة «القلم» علَّم الله تعالى الإنسان كل ما كان مجهولاً بالنسبة إليه، وما كان مغيباً عنه، وكل ما هو محتاج إليه من الهدى والإيمان، ومن الشرائع والأحكام، ومن العلوم والمعارف: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

والله تعالى يعلّم الإنسان بطرق عديدة: إما بالإلهام والفطرة، وإما بواسطة النبيين والمرسلين، وإما عن طريق الحاجة والاضطرار. وإما بأن ينصب له الدليل فيلتمسه عن طريق حواسه وعقله، بعد أن يهيء له الظروف والأسباب التي تقوده إلى العلم.

وهكذا أمكن الإنسان، بفضل الله تعالى عليه، أن يكتشف خواص الأشياء النافعة له، وأن ينشىء منها كثيراً من العلوم كالكهرباء، والاتصالات السلكية واللاسلكية، والعقول الألكترونية، وعلوم الفلك، والطب وسائر العلوم الأخرى التي كانت مجهولةً من الإنسان.. فكل العلوم النافعة، التي هي من صنع الإنسان أو اكتشافه، إنما مصدرها الله تعالى، لأنه ـ سبحانه ـ هو العالم، وهو الذي وهب الإنسان ملكة العلم وعلَّمه ما لم يعلم.

وفي الحياة، إلى جانب العلوم التي فيها نفع، نجد علوماً كثيرة فيها ضرر. فهل هذه من الله تعالى؟ كلا بل هي ضلال من الإنسان.

لأن الله تعالى أوجَدَ الأشياء جميعاً، وأوجد لكل شيء خاصيّة، وكلف الإنسان بالعمل مع منحه ملكة التمييز بين العلم والتطبيق. فإنْ لم يُراعِ الإنسانُ حق الله تعالى فيما علَّمه، ولم يراعِ حق عباده بأن حوَّل كثيراً من الأشياء التي خلقها الله تعالى إلى علوم ضارّة بهؤلاء العباد، بل وبغيرهم من المخلوقات، فهذا من سوء توجّه الإنسان، لأنه كان بإمكانه أن يحوّل هذه العلوم ذاتها، ومن مصادرها، إلى ما يفيده ويحقق له الخير والسعادة. وإن كثيراً من الناس ـ الذين يعتبرون من العلماء ـ قد أوجدوا من المكتشفات، وصنعوا من الآلات والتراكيب ما قد يؤدي إلى محو البشرية كلها في لحظات.

كان التأكيد القرآني على ربط القراءة، والعلم والبيان، بكرم الله تعالى، أي بما تكرَّم به على الإنسان من عقل، وفكر، وإدراك، وتمييز، وشعور، وإحساس.. لا ليضارّ به نفسه وعيشه، بل ليأتمر بأوامر خالقِه الذي أراده أن يكون مكرماً في علمه، حكيماً في سعيه.. ولو عرف الإنسان كرامته حق المعرفة، لامتنع عن أي علمٍ يسبب له الشقاء أو القلق أو الفناء..

والله تعالى وهو يعلِّم الإنسان ما لم يعلم، فإنه يضعه دائماً أمام الخيار بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين النافع والضار، ثم يتركه يتصرف وفق استعداداته هو لهذا الجانب أو ذاك. وهو ـ سبحانه ـ يعلّمه أيضاً، ويحذره، ويؤكد عليه أن وراء نواياه وأعماله في هذه الحياة الدنيا حساباً لا بد منه، وهو ينتظره يوم القيامة ليجازى عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1] ولو أبقى الإنسانُ هذه الحقيقة راهنةً، حاضرةً في ذهنه وفي عقله

(1) الزلزلة: ٧ ـ ٨.

وقلبه، لكان حاسبَ نفسه كل يوم فابتعد عن كل ما يجرُّ إلى خطأ، أو ذنب أو معصية، أو ضرر أو شقاء الخ . . . ولو فعل الناس ذلك، لكان الإيمان يملأ نفوسهم، بدل أن يتحوَّل كثير منهم إلى هذا الجحود لنعم الله تعالى ممّا نراه اليوم غالباً في أكثر بقاع الأرض.

قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَره!

ولأن الله تعالى يريد من الإنسان أن يستأهل خلقه، وأن يستأهل نعمة العلم التي وهبها له، فهو ـ سبحانه ـ يقرّعه أشدَّ التقريع، ويجعله مستحقاً للقتل لأنه كفر بأنعم الله، وجحد فضائله، فضلَّ وعمل بخلاف ما أرادَه منه. يقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[1].

﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾..

إنه بيان صريح من رب العالمين بأن هذا الإنسان يرتكب من المعاصي والقبائح والجرائم ما يستوجب عليه القتل.. فهذه المظالم التي يرتكبها الإنسان بحق أبناء جنسه، فرادى وجماعات، وتلك المطامع الجامحة التي تدفعه إلى الاستغلال والاستبداد بغيره، وذلك الجنوح الذي يقوده إلى انتزاع حقوق الآخرين إن بالدهاء والحيلة أو بالعنوة والقهر.. كلها فظائع طغت على الإنسان فلم يراعِ حق الله تعالى في خلقه، وإنه ليستحق القتل عليها.

وما كانت تلك الفظائع من الإنسان إلَّا لشدة جحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقه. فهو عندما لا يراعي حق الله تعالى في خلقه،

---

(١) عبس: ١٧ ـ ٢١.

يكون كافراً لا محالة. فما الذي دعاه إلى الكفر مع كثرة نعم الله تعالى عليه يا تُرى؟ ثم إن الله تعالى يذكِّر هذا الإنسان وينبّهه إلى أنه لا شيء في حياته، وفي خلقه، يوجب الكفر. فلو تفكَّر الإنسان في بداية خلقه، وفي أصله المتواضع الضئيل الزهيد، وأنّه من تلك النطفة الضعيفة الهزيلة قد خلق، ثم قدَّره خالقه ورفعه إلى مقام سام، حيث سخَّر له الأرض وما عليها، ومهد له الحياة على ظهرها، كما مهد له سبيل الهداية.. لو تفكَّر الإنسان بذلك لأدرك بأن كل قيمة له إنما هي من الله تعالى، ومن تقديره ـ سبحانه ـ وتدبيره له..

ومن لطيف صنع الله تعالى بالإنسان أنه دلَّه عند موته بأن يجعل مثواه الأخير في قبرٍ تحت سطح الأرض، وذلك كرامةً له وحفظاً، فلا يطلع أحد على بشاعة ما يحل بجسده من الفناء والاندثار.. ولذلك يقول تعالى: ﴿ثم أماتَهُ فأقبره﴾، فهل يعي الإنسان مقدار هذه الأفضال عليه؟

ولا يظنّنَّ أحد أن الإنسان عندما يموت ويدفن في قبره، متروك سدىً، وأنه انتهى نهاية أبدية لمجرد الموت. بل هنالك يوم لا بد منه، هو يوم القيامة حيث يبعث الإنسان حياً من جديد ليحاسب على ما أبدى في حياته وما أخفى.

إن على الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة الثابتة وهي أن الله تعالى عادلٌ وحكيم. وعدالتُهُ ـ سبحانه ـ تقضي بأن يحاسب الإنسان يوم القيامة على كل شيء في هذه الدنيا. فكان على الإنسان أن يتهيأ لذاك الموقف الرهيب، يوم يقف بين يدي ربه، ليؤدي حسابَهُ، ولينالَ على أساسه الثوابَ أو العقاب. ولكن ويا للأسف، نجد أن الإنسان سواء بأفراده عامة أو بأجياله كافة، لم يقم حق القيام بما أمره الله تعالى،

﴿كلا لما يقضِ ما أمره﴾. ولذلك قضى الكافر من الناس عمره عابثاً، جاحداً، منكراً نعم الله تعالى عليه، لا يحسب ليوم الجزاء والعقاب أي حساب.

وحتى المؤمن من الناس نجده مقصراً في أحيان كثيرة عن أداء واجباته نحو الله تعالى خالقه، وكافله، وهاديه، وحافظه. فهل يليق بالمؤمن أن يتوانى أو يقصر، أو أن يغفل عن أوامر ربه ونواهيه ولو لفترات وجيزة في حياته؟ كلا، إن الإنسان إجمالاً لم يقضِ، ولم يقم بما أمره الله تعالى به. وإن كانت هنالك فوارق شاسعة بين أعمال الكافر وأعمال المؤمن، فلكل جزاؤه يوم الحساب. وعلى الإنسان أن يتذكر دائماً سواء كان كافراً أو مؤمناً بأن الله تعالى أقرب إليه من حبل الوريد. وأنه سبحانه مطلع على خفايا نفسه، يعلم ما يقوم به، ويرى ما يفعله. فليتنبَّه الإنسان من غفلته، وليطع الله تعالى حق الطاعة والله غفور رحيم.

دعاء المضطر وإعراضه

إن القرآن الكريم يصور نماذج كثيرة من البشر بصور بديعة مأخوذة من واقع حياتهم. وهذه الصور في الوقت نفسه ترسم ما تنطوي عليه النفوس البشرية من أفكار ومشاعر، وما تخبىء تلك النفوس من خفايا وبواطن.

وهذه صورة رائعة لنموذج بشري ضعيف الإيمان تظهر في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) يونس: ١٢.

إن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة، وهو يضج بالحركة والنشاط، ويتمتع بالصحة والقوة والغنى. وقليل هم، من عصم الله تعالى، الذين يتذكرون في إبان القوة أن هنالك ضعفاً قد يأتي، وأن هنالك مرضاً أو فقراً قد يحلّان..

والإنسان قلما يتذكر بأن كل ما هو فيه من نعمةٍ فذلك من فضل ربه تعالى. وهو سبحانه عندما يعطي ويمنح فإنما ذلك لحكمة يشاؤها، ولا سبيل لأحد من البشر أن يعترض على ما يشاء الله تعالى ويقضي به حكمه. على أن الإنسان، بصورة عامة، لا يجد أمامه من ملجأ يلتجىء إليه وقت الشدة أو الكرب أو البلاء، إلَّا الله تعالى، فيتوجه إليه بالدعاء والرجاء في كل حالة وآن، سواءٌ كان مستلقياً على جانبه، أو قائماً أو قاعداً.. إنه يبتهل إلى الله تعالى ويرجوه أن يكشف عنه الضرَّ الذي لحق به. والله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، خبير، عليم، يعلم ما تُسِرُّ به الأنفس، وما تنطوي عليه الصدور. وقد أخذ سبحانه وتعالى على نفسه الرحمة بعباده، فيستجيب للداعي إذا دعاه، ويلبي حاجة المحتاج، ويفرج الكرب عن المكروب.. ولكن المشكلة في هذا الإنسان الذي ما إن يكشف عنه ربُّهُ ضرَّه، ويزيل عنه بلاءه، ويمنحه فوق ذلك من العطاء والنعمة ما يجعله في أحسن حال.. حتى ينسى فضل الله تعالى عليه، فكأنه لم يتضرّع إليه بلهفة، ولم يستغث به بحرقة، ولم يدعه برجاءٍ قطّ.. ثم إنه لا يشكره، بل ويعرض عن أي دعاء أو تضرّع أو تقرب إلى ربه تعالى..

فما بالُ هذا الإنسان، وبأي وصف يوصف؟ إنك لو أسديت خدمة لأحدٍ يقرُّ بالفضل، لوجدته شاكراً لك، محاولاً أن يرد الجميل إليك، بينما غيره من الجاحدين، المنكرين، يمرون على أي نعمة أو

فضل أو معروف، حتى ولو كان من الله تعالى، مرور العابر، الساهي، اللاهي، الذي لا يقيم وزناً ولا اعتباراً لأي شيء، ولا يشعرون بأي مكرمة أُسديت إليهم، أو عونٍ قدم لهم.. إن الإنسان الذي يسأل الله تعالى أن يكشف عنه الضُرَّ، ويجحد من بعده صنيع الله تعالى الجميل به، لهو إنسان كافر، جاحد حقاً، وليس في ذاته شيء من إنسانية الإنسان، وليس في نفسه إدراك لحق ألوهية الله تعالى وربوبيته التي تعنو لها الجباه المؤمنة، وتسجد لها الوجوه الطائعة، وتحمدها القلوب الشاكرة..

هكذا هي دائماً أعمال الجاحدين المنكرين. فكما زُيِّن لهم الدعاء عند الضر، والإعراض عند الرخاء، كذلك زين للمسرفين من الكفار والمشركين سوء ما كانوا يعملون، فاستوت بذلك أعمال الجاحد وأعمال المشرك أو الكافر. وقانا الله شرَّ التخبُّط في خضم دنيا هؤلاء وحمانا من غيِّهم.

نَسوا الله فنَسِيَهم...!

وهذا أيضاً نموذج آخر للجاحدين من الناس الذين لا يقف بهم الجحود عند حد نسيان نعم الله تعالى عليهم، وإنكار رحمته - سبحانه - بهم، بل يتخطون ذلك إلى أبعد منه بكثير عندما يجعلون لله تعالى أنداداً ليضلوا بها عن سبيل الله تعالى، وهم يستمتعون بكفرهم هذا، ناسين ما ينتظرهم من عذاب أليم..

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ

﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[1].

إن فطرة الإنسان تبرز على حقيقتها حين يمسّه الضر، فتدفعه للتوجه إلى ربه تعالى بالدعاء، منيباً إليه وحده، مدركاً أنه لا يكشف الضر عنه غيرُهُ سبحانه، وأنه لا ناصر له ولا مجير، ولا مجيب لدعائه إلا الله الخالق العظيم والرب الرؤوف الرحيم.

ولكن هذا الإنسان الذي استجابت فطرته للحقيقة عند مسّ الضر، لا يلبث أن ينسى تضرعه، وإنابته وتوحيده لربه، وتطلعه إليه وحده في المحنة، لأنه يعرف حينها أنه سبحانه وحده أيضاً القادر على رفع الضرّ أو المحنة.. ينسى هذا كله ثم يجعل لله تعالى أنداداً إما آلهةً وهمية كانت تعبد في الجاهلية من قبل، وإما أناساً مثله يعتبرهم قادرين على الفعل، وعلى التأثير في شؤون حياته.. وإما أنه يتبع أهواءه، ويكون عبداً لشهواته وميوله ومطامعه، أو يطغى عليه حب المال والولد أو طاعة الحكام والكبراء.. وكلها أفانين للتعلق بأهداب الدنيا، والابتعاد عن الآخرة، وطاعة الله تعالى، بما يجعله بمثابة عبدٍ لمطامع الدنيا وشهواتها ومتعها، وبما يجعل قلبه مشغوفاً بحبها، وبعيداً عن خالقه الكريم، وربه العليم ذي العزة والجلال. وما ذلك كله إلاّ نوع من الشرك الخفي الذي لا يأخذ شكل الشرك المعروف، وإنما هو الشرك في الصميم، لأن عقيدة التوحيد لا تحتمل شركاً لا في قلب، ولا في مال أو ولد، ولا في وطن أو أرض، ولا في صديق أو قريب.. وشرك من هذا القبيل يجعل في قلب الإنسان أنداداً لله تعالى.

وهذا الإنسان الذي ينأى عن ربه، ويبعد عن دينه، ويتيه في مشاغل الدنيا، يقوده اتخاذه أنداداً لله تعالى إلى الضلال والإضلال

---

(١) الزمر: ٨.

ليصد نفسه وغيره عن سبيل الله تعالى، السبيل الواحد الذي يقوم على إفراده ـ جلّ وعلا ـ بالعبادة، والتوجه إليه بالحب والطاعة، والإخلاص في النية والعمل. ولكن هذا الضلال لا بد أن ينتهي بصاحبه إلى النار بعد تمتعه قليلاً في هذه الأرض، لأن كل متاع فيها قليل مهما طال. وأيام الفرد على الأرض معدودة، بل إن حياة الناس كلها لمتاع قليل لو كانوا يعلمون..

ومن قولٍ للإمام عليّ كرم الله وجهه: «إنما مَثَلُ الدّنيا مَثَلُ الحيّةِ: ليّنٌ مسُّها، قاتلٌ سمُّها. فأعرضْ عمّا يُعجبُكَ فيها لقلّةِ ما يصحبُكَ منها. وَضَعْ عنك همومَهَا لِمَا أيقنتَ به مِنْ فراقها. وكنْ آنسَ ما تكونُ بها أَحْذَرَ ما تكونُ منها. فإنَّ صاحِبَها كلّما اطمأنَّ فيها إلى سرور، أَشخصتْهُ عنه إلى محذور، أو إلى إيناس، أزالتْهُ عنه إلى إيحاش!.

ويختمُ الله تعالى الآية الكريمة بتوجيه تهديد صريح لهذا الكافر بقوله ﴿تمتع بكفرك قليلاً. إنك من أصحاب النار﴾. نار جهنم المحرقة التي ستكون وقودَها، أيها الكافر الجاحد. وسوف تتمتع هي بك كثيراً في آخرتك، بدلاً من تمتعك أنت قليلاً في دنياك.

الله تعالى يبسط الرزق

الناس يتقلّبون دائماً في أحوال مختلفة: فهم يفرحون بالنعمة، وييأسون من الشحّ. وأسباب الشح غالباً ما تكون من صنع أيديهم. فهم السبب إذن في التعاسة والشقاء عندما يأتيان، ويكونان نتيجة لما يقدمون ويفعلون.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ

﴿...سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

يتطرق النص القرآني هنا إلى معاش الناس وأوضاعهم الحياتية، فيبين لنا أن الله تعالى عندما ينعم عليهم، فذلك رحمة منه تعالى بهم، فإذا ذاقوا طعم هذه الرحمة الربانية، سواء في الصحة والعافية، أو في سعة الأرزاق، أو في الدعة والأمن، فإننا نجدهم فرحين، أشرين بطرين، لأن النعمة قد غرَّتهم.. ولكن إذا ما حاقت بهم السيئة بما قدمت أيديهم من مثل القحط في الزروع، أو الشدة من خوف، أو أي ابتلاء آخر يشاء الله تعالى أن يوقعهم به بسبب فعالهم وأعمالهم، ففي حالة الابتلاء هذه نجدهم يقنطون من رحمة الله تعالى، ولا يقدِّرون حكمته في الابتلاء، وأنه تعالى يريد أن يربيهم، ويوجههم دائماً إلى الحق الذي يجب أن يغلب على حياتهم، بدلاً من الباطل الذي يُوقعهم في البلاء.

والله سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿بما قدمت أيديهم﴾ - ولم يقل: بما قدموا - فذلك على التغليب للأظهر الأكثر، لأن أكثر العمل باليدين.

والناس وقت النعمة يفرحون فرح البطر الذي ينسيهم مصدرها وحكمتها، فلا يفطنون أن أية نعمة هي من الله تعالى، ولا يشكرون المنعم على ما خصّهم به من رحمته العظيمة. كما أنهم لا يدرون بأن النعمة هي محل ابتلاء وامتحان للإنسان، حتى يتميز من يستحقها عن غيره ممن لا يستأهلها، فهم إذن عن حكمة الله تعالى غافلون. حتى إذا شاءَ - سبحانه - أن يأخذهم بأعمالهم، وأن يمتحن قلوبهم، إذا هم في اليأس يقعون، وعن حكمة الله تعالى يعمهون.. هكذا هي النفوس

---

(١) الروم: ٣٦ - ٣٧.

المنقطعة عن الله الحكيم، التي لا تدرك سنة الله تعالى في خلقه، وأنه وحده ـ سبحانه ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، دون أن يكون للإنسان حق الاعتراض لماذا يهب هذا ويحرم ذاك. فهو ـ سبحانه ـ يقدّر بحكمته السنية العطاء ومقداره، ولمن يعطيه سواء كان يستحقه أو لا يستحقه، لأن لله تعالى في خلقه شؤوناً، وما لنا نحن البشر إلّا أن نستسلم لمشيئته تعالى وحكمته، وأن ندرك أن الله تعالى هو مصدر أي نعمة أو رزق. إنَّ تقلب أحوالنا، واختلاف أوضاعنا بين الفقر والغنى، بين الشدة والرخاء، بين اليأس والفرح. . كلها أحوال يعرف المؤمنون بأن مردها كلها إلى الله تعالى، كما أن مرد الأمر كله له سبحانه. وفي ذلك آيات لقوم يؤمنون.

الإنسان بين اليأس والتفاخر

والقرآن الكريم يؤكد في آيات أخرى على حالة الإنسان الذي يذيقه الله تعالى طعم رحمته الواسعة، حتى إذا نزعها منه انقلب إلى اليأس والكفر. وعلى حالة إنسان آخر ما إن يكشف ربه تعالى الضر عنه، ويسبغ عليه نعمته ورزقه حتى يفرح ويتفاخر. من هذه النماذج يتبرأ المؤمنون الذين لا تبطرهم نعمة، ولا تقنطهم شدة، بل يبقون على عهد الله تعالى سائرين، وعلى شكره على نعمه دائبين، وعلى بلائه صابرين.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة حالتان متقابلتان:

---

(١) هود: ٩ ـ ١١.

حالة النعمة التي ينزعها الله تعالى عن الإنسان، فينقلب صاحبها إلى اليأس والكفر..

وحالة الضر التي يكشفها الله تعالى عنه ثم يوليه بعدها نعمة فينقلب إلى الفرح والتفاخر..

كثيرون من الناس يعيشون في اللحظات الحاضرة، لا يتذكرون ما مضى ولا يتعظون به، ولا يتفكرون بما قد يأتي ويعملون له.. فالإنسان الذي يتلطف عليه بارئه برحمته الواسعة، فيمنحه صحة موفورة، أو أمناً، أو سعة في المال والبنين، أو كلها مجتمعة، ثم ينزعها منه لحكمة يريدها سبحانه وتعالى، ويحرمه مما كان قد تفضل به عليه، قد ينقلب فوراً إلى اليأس من رحمة الله تعالى، ويتصور أنه فقد الخير نهائياً، فيكفر بالرحمة الربانية، وكفره ناجم عن يأسه الذي يعتبر اعتراضاً على الواهب المنعم، فكأنه يريد لنفسه أن يظل يرتع في النعم دون أن يُنزع منه شيء..

أما الإنسان الذي يسبغ الله تعالى عليه من نعمائه بعد البلاء الذي كان قد مسّه، كأن يشفيه من أمراضه وآلامه، أو يذهب عنه الفاقة ويمنحه الغنى، أو يؤمنه من الخوف... هذا الإنسان يقول: ذهبت المصائب عني، وزالت الآلام والشدة والفقر والخوف... وها أنا أصبحت في نعيمٍ دائم، وسعادة باقية.. وتفرحه أقواله، أو تفرحه أوهامه، فيبطر ويتعالى، ويروح متفاخراً، مدعياً بأن أحواله الجديدة إنما هي بفعل مهارته، وبسبب حذلقته ونشاطه، مستبعداً أي فضلٍ لله تعالى عليه. فهل يدرك هذا الإنسان أن كلَّ ما به من خير، وكلَّ ما ينعم به من رخاء، ما كان ليحصل منه على شيء لو لم يرد الله تعالى له ذلك؟ لقد أعماه فرحه، وأضلَّه تفاخره عن الحقيقة، فلم يعد يعرف مصدر النعمة. ولذلك وقع في الخطأ القاتل، والنكران المقيت..

أعمال الصابرين

﴿إلَّا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾.

الذين صبروا هم الذين قابلوا أيام الشدة بالصبر، وبالاستغفار، والإنابة إلى الله تعالى.. وهم الذين قابلوا أيام النعمة بالشكر والحمد والامتنان، وواظبوا على الأعمال الصالحة في الحالين: بالاحتمال والصبر وطلب العفو والمغفرة في الشدة، وبالدعاء والتضرع والشكر في النعمة. «أولئك» الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾. لأن الصبر والعمل الصالح هما من الإيمان. وهذا الإيمان هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس، والكفر وقت الشدة، كما يعصمها من البطر والفجور والتفاخر وقت الرخاء. وهو الذي يربط دائماً ـ في السراء والضراء ـ القلب البشري بالله تعالى. وكلا الحالين خير للمؤمن، وليس ذلك إلا للمؤمن كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

ولا يكون الإنسان يؤوساً فخوراً إلا إذا كان كافراً. ولا يكون الإنسان صبوراً شكوراً إلا إذا كان مؤمناً. فالكفر والإيمان حدّان فاصلان في حياة الإنسان. إذ مهما تقلبت عليه صروف الحياة، أو ثقلت عليه ظروفها، فإن الشيء الأساسي ينبع دائماً من نفسه، من داخله. ولذا تصطبغ تصرفاته، ويظهر سلوكه، بما تنطوي عليه دخيلته.

ويلاحظ أن الإنسان الذي طغت على نفسه ظلمات الجهل والضلال ـ بعيداً عن الإيمان بالله تعالى ـ زُيِّن له ما كان يفعل حتى تستوي عنده المعايير فلا يميز بين خير وشر، وحق وباطل، وحسن وقبيح. بينما الإنسان الذي يمتلىء قلبه بهذا الإيمان يجاهد نفسه

ليبعدها عن كل معصية أو إثم أو عدوان، ويسلك سبيل الهداية من الرحمن، فيظهر الإيمان في خلقه الكريم، وفي تعامله الرصين، وفي كياسته المحببَّة. هذا هو الإنسان المؤمن الصابر الذي يعمل الصالحات، وذاك هو الإنسان الكافر، اليؤوس، الفخور. وعلى العاقل أن يختار أيهما يريد أن يكون..

كلٌّ يعمل على شاكلته....!

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[1].

لقد رأينا ذاك النموذج من البشر الذي إذا أنعم الله تعالى عليه أعرض عن شكر ربه وحمده، ونأى وابتعد عن أداء حق الله تعالى في العبادة، وفي العباد، كما رأينا نموذج الإنسان الذي ييأس، ويقنط من رحمة الله تعالى، لمجرد أن يحل به سوء أو شر..

وهذه الآية الكريمة تبين هذين النموذجين بصورة خاطفة وسريعة. ولكنها بعد تصويرهما في حالتي الإعراض واليأس، تؤكد على أن كل إنسان إنما يعمل في هذه الحياة الدنيا على شاكلته أي بما تزيّن له نفسه وأهواؤه، وبما يتخلّق به من أخلاق، ويسلك به من سلوك.. وهذا ما ينطبق عليه المثل القائل: «كل إناء بما فيه ينضح».. فما في داخل الإنسان يخرج ويظهر به صاحبه، فيكون قوله وفعله على مثل دخيلة نفسه.. ولكن الله ربنا ﴿أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾.. وفي هذا التقرير منه ـ جلَّ وعلا ـ تهديد خفي بعاقبة العمل

---

(١) الإسراء: ٨٢ ـ ٨٣

والنية والاتجاه، ليأخذ كل إنسان حذره، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى، ويجد طريقه إلى الله تعالى خالقه، ومدبّره، ومسيّره.. فهو سبحانه أعلم بمن هو أكثر استعداداً للهدى، وأقوم طريقاً وسلوكاً في الحياة، وما على الإنسان إلا أن يسلك سبيل هدى ربه حتى يستحق السعادة في الدنيا، والفوز في الآخرة.

الإنسان القتور

ولئن كان كل فرد يعمل على شاكلته، أي وفق الطريق الذي يختاره والسلوك الذي يرتئيه، أو وفق المنهج والقيم والقوانين التي تضعها الجماعة لحياتها، فإن كثيراً من الناس يحاول إعجاز غيره بمحاولات لا تنطبق على الواقع، ولا يطيقها الجهد البشري، كأن يستغرب أحدٌ كيف يقدم الآخر على أفعال كذا، وكذا.. بينما هو لا يقدر أن يأتي بشيء من مثل ذلك.. كان هذا مثال الكفار والمشركين، عندما كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتي ببيوت الزخرف، وجنات النخيل والأعناب، والينابيع المتفجرة في وسط الصحراء القاحلة.. وهم بخلاء حتى لو أن رحمة الله تعالى قد وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفادها، مع أن رحمة الله لا تنقطع ولا تنفد. وهذا ما يبرزه النص القرآني بقول الله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾[1].

فهذه صورة بالغة للناس البخلاء، ولما تنطوي عليه نفوسهم من الشح، حتى ولو كانت لهم مقادير كبيرة من الأموال والأرزاق..

---

(١) الإسراء: ١٠٠.

ويصورهم القرآن الكريم بأنهم على قدرٍ من الشح والبخل، بحيث إنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، ولا يمكن أبداً أن يخشى أحدٌ نفادها أو نقصها، لكانت نفوسهم الشحيحة مع ذلك تمنع هذه الرحمة وتبخل بها..

وما هذا التصوير للبخل والبخلاء، إلا لأن الله تعالى قد آتى الناس كثيراً من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع وطيبات.... حتى أن نعم الله تعالى التي أعطاهم منها ما يوافق مصالحهم وشؤونهم لا تعد ولا تحصى، ومع ذلك نجد بينهم الإنسان البخيل، الظلوم، الكفار.

نِعَمُ الله لا تحصى

قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(١).

قد يسأل الإنسانُ أن يمنحه الله تعالى العافية فيُعطاها، ويسأله النجاة من خطر أو ضيق فيستجيب له، ويسأله الغنى فيرزقه الثروة، ويسأله الولد والعزَّ فيعطاهما.. ويسأله ويسأله.. فيُعطى كل ما يسأل. فأين يذهب هذا الإنسان بكل هذا العطاء الرباني، ومع هذه النعم التي لا تحصى؟.

ما تجدر الإشارة إليه أن «مِن» الواردة في الآية الكريمة قد دخلت هنا للتبعيض، لأنه لو قال: وآتاكم كل ما سألتموه لاقتضى أن جميع ما يسأله العبدُ يعطيه الله تعالى له، والأمر بخلاف ذلك، لأن ما فيه مفسدة لا يعطيه تعالى إياه، فيكون تقديره: وآتاكم من كل ما سألتموه شيئاً محدداً، شاءَ ـ سبحانه ـ أن يعطيه، من نعمائه وفضائله

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

وحسن صنائعه التي لا تعد ولا تحصى، لأنها أكبر وأكثر من أن يحصيها الناس، بل هم لا يقدرون على إحصائها، لأن نعم الله تعالى مطلقة فلا يحيط بها إدراك الإنسان.. وبعد ذلك كله ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ فهو كثير الظلم لنفسه، وكثير الكفران لنعم ربه. كما أنه ظلوم في الشدة، لكثرة ما يشكو ويجزع، وكفار في النعمة لكثرة ما يجمع ويمنع.

ولم يتناول نص الآية الكريمة الإنسان على العموم، بل الإنسان الظلوم، الكفار، على وجه الخصوص، لشدة ظلمه، وكثرة كفرانه. وهذه رحمة زائدة من ربنا تعالى لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم بمنأى ـ إن شاء الله ـ عن كل ظلم وكفر..

الإنسان الكنود

ومن الآيات القرآنية المبينة، التي تصور الإنسان وهو يجحد نعمة ربه، وينكر جزيل فضله، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[1]. ولا يمكن أن يبلغ الجحود مبلغه من الإنسان لولا أن قلبه خالٍ من دوافع الإيمان. وهذا ما يريد القرآن الكريم التنبيه إليه، إلى هذه الحقيقة في نفس الإنسان، حتى يجند إرادته لكفاحها، ويعمل على شفاء هذه النفس من ثقل أمراض الجحود والنكران.

ويتمثل كنود الإنسان (أي جحوده) في مظاهر شتى تبدو في أقواله وأفعاله، وهي التي تقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. ولكن متى؟ يوم القيامة.. حيث يؤتى بأقوال الإنسان وأفعاله

---

(١) العاديات: ٦ ـ ٨.

لتشهد عليه، أي أنه يشهد على نفسه بالكنود والجحود.. يوم لا يمكنه أن ينطق إلَّا بالحق حيث لا جدال ولا محال.

وهذا الإنسان، بما يُثقل على نفسه من كنود وجحود، هو شديد الحب لنفسه، وشديدُ لحب الخير لها، ولكن كما يرى هو الخير: مالاً وسلطةً واستمتاعاً بأعراض الحياة الدنيا. ومثل هذا النوع من الإنسان غالباً ما يكون بخيلاً، شحيحاً، إذا سألته عن النعمة التي هو فيها، قد لا يذكرها بل يتبرَّم بما في نفسه من أثقال وهموم، وبما يحيط به من مصاعب وأتعاب... حتى أن شحَّ نفسه يزيّن له إنكار النعمة التي هو فيها، وتحويلها إلى هموم تقلقه.. روى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أتدرون من الكنود الجحود؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكنود هو الذي يأكل وحده، ويمنع رِفْدَهُ، ويضرب عبدَه».

وإنسان هذا طبعه، يبقى على كنوده وجحوده، ما لم يخالط الإيمانُ قلبه. ولذا كان التنبيه القرآني لمجاهدة الكنود لنفسه حتى يتخلص من هذا الثقل الذي يرهقها ويضنيها.

الجشع ومعالجة القرآن له

إن معالجة القرآن الكريم لأمراض الجشع والحرص جاءت في كثيرٍ من السور والآيات الكريمة. حتى ليكاد يتبين أنه يخوض معركة حامية مع الجشع والحرص في أغوار النفس، كما هو ظاهر لمن يتتبع نصوص القرآن الكريم من تحذيره من الربا، ومن أكل أموال الناس بالباطل، ومن أكل أموال اليتامى، ومن الحجر على البنات اليتيمات واحتجازهن للزواج الجائر رغبة في أموالهن، ومن نَهْرِ السائل، وقَهْرِ اليتيم، وحرمان المساكين... إلى آخر ما يسوقه القرآن المجيد من

حملات عنيفة على أصحاب النفوس الجشعة، الحريصة على الأثرة وحب الذات.. وفي هذه الحملات توجيهات دائمة لعلاج النفس الإنسانية في كل بيئة، لأن حب المال، والحرص عليه، وشح النفس به، والرغبة في تكديسه، آفات تساور النفس البشرية وتدفعها للشره وإشباع الشهوات.

ومن التوجيهات والمعالجات القرآنية في هذا المجال قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[1].

عندما يتناول القرآن الكريم الإنسان في أعماق نفسه، يظهر حقيقة هذه النفس بدقة وتعبير كاملين، ويكشف عما تجيش به من مشاعر، وما يعتمل فيها من انفعالات. وإن من أدقّ التعابير وأجلاها وضوحاً للإنسان في حالتي الشر والخير، هذا البيان القرآني السامي، وهو يصف الإنسان هلوعاً في تينك الحالتين: جزوعاً إذا مسَّه الشر ومنوعاً إذا مسه الخير..

﴿إذا مسَّه الشر جزوعاً﴾ يتألم لنزوله به، ويخاف من وقوعه عليه،

---

(١) المعارج: ١٩ ـ ٣٥.

ويحسب أنه دائم لا كاشف له: لا يتصور أن هناك فرجاً، ولا يتوقع من الله تعالى تغييراً، ومن ثم يأخذه الجزع، ويمزقه الهلع.

و﴿إذا مسَّه الخير منوعاً﴾ يمنع أي خير إذا قدر عليه، فهو يحسب أنه من كده وكسبه، فيبخل به على غيره، ويحتفظ به لنفسه، ويصبح أسير ما ملكت يداه منه، مستعبداً للحرص عليه. ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه، ولا يتطلع إلى أي خير من عند ربه، طالما أنه منقطع عنه، خاوي القلب من الشعور به.. هذا الإنسان الهلوع من الشر، المنوع للخير، هو صورة بائسة للإنسان، حين يخلو قلبه من الإيمان. وهو أصدق صورة لكل من فرغ قلبه من الإيمان. وحين يصبح القلب خاوياً من نعمة الإيمان الكبرى، التي هي من أجلّ وأعظم مقومات الوجود الإنساني، فإن صاحبه يبيت في قلق مقيم وخوف دائم، سواء أصابه الشر فجزع، أم أصابه الخير فمنع.

أما حين يغمر الإيمانُ القلبَ الإنساني، فإنه يجعله في طمأنينة وعافية، لأنه متصل بالله العلي القدير، مصدر الأحداث ومدبر الأحوال. والمؤمن مطمئن إلى قدره، شاعر برحمة ربّه، مقدر لابتلائه، متطلع دائماً إلى فرجه من الضيق، ويسره من العسر. وهو متجه إليه بالخير، عالم أنه ينفق مما رزقه، وأنه مجزي على ما أنفق في سبيله، وسوف يعوّض عنه في الدنيا والآخرة. فالإيمان كسب في الدنيا يتحقق بالسعادة ونيل رضوان الله العلي العظيم قبل تحقق سعادة الآخرة. كما أنه يؤمّن الطمأنينة والأمل والرجاء والثبات والاستقرار طوال رحلة الإنسان في هذه الحياة الفانية.

وصفات المؤمنين الذين استثناهم ربُّهم سبحانه من هذا الهلع، يفصلها النص الكريم في هذه الآيات المباركة من سورة المعارج:

﴿إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾.

والصلاة فضلاً عن كونها ركن الإسلام ودعامة الإيمان، هي وسيلة الاتصال بالله العلي العظيم واستمداد العون منه سبحانه. وهي مظهر العبودية الخالصة التي يتجلى فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة. وصفة الدوام ﴿على صلاتهم دائمون﴾ تعطي صورة الاستقرار والاستطراد، فهي صلاة دائمة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل، لأنها صلة بالله تعالى مستمرة لا تنقطع. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا عمل شيئاً من العبادة أثبته ـ أي داوم عليه ـ وكان يقول: «إن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دام وإن قلَّ».

﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾..

وهي الزكاة على وجه التخصيص، والصدقات المعلومة القدر. وهي حق في أموال المؤمنين للسائلين والمحرومين. والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقاً في الأموال هو شعور بفضل الله من جهة، وبآصرة الإنسانية من جهة أخرى، فوق ما فيه من تحرر شعوري من ربقة الشح والحرص. وهو في الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة وتعاونها.

﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾.

هؤلاء هم الذين يؤمنون بالبعث، وبأن يوم الحساب والجزاء حق، ولا يشكون في ذلك ولا يرتابون. لذلك كان التصديق باليوم الآخر شطر الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام.

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون﴾..

وهذه ميزة على جانب كبير من الأهمية تنبثق من وراء التصديق

بيوم الدين. إنها ميزة للإنسان ذي الحساسية المرهفة، والرقابة اليقظة، الذي يشعر دائماً أنه مقصر في أداء واجبه تجاه ربه على كثرة العبادة. وخوفه من استحقاق العذاب، في أية لحظة، يجعله يتطلع إلى الله تعالى للحماية والوقاية.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من هو عند الله تعالى الذي اصطفاه ورعاه.. دائم الحذر دائم الخوف من عذاب الله. وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمة. ولقد قال لأصحابه: «لن يُدْخِلَ الجنةَ أحداً عملُهُ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

وفي قوله تعالى هنا ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾.. إيحاء بالحساسية المرهفة الدائمة التي لا تغفل لحظة. فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب. والله تعالى يطلب من المؤمنين، ومن الناس أجمعين، ألَّا يكونوا غافلين، بل عليهم أن يظلوا يقظين، ساهرين، حتى لا يأتيهم العذاب فجأة وهم عنه لاهون.. فإذا غلب على الناس ضعفهم، مع اليقظة، فرحمته تعالى واسعة، ومغفرته حاضرة، وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق. والقلب الموصول بالله ـ سبحانه ـ يحذر ويرجو، ويخاف ويطمع، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال. إنه هو الغفور الرحيم.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾..

وهذه تعني طهارة النفس والجماعة. فالإسلام يريد مجتمعاً طاهراً نظيفاً، وفي الوقت ذاته ناصعاً صريحاً.. مجتمعاً تؤدى فيه كل

الوظائف الحيوية، وتلبى فيه كل دوافع الفطرة، ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة.. مجتمعاً يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم، وعلى البيت الشريف الواضح المعالم.. مجتمعاً يعرف فيه كل طفل أباه ولا يخجل من مولده.. مجتمعاً يقوم على العلاقات الجنسية الحلال، لا على النزوات الحيوانية والشهوات المدمرة..

هذا هو مطلب الإسلام: حفظ الفروج من كلا الزوجين: الرجل والمرأة.. وفوق ذلك فقد أباح نكاح الإماء ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ من النسوة بسبب مشروع لأن الإسلام يجوّز وطء الأمة من صاحبها وحده، على أن يكون باب عتقها مفتوحاً ومتاحاً بجميع الوسائل الشرعية. والسبب الوحيد المشروع في الإسلام لوجود الإماء هو السبي عندما يكون هناك قتال في سبيل الله تعالى.. لأن الحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام هي الحرب في سبيل الله وجعل كلمته هي العليا وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى.. لا الحرب من أجل الاستعلاء وامتصاص دماء الشعوب. فالحروب الإسلامية لا تكون إلَّا من أجل خير الشعوب، وتحريرها من ربقة الاستعباد، وتحرير عقولها من الكفر والإلحاد.

فمن طلب وراء ذلك مما أباحه الله تعالى، فأولئك هم الذين تعدوا حدود الله تعالى. وبذلك يغلق الباب في وجه كل قذارة جنسية، في أية صورة غير هاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين: نكاح الزوجات ونكاح الإماء.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾..

فالحفاظ على الأمانات، ومراعاة العهود والمواثيق من الدعائم

الأساسية التي يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامي. ورعاية الأمانات والعهود تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبَين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان (كما سنفصّل فيما بعد). وهذه الأمانة الكبرى هي أمانة عقيدة التوحيد والاستقامة عليها. ويأتي بعدها رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الأصلاب أن الله تعالى ربهم وخالقهم ومقدرهم ومدبرهم. وهم على ذلك شهود.

ومن رعاية أمانة العقيدة، ورعاية أمانة العهد، تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود في معاملات الأرض. وقد جعل الإسلام رعاية الأمانة والعهد سمة النفس المؤمنة، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة. وقد ورد هذا في مواضع شتى من القرآن الكريم، وأكدته السنة النبوية الشريفة في أكثر من واقعة وظرف..

﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾.

وأولها وأجلها: شهادة أن لا إلّه إلا الله..

وقيمة الشهادة عظيمة جداً عند صاحب الشهادة. وقد أناط سبحانه بأدائها حقوقاً كثيرة، بل أناط بها حدود الله التي تقام بقيام الشهادة. فلم يكن بدّ أن يشدد الله تعالى على القيام بالشهادة، وعدم التخلف عنها ابتداء، وعدم كتمانها عند التقاضي، وأدائها بالحق دون ميل ولا تحريف.. وقد جعلها الله تعالى شهادة له هو ليربطها بطاعته، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾[1]. وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين، وهي أمانة من الأمانات أفردها بالذكر للتعظيم من شأنها وإبراز أهميتها.

---

(١) الطلاق: ٢.

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾.

فكما بدأ ـ النص القرآني ـ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة، ختمها كذلك بالصلاة.. ولها هنا صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات. فهي هنا تعني المحافظة على الصلاة في أوقاتها وأركانها. وعلى المؤمنين أن يؤدّوها بتمامها، وألّا يضيعوها إهمالاً وكسلاً، أو بعدم إقامتها على وجهها. وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحي بالاحتفاء والاهتمام..

وكما تقرر من قبل مصير الفريق الهلع الجزع المناع، يتقرر الآن مصير المؤمنين: ﴿في جنات مكرمون﴾.. ويجمع هذا النص القصير ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾ بين لون من النعيم الحسي ولون من النعيم النفسي. فهم في جنّات مكرمون، مبجلون. يجتمع لهم السرور بالنعيم مع التعظيم والتكريم، جزاء على خلقهم الكريم الذين يتميزون به في الحياة الدنيا كأناس مؤمنين.

الإنسان مخلوق من عجل

وكما في فطرة الإنسان الهلع والجزع، كذلك في طبعه العجلة، حتى أنه قد يستعجل أموراً وأحداثاً ربما لا تأتي لصالحه، ومع ذلك يُلحُّ في العجلة. ويبين القرآن الكريم هذه العجلة في طبع الإنسان في قول الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[1].

فالإنسان مخلوق من عجل، ولذا فهو مفطور على حب العجلة في أمره. وقد جاء في كتب التفسير أن آدم عليه السلام لما خُلق وجعلت

---

(١) الأنبياء: ٣٧.

الروح في أكثر جسده، وثب عجلان مبادراً إلى ثمار الجنة حيث خُلِقَ. وقال آخرون أنه همَّ بالوثوب قبل أن تسري الروح في جميع أنحاء جسده.

والعرب كانوا يستعملون هذا اللفظ عند المبالغة، يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم: ما خلق إلاَّ نُوَمَة. وبكثرة وقوع الشرِّ منه يقولون: ما خلق إلاَّ من شر..

فالعجلة إذن في طبع الإنسان وتكوينه. وهو يمد ببصره دائماً إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد أن يتناوله بيده، ويريد أن يحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به، ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه. تأخذه العجلة في ذلك كله، إلا أن يؤمن بالله تعالى فيثبت ويطمئن، وبالتالي يكل الأمر لله خالقه فلا يتعجل قضاءه.

وكان الكفرة المشركون يستعجلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعذاب، ويسألونه، إنْ لم يستجيبوا لدعوته، أن يأتيهم العذاب الذي يوعدون. ولكن الله تبارك وتعالى يحذرهم مما أصابَ المستهزئين من قبلهم، ويذكر لهم كم أهلك من القرون الغابرة بسبب تكذيبهم الرسل والاستهزاء بهم قال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ (١) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾(٢).

الناس والفساد

إن ابتعاد الناس عن الإيمان، وانصرافهم إلى المادة، والاندفاع

---

(١) تحيِّرهم.

(٢) الأنبياء: ٣٩ ـ ٤٠.

وراء متاع الحياة الدنيا دونما خوف من الله تعالى، ودونما وازع داخلي في النفس.. كل ذلك من شأنه أن يؤدي إلى الفساد الذي قد يعم الأرض في برها وبحرها.. ولكن القرآن الكريم يحذر الناس من الانقياد للفساد، والمداومة عليه، وينصحهم بالرجوع إلى ربهم تعالى فتصفو نفوسهم، ويحاربون الفساد، وتتطهر الأرض من الأدران التي لحقت بها. يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

مما لا شك فيه أن كل ما يظهر على الأرض من أحوال وأوضاع وأحداث إنما ينشأ ويأتي نتيجة لأعمال الناس. فإذا انحرفت هذه الأعمال عن مسارها الطبيعي، وتجاوزت حدود الله تعالى، وحدود المعقول والمقبول منها، فإنها تنقلب إلى فساد. وفساد أعمال الناس، وفساد عقائدهم، يوقع في الأرض الجور والظلم، ويملأها ـ براً وبحراً ـ بهما، كما يجعلهما مسيطرين على أقدارها، غالبين عليها.

والفساد عندما يصبح ظاهراً متفشياً، والظلم عندما يصير سائداً، لا بدَّ من عقاب يقع عليه كله أو على بعضه الذي يكون أشد إيذاءً وضرراً للناس. ويأتي هذا العقابُ من الله تعالى علَّ الناس يرتدعون، وإلى ربهم يرجعون، فيتوب العاصي، ويقلع الظالم عن ظلمه ويرتدع الفاسد عن فساده، والضال عن ضلاله..

نعم إن في العقاب عظة للناس لعلهم يرجعون إلى الله تعالى في الإيمان، وإلى العمل الصالح والمنهج القويم في الحياة. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المقام: «إن الله تعالى يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات،

---

(١) الروم: ٤١.

ليتوبَ تائب، ويقلع مقلع، ويتذكرَّ مدَّكر، ويزدجر مزدجر. وقد جعل الله تعالى الاستغفار سبباً لورود الرزق، ورحمة الخلق، فقال سبحانه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾[1]. فرحم الله امرءاً استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيته».

فالاستغفار يجلب الرزق، ويشيع الرحمة الربانية على العباد. قد يخطىء هؤلاء العباد كثيراً، ويعصون ربهم طويلاً، ولكنه ـ سبحانه ـ وهو الغفور الرحيم، يلطف بهم. ولو شاء أن يحاسب الناس على ما يرتكبون من الإثم والمعصية لزلزل بهم الأرض في كل حين يعم فيه الفساد. وهو تعالى يحذرنا بقوله الجليل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[2]، لأن ما يرتكبه الناس من المفاسد التي هي مجلبة للمعاصي والشرور جميعاً إنما يؤدي إلى الشرك بالله الواحد الأحد، والكفر بالنعم التي يهبها للناس ويتفضل بها على العباد، فوق ما يشيع في الأرض من ظلم وطغيان وضلال وإضلال.. وهذا كله فظيع وشنيع. ولو آخذ الله تعالى الناس عليه لأهلكهم كلهم، ولتجاوزهم هذا الهلاك إلى كل حيٍ يدب على ظهر هذه الأرض، ولأصبحت الحياة معدومة فيها تماماً، حتى يشاء الله تعالى أن ينشىء خلقاً جديداً.

والفساد الذي يظهر ويستفحل من إتيان الناس له يؤدي في النهاية إلى القضاء على حياتهم وحياة سائر الكائنات على الأرض، وذلك من أجل أن يُقضى عليه، وتتطهر الأرض من نجاسة أفعال البشر. وهذا ما

---

(١) نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٢) فاطر: ٤٥.

حصل في عهد نوح عليه السلام عندما بعث الله تعالى الطوفان فغطّى الأرض، وقضى على كل كائناتها الحية، إلّا ما شاء الله تعالى إبقاءه حفظاً للنوع والجنس. وبذلك تطهرت الأرض من فساد الكفار والمشركين، وعادت إليها طهارتها، فدبت فيها الحياة من جديد، وكثرت الأنواع والأجناس الحية. وما زالت الأرض تنعم بالطهارة في قليل من بقاعها، بينما هي تميد وتترنح تحت أعباء الفساد وأثقاله في معظم أنحائها. ودائماً تغلب رحمة الله تعالى فلا يؤاخذنا على فعالنا، وبما تكسب أيدينا، لأن بشاعة ما نتعاطى به نحن البشر فيما بيننا، وما يرتدُّ علينا من آثاره السيئة إنما يرتدُّ أيضاً على الحيوان الأعجم والزرع الأبكم، وكأنه سبحانه وتعالى يقول لنا: إن مظالمنا وشرورنا نحن بني البشر، فيها أيضاً ظلم وإرهاق للكائنات الحية الأخرى. ولو شاء سبحانَه أن يحاسبنا في هذه الدنيا لاستحققنا العذاب المباشر هنا، بالقضاء علينا، وعلى تلك الكائنات الأخرى لتخليصها من ظلمنا.. نعم إن ما يتعاطاه الناس فيما بينهم، له أثره المدمر للحياة كلها، هذا لو يؤاخذنا الله تعالى به مؤاخذة سريعة. ولكن الله الغفور الحليم لا يعجل على الناس ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(1).. يؤخرهم أفراداً لآجالهم الفردية حتى تنقضي أعمارهم التي حددها لهم في هذه الحياة الدنيا، ويؤخرهم جماعاتٍ أو دولاً إلى أجلهم في الحِقَبِ الزمنية المقدرة لهم حتى يُتاحَ للأجيال الأخرى أن تحل محل الجماعات المنقضية، وتنشأ دولٌ أخرى غير السابقة. والتاريخ البشري شاهدٌ على ما ذهب وقام من القبائل والجماعات والدول، بتتابع العصور والأجيال، وتداول الأيام بين الناس.. ثم هنالك تأخير للناس جميعاً إلى الأجل المحدد لانقضاء هذا العالم، ومجيء الساعة.. وإلى أن تحين الساعة تبقى الرحمة

---

(1) فاطر: ٤٥.

الربانية قائمة، والفرصة أمام الناس متاحة، لعلهم يرعوون، وعن غيِّهم يرجعون، وبما يأمرهم به دينهم يعملون.

وقد وقعت مشكلة في كيفية تصوّر هذا المفهوم القرآني. ذلك أن الناس ليسوا كلهم ظالمين عادة، إذ فيهم الأنبياء والمرسلون، وأولياء الله المخلصون، والمؤمنون الذين يعملون الصالحات.. فكيف يجوز أن يقع العذاب على كل هؤلاء وهل يطالهم هذا العذاب أيضاً؟

والحقيقة أنه لولا وجود هذه الفئات من البشر، لكان من المحتوم أن تأتي مؤاخذة الله تعالى للناس، ولأفنى الحياة على ظهر هذه الأرض. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإن القرآن الكريم يتحدث عن عقاب دنيوي.. يتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه أمة عن طريق الظلم والطغيان. وهذه النتيجة لا تصيب الظالمين من أبناء المجتمع وحدهم، بل تعم جميع أبناء المجتمع على اختلاف أجناسهم، وأفكارهم، وأهوائهم، ومشاعرهم، وسلوكهم. فعندما وقع التيه على بني إسرائيل نتيجة ما اكتسب هذا الشعب من ظلمٍ وطغيان وتمرّد، لم يسرِ هذا التيه على الظالمين وحدهم من بني إسرائيل، بل شمل أيضاً موسى عليه السلام الذي بعثه الله تعالى لمواجهة الظالمين والطواغيت، وشمل أخاه هارون عليه السلام ـ وهو نبي أيضاً ـ كما شمل جميع المؤمنين من بني إسرائيل، لأنهم كانوا جزءاً من ذلك الشعب.. وهكذا كان حكم الله تعالى على بني إسرائيل عامّاً، وظلوا في التياه لمدة أربعين عاماً، ولم يسلم منه أحدٌ ظلَّ حياً من بني إسرائيل طوال تلك المدة، حتى موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ.

وحين حلَّ البلاء بالمسلمين في غزوة أحد، طالَ هذا البلاءُ جميع المسلمين إن بالقتل أو الجرح أو الخوف أو الهرب أو الهزيمة..

وإنّ الله الحكيم قد شاء ذاك البلاء، من أجل تربية المسلمين تربية إيمانية صادقة وثابتة، لما قد يترتب عليها من آثار بالنسبة لحياة البشر جميعاً. .

والسبب في ما حلَّ بالمسلمين معروف في التاريخ الإسلامي، وهو مخالفة الرماة في الجيش لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركهم مواقعهم على «جبل عينين» الذي يشرف على أرض المعركة، اندفاعاً وراء المغانم، ووراء الكسب الشخصي، فكان أن ارتدت من خلفهم خيول المشركين وأوقعت بهم الهزيمة بعد النصر. . ووقع ما وقع. ولم يسلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاته من البلاء، فقد رماه أحد المشركين وهو ابن قميئة الليثي بالحجارة حتى أصيبت رباعيته، وشجَّ في وجهه الكريم، وكلمت شفتاه الطاهرتان، ودخلت حلقتان من المغفر الذي كان يستر به وجهَه الرضي، في وجنتيه الشريفتين. . بل واندفع ذلك اللعين المشرك يريد أن يقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لولا أن ذبَّ عنه الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه.

هذا بعض مما يريد الله سبحانه وتعالى أن يوجهنا إليه في الآية الكريمة، حتى يعيَ الناسُ، جميع الناس، مسؤولياتهم تجاه خالقهم، وتجاه أنفسهم وحياتهم. . فيرتد الكافر عن كفره، ويعود العاصي عن معصيته، ويرعوي الشرير عن شره، والضال عن ضلاله، ويضاعف المؤمنون والخيرون جهودهم فيما هم عليه من التقوى والخير لتزكية نفوسهم أكثر، وإصلاح نفوس الآخرين، صوناً للفرد والجماعة والمجتمع والأمة على حد سواء. .

ومن أهم الواجبات الدينية والدنيوية الملقاة على عاتق الناس جميعاً، طاعة الله ورسوله، وأداء الأمانة التي اختار الإنسان حملها.

الطاعة وحمل الأمانة

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]. هذا الإنسان، وبما خصّه خالقه وميّزه على غيره من الخلائق، مدعوٌّ إلى طاعة الله تعالى ورسوله الكريم. وهي طاعة مرتبطة أصلاً بنشأته ووجوده، ولذا وجب أن تستقيم هذه الطاعة حتى يحقق الإنسان وجوده ويبرز قيمته.. إنها واجب ديني وأخلاقي وإنساني في آن.. وهي بذاتها فوز عظيم للإنسان، لأنها استقامة على نهج الله تعالى. والاستقامة على نهج الله تعالى مريحة مطمئنة. والاهتداء إلى الطريق المستقيم هو سعادة بذاته، ولو لم يكن وراءه جزاء سواءه. وليس الذي يسير في الطريق الممهد المنير، وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويصادقه، كالذي يسير في الطريق الوعر المظلم، وكل ما حوله من خلق الله تعالى يعاديه، ويؤذيه ويصادمه. فطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم تحمل جزاءها في ذاتها، وهو الفوز العظيم، قبل يوم الحساب، وقبل الفوز بجنات النعيم. إذ أن نعيم الآخرة هو فضل زائد على جزاء الطاعة، وهو فضل من كرم الله تعالى وفيضه بلا مقابل.

ولعل هذا الفضل الكبير الذي وهبه سبحانه للإنسان إنما هو بسبب ضعف هذا الإنسان، وضخامة التبعة التي يحملها على عاتقه، وحمله للأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، والتي أخذها الإنسان على عاتقه، وتعهد بحملها وحده، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات، وقصور العلم، وقصر

---

(١) الأحزاب: ٧١ ـ ٧٢.

العمر، وحواجز الزمان والمكان، دون المعرفة الكاملة، ورؤية ما وراء الحواجز والآماد.

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾.

هذه السماوات التي يجهل الإنسان آفاقها، وهذه الأرض التي لمَّا يعلم عنها إلَّا قليلاً، وهذه الجبال التي تنتصب أمامَهُ في كل قارات الأرض، وفي أعماق محيطاتها وبحارها.. هذه السماوات والأرض والجبال ـ وأين منها الإنسان بصغره وحجمه ـ تعرف الله تعالى خالقها، وتخضع لمشيئته، وتطيعه بلا جهد منها ولا كدٍّ ولا محاولة.. إنها عندما عرضت عليها أمانة التبعة خافت من حملها خوفاً شديداً مانعاً، لأنها أمانة الإرادة، وأمانة المعرفة الذاتية، وأمانة المحاولة الخاصة، وهي لا تملك هذه القيم العظيمة التي يحتويها تكوين الإنسان.. ﴿وحملها الإنسان﴾ الذي يعرف الله بارئه، بإدراكه وشعوره، والذي يهتدي إلى حقيقة وجوده ـ سبحانه ـ بتفكره وتأمله، والذي يطيع الله ربَّهُ بإرادته، وحمله لنفسه، ومقاومة انحرافاته ونزعاته، ومجاهدة ميوله وشهواته.. وهو مدرك، مريد، فعال لكل خطوة من خطواته.. يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي هذا الطريق..

هذا الإنسان، الذي حمل الأمانة، واختار الطريقَ المحفوفَ بالأشواكِ، ورمى بنفسه في لجج المصاعب ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾.. كان ظلوماً لنفسه بتعرضه لارتكاب المعاصي التي تبعده عن مستوى عبء المسؤولية التي اختار حملها، وظلوماً لنفسه بجهله طاقاته المحدودة التي لا تلبي حاجات الحمل وأعباءه الثقال. وكل من خان الأمانة فقد احتمل وزر خيانتها، وكذلك كل من سعى للخطيئةِ فقد

احتمل الإثم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[1].

قال الشاعر في حمل الأمانة:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانةً   وتحمل أخرى أثقلتك الودائعُ

وهو يعني أنك إذا كنت لا تزال تقبل أمانة وتؤدي أخرى، شغلت نفسك بقبولِ الودائع وأدائها، فأثقلتك.. وفي اللغة العربية تأتي لفظة «عرضنا» بمعنى عارضنا وقابلنا. فيكون المعنى في الآية الكريمة: إن هذه الأمانة في جلالة موقعها، وعظم شأنها لو قيست بالسماوات والأرض والجبال وعورضت أي وقوبلت بها، لكانت هذه الأمانة أرجح وأثقل وزناً. وأما قوله تعالى: ﴿فأبين أن يحملنها﴾ فمعناه: ضعفن عن حملها كذلك وأشفقن منها، لأن الشفقة ضعف القلب، ولذلك صارت كناية عن الخوف الذي يضعفُ عندَه القلب. هذه الأمانة التي هي أثقل من السماوات والأرض والجبال العظيمة تقبَّلها الإنسان مع ضعف إمكاناته وهزال جسمه ولكنه ما قدر على حفظها، بل حملها وضيَّعها لظلمه لنفسه، ولجهله بأثقالها وبمبلغ الثواب والعقاب المترتبَين عليها..

وفي تفسير آخر: أنه لو كانت السماوات والأرض والجبال عاقلة، ثم عرضت عليها الأمانة ـ وهي وظائف الدين أصولاً وفروعاً ـ عرض تخيير، لاستثقلت ذلك مع كبر أجسامها، وشدتها، وضخامتها، ولامتنعت من حملها خوفاً من القصور عن أداء حقها.. ثم حملها الإنسان، مع ضعف جسمه، ولم يخف الوعيد بظلمه وجهله.

---

(١) العنكبوت: ١٣.

أما الأنبياء والأولياء والمؤمنون فهم لا يدخلون تحت مفهوم «الإنسان» الذي حمل الأمانة، وكان بحمله هذا ظلوماً لنفسه، جهولاً بأنَّ النفس البشرية من الصعب عليها جداً دوام حمل الأمانة وأدائها، والمحافظة عليها..

اللهم اجعلنا من الذين يحملون الأمانة ويستطيعون المحافظة عليها..

نسأل الله العلي القدير أن نكون قد وفقنا في محاولتنا هذه في إعداد هذا الكتاب لأن يكون خادماً أميناً لكتاب الله العظيم ولسنة الرسول الكريم، وأن نكون نحن قد أدينا القليل مما حُمّلنا من أمانة، كما نرجوه أن يعفو عنا إن كنا قد أهملنا أو قصَّرنا، فهو العليم الحكيم وهو الغفور الرحيم.

انتهى
بعون الله تعالى وتوفيقه
المجلد الثاني والأخير
والحمد لله رب العالمين



المراجــع

(١) القرآن الكريم

(٢) نهج البلاغة

(٣) صحيح البخاري ــــــــــــــــــــ البخاري

(٤) صحيح مسلم ــــــــــــــــــــ شرح النووي

(٥) الموطأ ــــــــــــــــــــ مالك بن أنس

(٦) الأم ــــــــــــــــــــ محمد بن إدريس الشافعي

(٧) مسند أبي حنيفة ــــــــــــــــــــ أبو حنيفة

(٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل ــــــــــــــــــــ أحمد بن حنبل

(٩) السنن الكبرى ــــــــــــــــــــ البيهقي

(١٠) سنن ابن ماجه ــــــــــــــــــــ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

(١١) سنن النسائي ــــــــــــــــــــ شرح الحافظ جلال الدين السيوطي

(١٢) مجمع البيان ــــــــــــــــــــ الطبرسي

(١٣) الكشاف ــــــــــــــــــــ الزمخشري

(١٤) في ظلال القرآن ــــــــــــــــــــ سيد قطب

(١٥) لسان العرب ــــــــــــــــــــ ابن منظور

(١٦) تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم ــــــــــــــــــــ سميح عاطف الزين

(١٧) كتاب السياسة ــــــــــــــــــــ ابن سينا

(١٨) آراء أهل المدينة الفاضلة ــــــــــــــــــــ أبو نصر الفارابي

(١٩) تحفة المودود بأحكام المولود ــــــــــــــــــــ ابن قيم الجوزية

(٢٠) الوجيز في علم الأجنة القرآني ـــــــــــــ محمد علي البار
(٢١) علم نفس النمو: الطفولة والمراهقة ـــــــــــــ حامد زهران
(٢٢) الشخصية ـــــــــــــ محمد تقي الدين النبهاني
(٢٣) التفكير ـــــــــــــ محمد تقي الدين النبهاني
(٢٤) نظريات الشخصية ـــــــــــــ كالفين هول ـ ليندزي، ترجمة فرج أحمد فرج
(٢٥) أضواء على الشخصية والصحة العقلية ـــــــــــــ عثمان لبيب فراج
(٢٦) الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي ـــــــــــــ وايم الخولي
(٢٧) المعجم الفلسفي ـــــــــــــ جميل صليبا
(٢٨) علم النفس ـــــــــــــ جميل صليبا
(٢٩) مداخل علم النفس ـــــــــــــ لندا ل. دافيدوف
(٣٠) علم النفس الحديث ـــــــــــــ مصطفى سويف
(٣١) المرجع في علم النفس ـــــــــــــ سعد جلال
(٣٢) مذاهب علم النفس ـــــــــــــ علي زيعور
(٣٣) أصول الطب النفساني ـــــــــــــ فخري الدباغ
(٣٤) الطب النفسي المعاصر ـــــــــــــ أحمد عكاشة
(٣٥) قضايا نفسية في علم النفس المعاصر ـــــــــــــ عطُوف محمود ياسين
(٣٦) أسس الصحة النفسية ـــــــــــــ عبد العزيز القوصي
(٣٧) التحليل النفسي (ترجمة الشنيطي) ـــــــــــــ ارنست جونز
(٣٨) الموجز في التحليل النفسي (ترجمة سامي محمود علي) ـــــــــــــ فرويد
(٣٩) كتاب تفسير الأحلام الكبير ـــــــــــــ محمد بن سيرين
(٤٠) تعطير الأنام في تعبير المنام ـــــــــــــ عبد الغني النابلسي
(٤١) الأمراض النفسية والعقلية ـــــــــــــ عزت راجح
(٤٢) علم النفس الديني ـــــــــــــ سيربل بيرت
(٤٣) التربية النفسية في المنهج الإسلامي ـــــــــــــ حسن الشرقاوي
(٤٤) القرآن وعلم النفس ـــــــــــــ محمد عثمان نيجاتي
(٤٥) الحديث النبوي وعلم النفس ـــــــــــــ محمد عثمان نيجاتي
(٤٦) من علم النفس القرآني ـــــــــــــ عدنان الشريف
(٤٧) التعريفات ـــــــــــــ علي بن محمد الجرجاني
العديد من النشرات والمجلات

الفهــرس

الفصل التاسع

الإيمان بالغيب وأثره على النفس الإنسانية ٧
علم الغيب وتأثيره على الحضارة والمدنية ١٣
العلم اللّدني ١٦
الرؤى غير الأحلام ٢١

الحق والباطل ٣٥
كيف يتم طمس الحقائق أو الصرف عنها ٣٧
الصواب والخطأ ٤٠
أولاً: الحق ٤٠
ثانياً: الباطل ٤٣
ثالثاً: أهل الحق وأهل الباطل ٤٥

الضلال والخطأ ٥٥
الهدى والضلال ٥٦
القرينة الشرعية ٦٧
القرينة الشرعية والعقلية ٦٨

الفصل العاشر

النفس ونزع الشيطان ٧٣
النزغ من عداوة الشيطان ٧٣
وعد الله تعالى ووعد الشيطان ٧٨
الاستعانة بالله تعالى ٨٠
الوسوسة في الصدور ٨٢
فتنة الشيطان ٨٨
وسوسة الشيطان ٩٢
مس الشيطان ٩٣
الاستمرار في المعصية استسلام للشيطان ٩٤
الفتنة والتجربة ٩٧
الفتنة عن الدين ٩٨
الإغواء والإغراء ١٠٧
فتنة المؤمن ١٠٩
غفران الذنوب ١١٣

الفصل الحادي عشر

الدوافع والبواعث ١١٩
الدوافع الفطرية ١٢١
الدوافع النفسية ١٢٣
الصراع بين الدوافع ١٢٤
إثارة الدوافع ١٢٥
انحراف الدوافع ١٢٩
السيطرة على الدوافع ١٣٣

الفصل الثاني عشر

الانفعالات ١٤١

١ ـ انفعال الضحك والبكاء ١٤٥
٢ ـ انفعال الغضب ١٤٦
٣ ـ انفعال الحب ١٤٧
العقد النفسية ١٤٩
(أ) عقدة قصر العمر ١٥٥
(ب) عقدة العذاب عند الموت ١٥٦
(جـ) عقدة القبر ١٥٧
الحيل العقلية ١٦١
تداعي الأفكار أو تجمع الأفكار ١٦٥
حلّ المشكلة ١٦٧
السيطرة على الانفعالات ١٦٩

الفصل الثالث عشر

القناعة والثقة ١٧٣
الثقة بالنفس ١٧٨
الجدِّية والتغيير ١٨١
التغيير ١٨٢
ولكن ما هو تأثير هذا التغيير في العلاج النفسي ١٨٦
الأصالة ١٨٨

الفصل الرابع عشر

الظروف والملابسات ١٩٣
الظرف ١٩٣
الملابسات ١٩٤
الأحداث والوقائع ١٩٦
الأجواء والمناخات ١٩٩

اللهو والمزاح ١٩٩
البطر والطرب ٢٠٢
الإيقاع ٢٠٣
الذوق ٢٠٤

الفصل الخامس عشر

مجاهدة النفس ٢٠٩
المناعة النفسية ٢١١
تحري الصدق والإقلاع عن الكذب ٢١٤
اليقين والظن ٢١٦
الشك ٢١٩
الحدس ٢٢٠
اليقين ٢٢٠
العفو والانتقام ٢٢١
الصبر والجزع ٢٢٥
الصبر ٢٢٥
الجزع ٢٢٦
الإخلاص وترك الرياء ٢٢٩
الرياء ٢٢٩
اللين ٢٣١
الإخلاص ٢٣٤
تأثير الإطراء والمجاملة على النفس ٢٣٥
الإصغاء والاستماع ٢٤١

الفصل السادس عشر

العلاج النفسي ـ الأمراض النفسية العصابية ٢٤٩

الأمراض العقلية والذهنية ٢٥٤
العلاج النفسي والأمراض النفسية ٢٥٥
القلق عدو للنفس الإنسانية ٢٥٧
العلاج النفسي في الإسلام ٢٦٣
العلاج النفسي عند ابن القيم ٢٦٧
الوقاية والتقوى ٢٧٤

الفصل السابع عشر

الأمان النفسي ٢٨٧
الشورى ٢٨٨
العبادات ٢٩٥
الصلاة ٢٩٦
الصيام ٣٠٠
الزكاة ٣٠٥
الحج ٣٠٦
تلاوة القرآن وذكر الله تعالى ٣٠٧
التوبة ٣٠٩
الندم والحسرة ٣١١

الفصل الثامن عشر

السعادة ٣١٧
التفاؤل والتخلي عن التشاؤم ٣٢٠
التواضع وترك الكبر ٣٢٥
الكبر ٣٢٥
الغرور ٣٢٨
التواضع ٣٢٩

الرحمة والرأفة ٣٣٠
العمل بصحة التوكل على الله تعالى ٣٣٢

الخاتمة

خيارات ومواقف ٣٤٠
خيار من يريد الدنيا والآخرة معاً ٣٤٥
نظام الإسلام وحده فيه الخلاص ٣٤٩
الإنسان ٣٥٣
القرآن والبيان في حياة الإنسان ٣٥٥
تعليم الإنسان البيان ٣٥٧
محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن ٣٥٨
أهمية العلم في حياة الإنسان ٣٦٠
قُتِل الإنسانُ ما أكْفَره ٣٦٣
دعاء المضطر وإعراضه ٣٦٥
نَسوا الله فَنَسِيَهم ٣٦٧
الله تعالى يبسط الرزق ٣٦٩
الإنسان بين اليأس والتفاخر ٣٧١
أعمال الصابرين ٣٧٣
كلٌ يعمل على شاكلته ٣٧٤
الإنسان القتور ٣٧٥
نِعَمُ الله لا تحصى ٣٧٦
الإنسان الكنود ٣٧٧
الجشع ومعالجة القرآن له ٣٧٨

الإنسان مخلوق من عجل ٣٨٥
الطاعة وحمل الأمانة ٣٩٢
المراجـع ٣٩٧

كتب للمؤلف

خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم
قصص الأنبياء في القرآن الكريم
علم أصول الفقه الميسّر
الإعراب في القرآن الكريم
تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم
الأمثال في القرآن الكريم
الإسلام وثقافة الإنسان
الإسلام وإيديولوجية الإنسان
الثقافة والثقافة الإسلامية
الصوفية في نظر الإسلام
الإسلام نظام
لمن الحكم لله أم للإنسان
طريق الإيمان
صفات الداعية
السياسة والسياسة الدولية
حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي
المسلمون من هم
عوامل ضعف المسلمين

كتب للمؤلف

سلسلة خاتم النبيين

سلسلة قصص الأنبياء

سلسلة أمهات المؤمنين

سلسلة أئمة المسلمين

سلسلة الخلفاء الراشدين

سلسلة أعلام التصوف

سلسلة الغزوات